www.kotobarabia.com

جهاد

جمال البنا

www.kotobarabia.com

جهاد

جمال البنا

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.



مُقدمة

كان الجهاد كبركان خامد لم يتحرك لعدة قرون حتى اعتقد الناس أنه فقد تفاعلاته الداخلية فعاشوا فى سفحه آمنين[١] .

وفى أربعينات القرن الماضى كتب الإمام الشهيد حسن البنا رسالة الجهاد التى أعاد بها إلى الإسلام قسمته الجهادية. وأثبت أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة – ولكنه أدخر دوره لمقاومة الاستعمار ثم وضع النقط على الحروف، عندما كون "المتطوعين" الذين سافروا إلى فلسطين وقاموا بأول المجابهات مع الإسرائيليين .

وقام هؤلاء المتطوعون أنفسهم بدورهم فى حرب المعسكرات البريطانية بمنطقة القنال سنة ١٩٥١ وقدموا شهداءهم .

---

(١) لا ينفى هذا أن بعض فئات المسلمين فى الهند تنبهوا إلى أهمية الجهاد كما فى حركة الإمام أحمد السرهندى والذين اتبعوه مثل الشهيد إسماعيل بن الإمام ولى ا الدهلوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة .

وكانت رسالة الجهاد قائمة على آيات قرآنية معـززة بأحاديث ربما فاقت الآيات ومشفوعة ببعض آراء الفقهاء .

وأدت تطورات عديدة لأن يبدأ فريق من الدعاة، مـن حيث أنتهى إليه الإمام البنا وأن لا يقنعـوا بجعـل الجهـاد فريضة، ولكنهم جعلوه "**الفريضة**" ومدوا فى اختصاصـه – وهذا هو التطور الجديد – إلى أن يكون أداة لنشر الإسـلام وإنقاذ الدول الأوربية من "جاهلية القرن العشـرين" وعبـادة الأفراد إلى عبادة ا الواحد القهار .

وأدى بهم هذا الاجتهاد السقيم لأن "يجاهـدوا" الدولـة التى فى نظارهم لا تحكم بما أنزل ا . ومن هنا فإنها أولـى وأحق وأقرب من جهاد النظم الأخرى البعيدة .

وانزلقوا مرة أخرى بهذا الجهاد المزعوم إلى محاولـة اغتيال المسئولين بما فيهم رئيس الدولة وقتل أقباط أو جنود وضباط وسرقة محال الصاغة حتى ماثل أعمال العصابات .

ونتجت عن ذلك نتائج مأساوية عكرت صفو الأمـة، وأنشأت عداوة جديدة بين الدولة والتيارات الإسـلامية وأدت إلى سجن وقتل مجموعة من الشـباب الـذين قـاموا بهـذه

الأعمال وهرب بعضهم إلى الخارج. بينما قتل أبرياء وسياح وتلوثت سمعة البلاد .

وهكذا أخذ الجهاد شكلاً آخر غير ما يصوره الإسلام بل يمكن غير ما تصوره أصحابه أنفسهم الذين أودت بهم انزلاقاتهم – انزلاقا إثر انزلاق إلى هذه النتائج المأساوية .

* * *

والرسالة التى بين يدى القارئ تختلف عن كافة الكتابات والتصورات عن الجهاد.. وهى ترى أن الجهاد كان فى الماضى والحاضر من أكبر الموضوعات التى أسئ فهمها، وان هذا أفسح المجال فى العصر الحديث لأن يظلم من نقدة الشريعة ومن سدنة الشريعة، وأن يظلم فى الداخل ويظلم فى الخارج وأساء تناوله والتعامل معه المستشرقون والجماعات الإسلامية. وأن استهدف الأولون الكيد للإسلام واستهدف الآخرون الانتصار للإسلام .

وجاء هذا الخطأ فى الفهم بالدرجة الأولى نتيجة للخلاط بين "الجهاد" و "القتال" واعتبارهما موضوعاً واحداً، بل وتغليب القتال على الجهاد ومعالجة الجهاد باعتباره قتالاً ..

وهذا خطأ جسيم. فالجهاد مصطلح من أصل واشتقاق لغوى يدل على مضمون معين ويكون له بالتـالى الوسـائل والأهداف التى يدل عليها أو يؤدى إليها مضمونه. والقتـال مصطلح من أصل واشتقاق لغوى يدل على مضمون معـين يختلف عن الأصل اللغوى لكلمة جهاد، وكذلك لـه وسـائل وغايات مختلفة .

وقد وجد الجهاد دون قتال. كما وجد مع القتال وكان لكل واحد منهما أساوبه وغايته المختلفة – وفيما نرى فإن الجهاد – بالصورة التى سنعرضها – يكون هو الأصل الدائم أما القتال فطارئ يلزم اللواذ به عندما تتطلب الضـرورات ذلك .

ومن الناحية التاريخية والواقعية، فقد ظـل الرسـول وصحابته يجاهدون فى مكة طـوال ثـلاث عشـرة سـنة ويستخدمون وسائل الجهاد التى سنعرضها فيما سيلى، والتى تضمنت "الحكمة والموعظـة الحسـنة والصـبر والثبـات، والهجرة إلى الحبشة الخ... وكانت الثمـرة العظمـى لهـذا الجهاد فتح المدينة الذى تم بالقرآن. كما قالت عائشة "**فتحـت المدينة بالقرآن**" فقد فتحها القارئ مصعب بن عمير بفضـل

قراءته القرآن. وعلى أساس هذا الفتح الذى لم يحدث بسيف أو سنان أو حرب أو قتال، جاءت كل الفتوح، بما فيها مكـة التى اعتبرت تكليلاً لمرحلة القتال التى بدأت منذ الهجرة .

لدينا إذن، أسلوبان استخدماً لرفـع الإسـلام ونشـره وترسيخ دعائمه هما الجهاد والقتال وتطلبت طبائع الأمـور والأسس العامة لظهور الدعوات. أن يظهر هذان الأسـلوبان كل فى المرحلة التى ظهر فيها، فظهر الجهاد أولاً. واستغرق المرحلة الأول من تاريخ الدعوة النبوية وتم فيهـا ترسـيخ العقيدة والإيمان بقيمها وكان اضطهاد المشركين للمـؤمنين نعمة فى شكل نقمة لأنه ميز المـؤمنين وعلمهـم الصـمود وأذهب من نفوسهم نوازع السلبية والاستخذاء. باختصار كان مدرسة تربى الدعاة وتنشئ المؤمنين .

وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة، وأصـبحوا فـى وضع يمكنهم من الانتصاف ويعطيهم الأداة التى يحمون بها العقيدة. بدأ القتال وكان فى حقيقته دفاعاً عن النفس ودفاعـاً عن العقيدة. وهذا هو سر كلمة "لكى لا تكـون فتنـة" التـى تكررت فى آيات القتال .

واستعراض المرحلتين يوضح أن مرحلة الجهاد هـى المرحلة الدائمة والمستمرة وأن المرحلة الثانية – القتـال – ليست إلا مرحلة تكميلية لتأمين حرية العقيدة ولصد الهجـوم على المؤمنين. فإذا انتفى هذان، فلا يكون هناك حاجة لقتال فى حين يكون هناك حاجة دائمة ومستمرة إلى جهاد، كما أن هذا لا ينفى أن يكون المجتمع مستعداً للقتال عنـدما تتطلـب الظروف. وانتفاء القتـال لا يعنـى الـدخول فـى مرحلـة "الاسترخاء" ولكنه فى الحقيقة انتقال من جهاد إلى جهاد. من جهاد أصغر إلى جهاد أكبر .

نعم، قام المسلمون بالفتوحات الكبيرة بعد أن تحقق لهم الأمن ولم يعد هناك حاجة لصد هجوم أو دفع فتنة، وارتؤى أن هذه الفتوحات كانت العامل الأكبر فى نشر الإسلام، ولكن هذا فصل من التاريخ الإسـلامى ولـيس مـن المضـمون الإسلامى للعقيدة أو الشريعة. وعندما يوزن بموازين التاريخ فستتضح المزايا التى تميزه، كما سـيظهر القصـور الـذى لحقه ..

* * *

لنعدد مرة أخرى إلى اللبس الذى وقع فيه نقدة الشريعة وسدنتها ما بين الجهاد والقتال فكيف حدث هذا اللـبس ومـا الدواعى إليه .

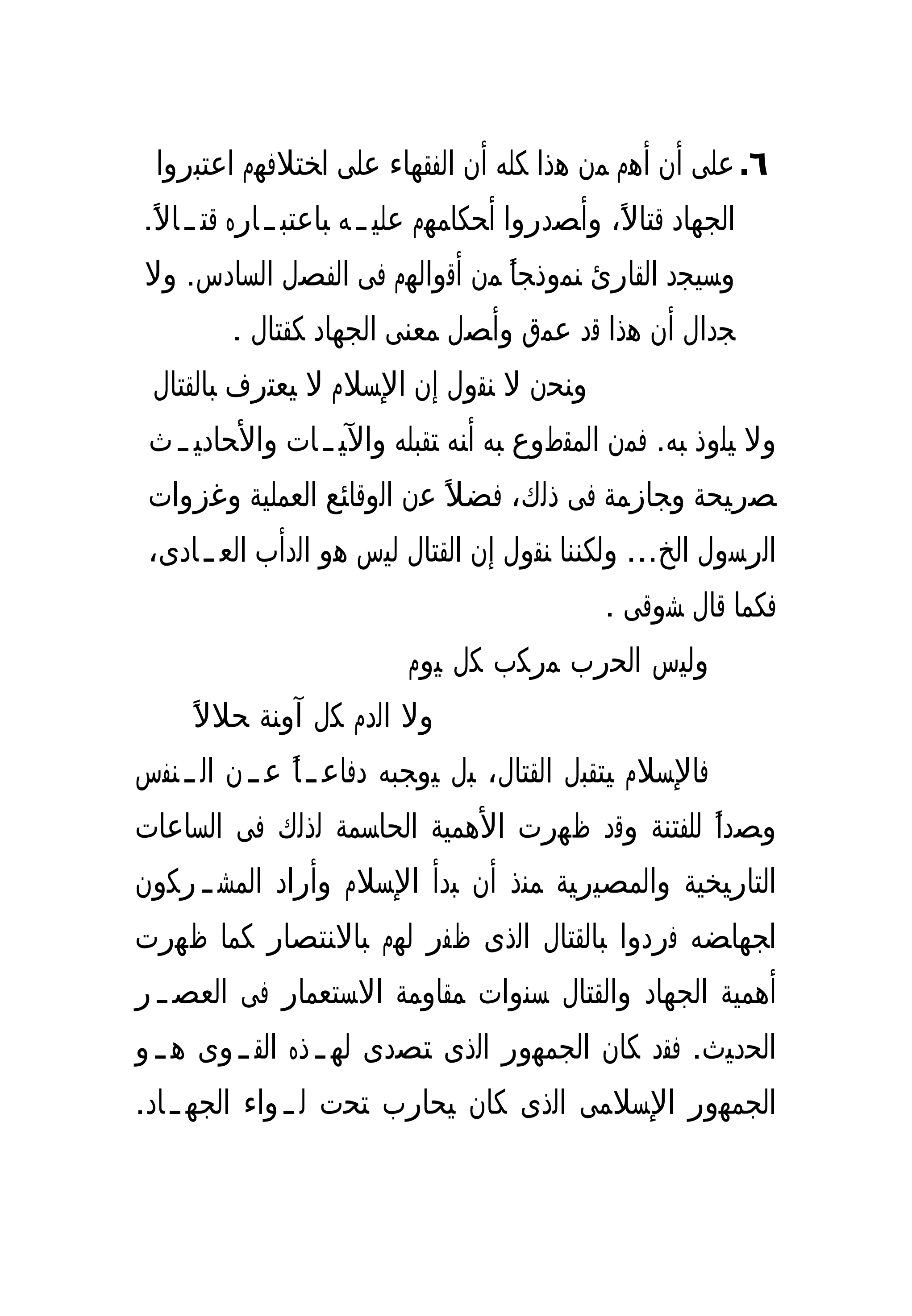
١. إن السبب الأكبر هو أن الذين بحثوا فى هـذا الموضـوع "اقتنصوا" آية أو عدداً من الآيات، عزلوها عـن سـياقها، وجردوها من ملابساتها. وحكموا بها. ومثل هذا الموضوع الخطير لا يمكن أن يعالج بالنظر إلى بضـع آيـات، لأن دراسة موضوع ما فى القرآن لا يستوفى إلا بدراسة كل ما جاء فى القرآن عنه، لأنه يتحدث عنه فى سـورة بمـا لا يتحدث عنه فى سورة أخرى ومن ثـم فمـن الضـرورى استحضار واستصحاب كل الآيات التى جاءت عن القتـال أو الجهاد والخروج بالحكم الذى تؤدى إليه مقارنة الآيـات بعضها ببعض .

٢. كذلك من المحتمل أنهم أخذوا كلمتى "الجهـاد" و"القتـال" كمترادفتين يعطيان معنى واحداً أو متقارباً، ولـم يشـغلوا أنفسهم بدلالة التفرقة اللغوية. فاعتبروا أن التضحية بالنفس هى أعلاً مراحل الجهاد، كالشاعر الـذى رأى أن "الجـود بالنفس أقصى غاية الجود" .

٣. كذلك قد يكون لهم عذر فى أن القتال فى الإسلام يختلـف عن القتال للثأر، أو الغنيمة، أو العصبية أو غير ذلك مـن مآرب دنيوية، وكلمة الجهاد هـى التـى تضـفى عليـه المضمون الإسلامى .

٤. ويجب الإشارة إلى أن سوء الفهم الذى لحق بالجهاد والقتال لا يقف عند اعتبار الجهاد قتالاً، ولكنه يشمل أيضاً مفهـوم هذا القتال بما يجاوز الغرض منه وهو صد الهجـوم ودرأ الفتنة إلى نشر العقيدة ومحاولة "أسلمه العالم" وإنقاذه مـن الجاهلية الحديثة وتعريفه بالحاكمية الإلهية. وهـو تطـور خطر يفتح بابا للمساس بحرية العقيدة لإطـراف أخـرى، ويلقى بنا فى الأبعاد السحيقة لما يصـل إليـه التطـرف، والأمواج المتلاطمة التى تكتنفه .

٥. كذلك مما يجعل هذا اللبس مفهوماً أن كثيراً من الأحاديـث النبوية جاءت بطريقة تحتمله، وأنها أعلت كفة القتال فـى كثير من الحالات ومعلوم بالطبع أن الاستناد على السـنة عادة ما يكون أكثر من الاستناد علـى القـرآن لوضـوح الأحاديث وتفصيلها وأنها عادة تكون اسـتجابة لمطالـب آنية .



٦. على أن أهم من هذا كله أن الفقهاء على اختلافهم اعتبروا الجهاد قتالاً، وأصدروا أحكامهم عليـه باعتبـاره قتـالاً. وسيجد القارئ نموذجاً من أقوالهم فى الفصل السادس. ولا جدال أن هذا قد عمق وأصل معنى الجهاد كقتال .

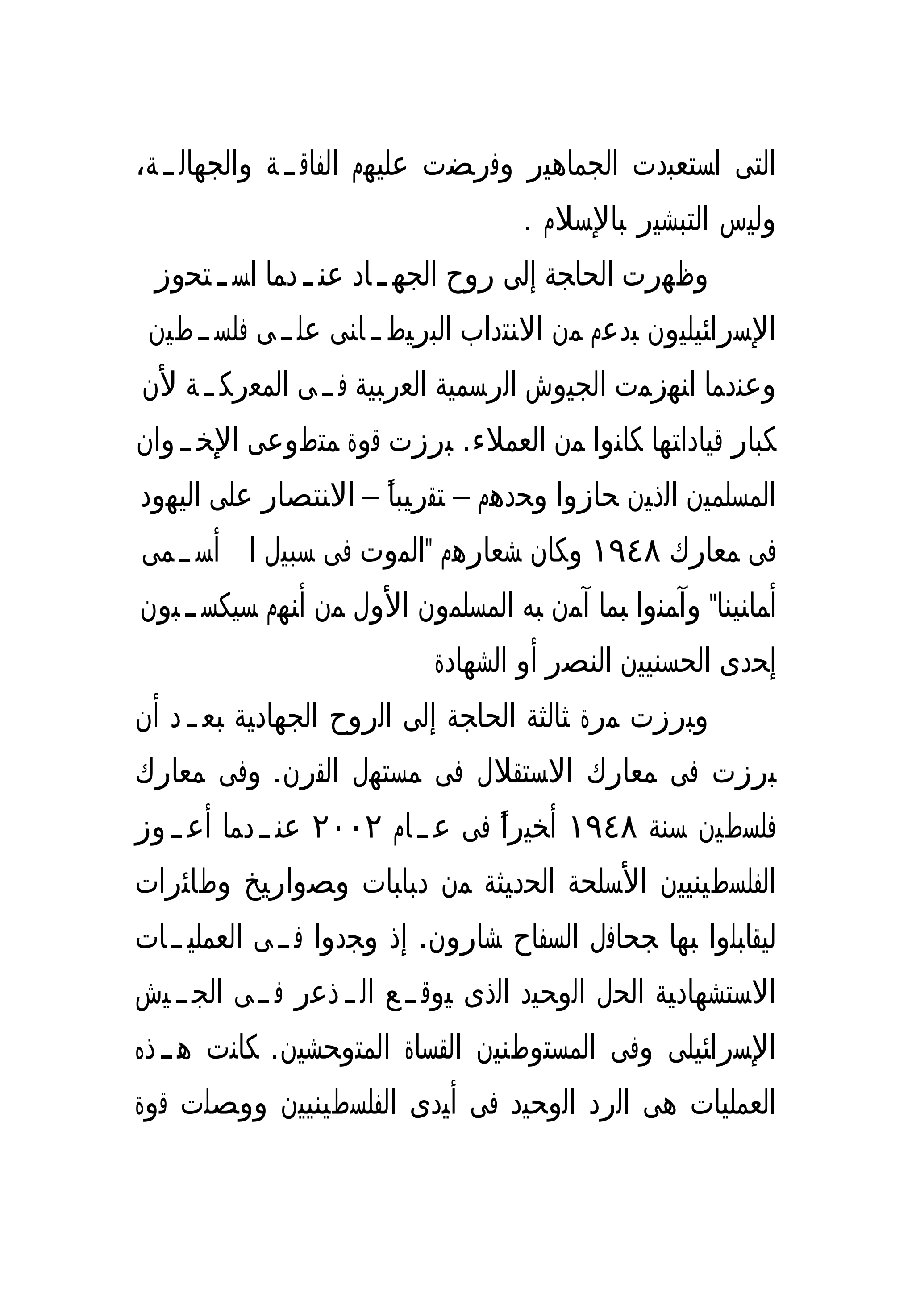
ونحن لا نقول إن الإسلام لا يعترف بالقتال ولا يلوذ به. فمن المقطوع به أنه تقبله والآيـات والأحاديـث صريحة وجازمة فى ذلك، فضلاً عن الوقائع العملية وغزوات الرسول الخ... ولكننا نقول إن القتال ليس هو الدأب العـادى، فكما قال شوقى .

وليس الحرب مركب كل يوم

ولا الدم كل آونة حلالاً

فالإسلام يتقبل القتال، بل يوجبه دفاعـاً عـن الـنفس وصداً للفتنة وقد ظهرت الأهمية الحاسمة لذلك فى الساعات التاريخية والمصيرية منذ أن بدأ الإسلام وأراد المشـركون اجهاضه فردوا بالقتال الذى ظفر لهم بالانتصار كما ظهرت أهمية الجهاد والقتال سنوات مقاومة الاستعمار فى العصـر الحديث. فقد كان الجمهور الذى تصدى لهـذه القـوى هـو الجمهور الإسلامى الذى كان يحارب تحت لـواء الجهـاد.

وكانت عقيدة الجهاد التى تمكنت من الجماهير ووصلت إلى أعماق نفسها هى القوة التى جعلتها تصمد أمام بنادق ومدافع الجيوش الاستعمارية، وحالت دون أن يتطرق إليها الضعف حتى عندما تنهزم فى معركة فإنها كانت تستأنف فى معركة أخرى حدث هذا فى كل الدول الإسـلامية التـى تعرضـت للاستعمار وأرادت التحرر منه. فتحت لواء السنوسية وعمر المختار حاربت ليبيا وتحت لواء عبـد القـادر الجزائـرى حاربت الجزائر، وتحت لواء عبد الكريم الخطابى حاربـت المغرب وتحت لواء المهدى حاربت السودان، وتحت قيـادة شيوخ الأزهر ثارت القاهرة على نابليون ولكن هذا كله، من بداية القتال فى عهد الرسول حتى مقاومة الاسـتعمار كـان دفاعاً عن النفس والعقيدة، ولم يكن هجوماً على الآخـرين أو محاولة لضم أرضهم ومن المفارقة أن نقبل الحـرب دفاعـاً عن أنفسنا وعقيدتنا ثم نقبل الحرب هجومـاً علـى نفـوس الآخرين وعقيدتهم، ونصوص القرآن الكريم واضـحة فـى هذا فكل ما يمت إلى العقيدة، فإن الإكراه مستبعد منه. وعلى هذا الأساس تقبل أو ترفض الفتـوح الإسـلامية، ويكـون الأساس الذى أوجبها هو العدالة والقضاء على النظم الطبقية



التى استعبدت الجماهير وفرضت عليهم الفاقـة والجهالـة، وليس التبشير بالإسلام .

وظهرت الحاجة إلى روح الجهـاد عنـدما اسـتحوز الإسرائيليون بدعم من الانتداب البريطـانى علـى فلسـطين وعندما انهزمت الجيوش الرسمية العربية فـى المعركـة لأن كبار قياداتها كانوا من العملاء. برزت قوة متطوعى الإخـوان المسلمين الذين حازوا وحدهم – تقريباً – الانتصار على اليهود فى معارك ١٩٤٨ وكان شعارهم "الموت فى سبيل ا أسـمى أمانينا" وآمنوا بما آمن به المسلمون الأول من أنهم سيكسـبون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة

وبرزت مرة ثالثة الحاجة إلى الروح الجهادية بعـد أن برزت فى معارك الاستقلال فى مستهل القرن. وفى معارك فلسطين سنة ١٩٤٨ أخيراً فى عـام ٢٠٠٢ عنـدما أعـوز الفلسطينيين الأسلحة الحديثة من دبابات وصواريخ وطائرات ليقابلوا بها جحافل السفاح شارون. إذ وجدوا فـى العمليـات الاستشهادية الحل الوحيد الذى يوقـع الـذعر فـى الجـيش الإسرائيلى وفى المستوطنين القساة المتوحشين. كانت هـذه العمليات هى الرد الوحيد فى أيدى الفلسطينيين ووصلت قوة

الرغبة فى الاستشهاد درجة فاقت مـا وصـلت إليـه عنـد الفلاحين المصريين الذين تطوعوا فى صفوف الإخوان وقبل الواحد منهم أن يبيع الجاموسة، وهى رأس ماله – ليشـترى بندقية.. إن هذه الروح وأقوى منها تجلـت فـى الأمهـات الفلسطينيات اللاتى قذفن بأبنائهن إلى العمليات الاستشهادية، ولم يندبن أو يبكين عندما قتلوا ولكن احتفلوا برضاء ا وأنه تقبل تضحيتهن بأفلاذ أكبادهم فى سبيل الوطن. ومـن يقـرأ حديث السيدة والدة الشهيد محمود العابـد بجريـدة الشـرق الأوسط يوم الجمعة ٢٠٠٢/٦/٢٨ يحس بصدق وإخـلاص الابن والأم[٢]. وليست هى إلا واحدة من عديد من الأمثلة .

---

(١) نرى من حق هذا الشهيد باعتباره رمزاً للعديد مـن الشـهداء أن نورد هنا ما جاء فى جريدة الشرق الأوسط على لسان إمه لنحفظ ذكراه فى التاريخ وليكون فيه أسوة للأجيال القادمة. "واستطردت: "عدنا فـى المساء إلى البيت وسهر محمود معنا أنا وأخوته وإخوانه، وبعـد ذلـك ذهب للنوم وقبل أن ينام قلت له يا محمود إذا خرجت غدا لعمليتـك لا تودعنى خوفا من أن ترجع على مرة أخرى فقال لى "مثل ما بدك ياما" فنام قرير العين مرتاح البال وفى الصباح جاءه اتصال مـن الجنـاح العسكرى لحركة "حماس" أو بالأحرى من يرصد للعمليـة، وقـال إن الجنود مروا الآن من الطريق أسرع أنت مع المقاتلين لكى تلحقوا بهـم عند الرجوع فقام محمود فعلا واستحم وصلى الصبح وخـرج، وأنـا عرفت أنه خرج لتنفيذ العملية فظل بالى مشغولاً عليه. بعد ذلك جاءنى أبنى الصغير وقال لى بأنه سمع بأن مجموعة من المقـاتلين هاجمـت جنوداً للاحتلال بالقرب من مستوطنة دوغيت فاستشـهد مـنهم واحـد

عندما يتحقق هذا فإن القتال يكون أمراً مستساغاً أو جهاداً نبيلاً. ولكن كيف ..وإلى متى.. إن وسيلة الحروب قد لا تكون أمثل الوسائل لتدمير النظم الحاكمة الجائرة، وإن كانت أسرعها، لأنه يمكن أن تكون لها انعكاسات سيئة، ويمكن لهذه الآثار السيئة أن تكون أسوأ من السرعة والحسم التى هى ميزة القتال، وعلى كل حال، فإذا كان القتال يؤدى هذه الرسالة قديماً، فإنها قد انتفت فى العصر الحديث .

والقرآن لا يطلق العنان لهذا الاتجاه. اتجاه القضاء على نظم مختلفة، أو حتى ضالة لأنه يؤمن بالتعددية وبقاء

والباقون لم يستشهدوا وحينها أصابنى القلق ولم أجعل هذا القلق والخوف يظهران على بل كنت أدعو له بأن يكون "مصيره الجنة. فى الساعة الثانية ليلاً جاءنى رفاقه وقالوا لنا "عظم الله أجركم" محمود استشهد فسألتهم هل استشهد أم أصيب فقالوا لا استشهد فحينها أطلقت زغرودة مدوية أفاق عليها سكان الحارة والجيران جميعهم وحمدت الله على نعمته التى منحها لمحمود" .

وأضافت أم محمود "بعد ذلك سألت عن تفاصيل العملية فقالوا لنا أن الشهيد محمود كان فى الصف الأول فى المجموعة وطلب منهم الانسحاب، قائلاً أنا سوف أغطى عليكم فأخذ يلقى بالقنابل ويطلق الرصاص على الجنود حتى انسحب رفاقه جميعا وهو استشهد وبعدها فى الساعة الثالثة ليلاً بدأت المساجد تكبر وتقول بأن محمود العابد استشهد. فى الصباح جاءوا بمحمود كى ألقى النظرة الأخيرة عليه فودعته ورأيته مثل البدر وكأنه يشع نوراً فقبلته وقلت له هنيئاً لك الشهادة يا محمود .

الديانات الأخرى من يهود، ومسيحيين وصابئين الخ... ولأن ا تعالى يعلم أنه يوجد حتى فى المجتمع المسلم من لا يؤمن الإيمان المطلوب. والآيات صريحة ﴿يا أَيها الـذِين آمنُـوا علَيكُم أَنفُسكُم لا يضركُم مـن ضـل إِذَا اهتَـديتُم﴾. {١٠٥ المائدة}.. ﴿وما علَيك أَلا يزكى﴾. {٧ عبس}.. كما توضـح الآيات أن من ضل فإنما يضل على نفسه ومن اهتدى فلنفسه ومعنى هذا أن الهدى والضلال ليس من قضايا النظام العـام الذى تتدخل فيه الدول أو المؤسسات، إنما هى قضية فرديـة لأنها تقوم على الضمير ومن السخف الظن أننا مطالبون بأن ننقذ فرداً من نفسه بالقوة .

المطلوب إذن قبل إصدار الأحكام على القتال أن نحيط إحاطة شاملة بكل ما جاء فى القرآن الكـريم عـن الجهـاد والقتال ليمكن استخلاص الأحكام فى ضوء هـذه الإحاطـة الشاملة. مع النظر فى ما جاء بالمرويات الحديثية فى ضوء الملابسات الآنية لها وبعد ضبطها بمعايير القرآن .

نقول إذا توفر هذا وذاك فلن يكـون هنـاك إشـكال وستتضح حقيقة الجهاد ورافده القتال. ولكن الذى حـدث أن عوامل عديدة متكاثفة أبعدت المضامين الجهاديـة، وأحلـت

محلها مضامين القتال، وكان ذلك من أكبر أسـباب تخلـف المجتمع الإسلامى. لأن الجهاد هو روح المجتمـع وجمـاع الأخلاق الإسلامية (كما سيلى) وعندما يفقد، فـإن المجتمـع يفقد روحه الحقيقية لأن الجهاد ينتظم الواجبات التـى يجـب على المسلم أن يقوم بها بحيث يكون عضواً بناء إيجابياً. فإذا فقدها فسد المجتمع من الداخل، وخير مثـال لـذلك الدولـة التركية التى قامت على قتال لا جهاد فيه.. ومن هنا لم تقـم بدور حضارى وكان حكمها أسوء صور الحكم .

كما يمكن تقديم مثال آخر هو الدور السلبى الذى قام به التصوف فى المجتمع الإسلامى وتجريده من جهاديته وإحلال مجاهدات أخرى. والتصوف فى جوهره اتجاه سـلبى يمثـل الفرار من مشاكل المجتمع والعجز عن مجابهتها، ولم يكـن ثمة حل سوى البحث عن عالم بديل يصولون فيه ويجولـون وقد امتص التصوف الكتلة الجماهيرية للمجتمع الإسلامى و "حيد" جهودها وانحرف بها من معارضة سياسية أو مساهمة اجتماعية أو إقامة اقتصاد قـومى إلـى شـطحات وموالـد "وحضرة" والتضرع إلى شيوخ وأوليـاء وأقطـاب وأوتـاد والتماس شفاعتهم أو "التماهى" فى العالم الأسـطورى الـذى

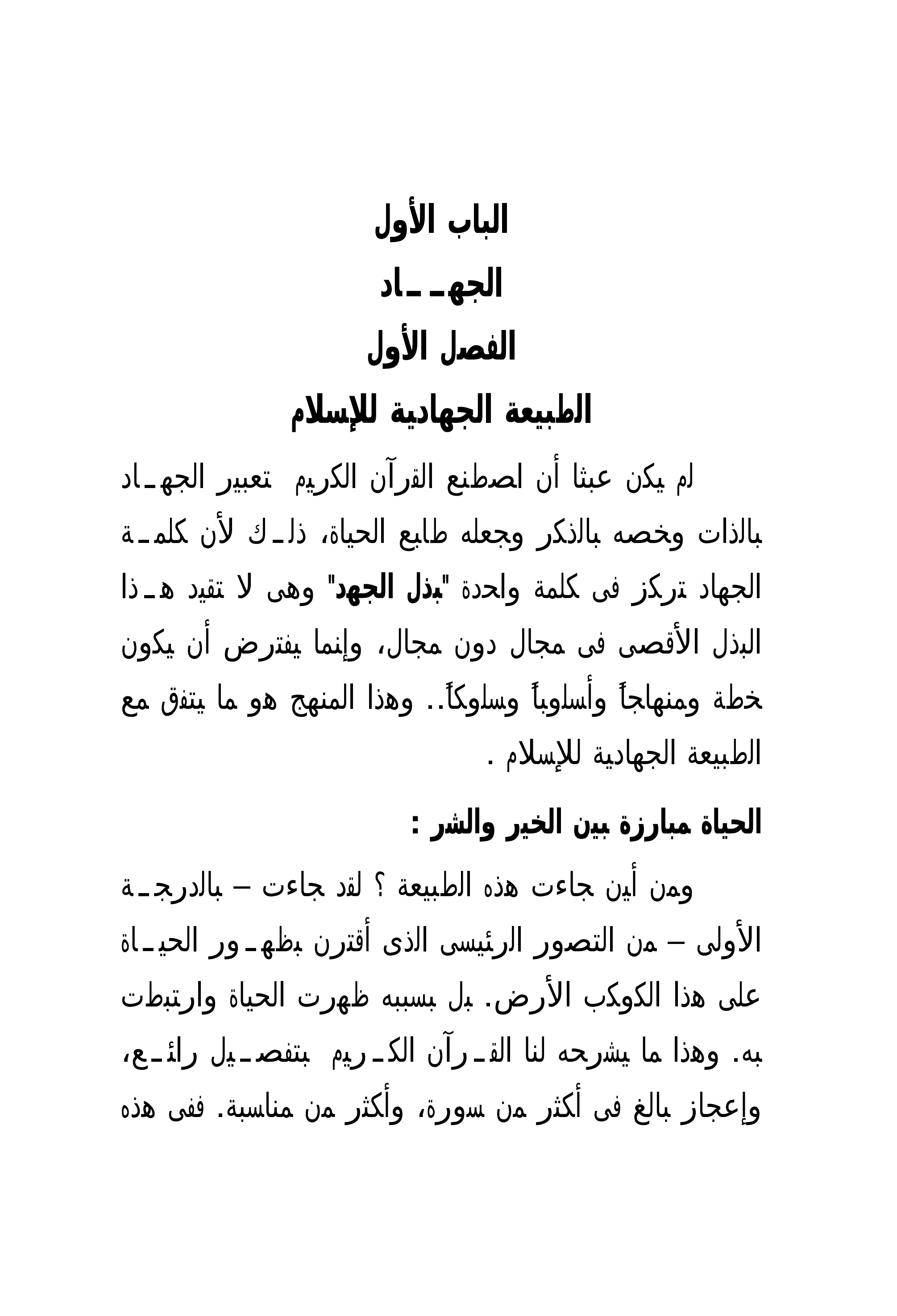
أبدعوه وظنوا أن الملوك لو علموا بـه لحسـدوهم عليـه! مساكين! .

إن الانتقال من الجهاد فى الداخل إلـى القتـال فـى الخارج كان بداية تخلخل المجتمع الإسلامى، كما أن انتشار حركة التصوف عقمت المجتمع الجهاد الإسـلامى وأحلـت محله جهاداً مصطنعاً .

وبعد، فإننا لنرجو أن نكون بهذا الكتاب قـد جاوزنـا بالفكر الإسلامى فى جانب من أهم جوانبه تلك المسـتنقعات التى ركد فيها، وأعدناه إلى منبعه الأصيل المتـدفق القـرآن الكريم ..

القاهرة فى جمادى الأخرة ١٤٢٣ هـ .
أغسطس ٢٠٠٢ م .

جمال البنا



الباب الأول

الجهـــاد

الفصل الأول

الطبيعة الجهادية للإسلام

لم يكن عبثا أن اصطنع القرآن الكريم تعبير الجهـاد بالذات وخصه بالذكر وجعله طابع الحياة، ذلـك لأن كلمـة الجهاد تركز فى كلمة واحدة "**بذل الجهد**" وهى لا تقيد هـذا البذل الأقصى فى مجال دون مجال، وإنما يفترض أن يكون خطة ومنهاجاً وأسلوباً وسلوكاً.. وهذا المنهج هو ما يتفق مع الطبيعة الجهادية للإسلام .

الحياة مبارزة بين الخير والشر :

ومن أين جاءت هذه الطبيعة ؟ لقد جاءت – بالدرجـة الأولى – من التصور الرئيسى الذى أقترن بظهـور الحيـاة على هذا الكوكب الأرض. بل بسببه ظهرت الحياة وارتبطت به. وهذا ما يشرحه لنا القـرآن الكـريم بتفصـيل رائـع، وإعجاز بالغ فى أكثر من سورة، وأكثر من مناسبة. ففى هذه

المواضع تحدث القرآن الكريم عن آدم فى الجنة يعيش فيها رغداً وكيف حذره ا من أن يستمع لغواية الشيطان، ولكـن آدم فى إحدى لحظات الضعف أنخدع بغواية الشيطان الـذى أكد له أن الشجرة التى أمره ا أن لا يقربها هـى شـجرة الخلد وأنه إن أكل منها فسيرزق الخلـود[٣]. وأنخـدع آدم. وحقت عليه كلمة ا أن يترك الجنة وأن ينزل الأرض ليبدأ أجيال المعاناة .

ولكن ا تعالى فى سابق علمه كان يريـد لآدم شـيئاً عظيماً هو أن يكون خليفته على الأرض. وقد أهله لهذا بأمر ميزه على بقية الخلق جميعاً هو العلم ومن أجل هذا فلم يكن نزول آدم من الجنة إلى الأرض عقوبة، ولكنه كان قضـاء وإرادة من ا تعالى بأعمار هذه الأرض وأن يقوم فيها بكل الأعمال العظيمة التى أهله ا لها فضلاً عن تلـك النفثـة الإلهية التى نفثها فيه وهو صلصال مهين فانقلب إلى مخلوق كريم يمكن أن يحمل رسالة ا فى الأرض بعد أن زوده ا تعالى بالضمير من ناحية والعلم من ناحية أخرى .

---

(١) لاحظ التفرقة الدقيقة والبعيدة المدى فى اعتبار القـرآن الشـجرة شجرة خلود وفى اعتبار التوراة لها شجرة المعرفة .

ويقص القرآن هذه القصة التى رمز بها لدور الإنسان على الأرض ومكانته فيها.. وأجرى لكى يقرب المضـامين إلى إفهامنا حواراً بينه وبين الملائكة الذين هالهم أن يجعـل ا تعالى خليفة له على الأرض هذا الإنسان لكى يفسد فيهـا ويسفك الدماء. فرد ا عليهم بأنهم لا يعلمـون مـا يعلمـه وسألهم

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. {٣٠} ..
- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. {٣١} ..
- ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. {٣٢}.
- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. {٣٣} ..

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. {٣٤} ..

(البقرة من ٣٠ – ٣٤)

وفى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلـى رفـض إبليس السجود مع الملائكة على أساس أنه أفضل من آدم، فقد خلقه ا من نار وخلق آدم من طين .

ورمز القرآن الكريم بالشيطان لقوة الشر، لأن دعـواه قامت على الأثرة والأنانية مع الجهل بحكمة ا تعالى وكان جديراً به أن يفهم أنه ما دام ا تعالى أراد سجود الملائكـة الذين هم من نور فإن له حكمـة لا يفتـرض ضـرورة أن يعرفها. وعندما تقترن الأنانية بالجهالة فإنها تكون أصل كل الشرور .

برفض إبليس السجود لأنه يرى نفسه أفضل مـن آدم ويجعل من نفسه العدو الأبدى للإنسان. وأراد ا تعالى لـه أن يمثل هذا الدور الذى أختاره لنفسه بحيث تكـون الحيـاة مبارزة ما بين الإنسان من ناحية والشيطان من ناحية أخرى. وهو ما تفصله الآيات ..

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. {١١} ..
- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. {١٢} ..
- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. {١٣} ..
- ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. {١٤} ..
- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾. {١٥} ..
- ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. {١٦} ..
- ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. {١٧} ..
- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. {١٨} ..

(الأعراف من ١١ – ١٨)

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. {٦١} ..
- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً﴾. {٦٢} ..
- ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾. {٦٣} .
- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾.{٦٤}
- ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾. {٦٥} ..

(الإسراء ٦١ – ٦٥)

أننا لا نجد دينا أبرز الشر ممثلاً بالشيطان بمثل هـذه الصورة من القوة والوضوح، ولا نرى دينا يعطى الشـيطان "كارت بلانش" ليقوم بالغواية بكل ما يستطيع بل وكاد يكون أمراً له بهذه الغواية ﴿واستَفْزِز من استَطَعتَ مِنْهم بِصـوتِك

وَأَجلِب عليهم بِخيلِك ورجلِك وشارِكهم فِي الأمـوال والأولادِ وعِدهم وما يعِدهم الشيطَان إلا غُرورا﴾(٤) .

ولما طلب الشيطان أن يمهله طوال الحياة الدنيا، أمهله ا ..

إن هذا ينم عن الثقة الكبيرة التى يضعها القرآن فـى الإنسان المزود بالعلم والضمير والمسـلح بهدايـة الأنبيـاء والكتب المقدسة التى تضع للإنسان معالم الطريـق وسـبل الهداية .

هكذا يتهيأ مسرح الحياة ليكون جهاداً كأشد ما يكـون الجهاد.. جهاداً ما بين نار حارقة.. ونور هادئ، جهاداً بـين غواية ساحرة جاذبة. وبين إيمان راسـخ رصـين. جهـاداً يستمر ما استمرت الحياة ويضم مجالاتهـا وتكـون أسـلحة

---

(١) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان فى اليوم الآخر، فهو فى فتنته للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من ا ، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشاً عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى ا خارقاً إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما ننصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذي لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل ا تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يقذف به فى النهاية فى النار ليذوب وينتهى .. من النار بدأ، وإلى النار يعود ..

الغواية فيه المال والغرور والنسـاء والشـهوات والمراكـز والمناصب والكبرياء وأسلحة الهداية العلم والضمير والخيـر وهداية الأنبياء وتعاليم الكتب المنزلة .

إن هذا التصور يعطى الإسلام طبيعة جهادية تجعـل المسلم على أهبة دائماً، وأبدا، وإذا كـان المسـيحى يحمـل صليبه، والفارس يحمل سيفه ودرعه فإن المسلم يحمل إيمانه وعقله، لأنه يعلم أن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم فتلك طبيعة الإسلام، وهذا هو قدر المسلم ..

* * *

الحياة ابتلاء واختبار :

لا تقتصر الطبيعة الجهادية للإسلام علـى التصـور الإسلامى للحياة، وكيف بدأت. وكيف تطلبت الجهاد أبداً. إن هناك عنصراً آخر يشير إليه القرآن الكريم يحمـل معنـى ومضمون الجهاد وإن حمل اسما آخر هو "الابـتلاء" وهـذا العنصر يوجد حتى لو لم يوجد الشيطان ويؤتى منه الإنسان من حيث لا يؤتى من الشيطان لأنه لا يكون من الشر دائماً، وإنما من الخير أيضـاً ولا يكـون مـن الفاقـة والمـرض والمنغصات، ولكن يكون من الصـحة والثـروة والراحـة

والبلهنية، وفى ضوء هذا الابتلاء قد تكون النقمة نعمة، كمـا قد تكون النعمة نقمة ..

وللبلاء معنى الشدة، ولكن الابتلاء يتحـول ليصـبح اختباراً وليضم إلى الشدة.. الرخاء أيضا .

من البلاء أن لا يجد الرجل الفقير فـى بيتـه ثلاجـة صغيرة تتيح له الماء البارد وتحفظ له طعامه مـن الفسـاد، ولكن من البلاء أيضا أن تحتشد ثلاجة الرجل الغنى بعشرات من الأطعمة والأشربة والمعلبات والمشـهيات. إن إغـراء الوفرة لا يقل أثراً عن مرارة الحرمان.. لأن الأولى قد تؤدى إلى التخمة والبطنة كما أن الثانيـة تـؤدى إلـى المجاعـة والمسغبة وكلاهما سيئ .

ومن البلاء أن يعيش بعض الناس على الكفـاف وأن يتعرضوا لمآسى الفاقة لأن هذا بالطبع يجعلهم فى صراع مع الضرورات والتزام بصنوف من الحرمان، ولكن من الـبلاء أيضاً أن تتضخم الثروات لدى فرد آخر لأن هـذا التضـخم سيجعله راعياً له وسيكون عليه أن يفرغ نفسه لـذلك أو أن يستخدم فريقاً له، وإذا علمنا أن المال فى الإسلام هو أصـلاً مال ا وأن الإنسان مستخلف فيه، ومؤتمن عليه علمنا ثقـل

هذه الأمانة وأنه يندر من يقوم بحقها سواء بدفع الزكاة عنها أو حسن التصرف فيها وهذا أيضاً من الابتلاء .

والآيات القرآنية العديدة هى خير ما يوضح لنا مدلول الابتلاء وموضوعه والغاية منه .

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ . {١٥٥ البقرة }
- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ {١٨٦ آل عمران} ..
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {١٦٥ الأنعام} ..
- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ . {١٦٨ الأعراف} ..

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾{٣١ محمد} ..
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. {٣٥ الأنبياء} ..
- إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ {٧ الكهف} ..
- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. {٤ محمد} ..
- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ {٢ الملك} ..
- ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾. {١٦ الفجر} ..

- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ . {٢ الإنسان}..

هذا الذكر المتكرر لمعنى الابتلاء كاختبار يكون على المسلم أن يجتازه وأن ينتصر على ما قد يحيق به من متاعب، ومصاعب وكوارث، ومصائب.. وكذلك أن يصمد أمام إغراء المال. والقوة والصحة ومختلف النعم التى ينعم الله بها على الإنسان فيطغى البعض، ويشكر البعض الآخر. وبقدر ما تفتن الفاقة الفقير فقد تفتن الثروة الغنى بحيث يلتقيان فى الافتتان وعدم الصمود... الحياة هنا اختيار مبدئى. ووقوف أمام الخير والشر، النعم والنقم موقفاً صامداً يغلب الضعف البشرى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. {٢٣ المعارج} ..

ويصل هذا الابتلاء إلى غايته فى التصوير الرمزى البليغ .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ . {٧٢

الأحزاب}.. فماذا نفهم من هذه المسئولية الثقيلة التى أشفقت الجبال والسموات والأرض عن حملها إن لم تكن هى الحرية التى منحها الإنسان والتى هى فى أصل الاستخلاف والابتلاء ومنعت منها الأجرام السماوية التى تسير بمقتضى القـوانين التى وضعها ا ولا تملك عنها انحرافاً أو تحللاً .

إن التصور الإسلامى للحياة الإنسانية باعتبارها كفاحاً ضد غواية الشيطان وصبراً وثباتاً عند الابـتلاء والاختبـار يعطيان الفعالية الإنسانية تكثيفاً قد لا نجـده فـى أى عمـل درامى أو فنى ولا يمكن أن يتطرق إلى نفس المسلم فكـرة عن عبثية الحياة أو ما ساور الشاعر :

حياة ثم موت ثم بعث

حديث خرافه يا أم عمرو ..

أو ما استقر فى أعماق المشركين إن هـى إلا حياتنـا الدنيا. نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ..

فهنا نظام محكم كأشد ما يكون الأحكام، مرتب كأتم ما يكون الترتيب، شامل كأوسع ما يكون الشمول، له بداية يبدأ منها وله غاية ينتهى إليهـا ويتطلـب الإيمـان والالتـزام والصمود، يحف به الوعد والوعيد. ويستتبع حساباً بمثقـال

ذرة... ثم إلى جنة.. أو جحيم. ويوفر الحرية التى تتضـمن بالطبع حرية الاختيار ما بين الخير والشر ويضفى على هذا كله طابعاً ربانياً وغلاله من الغائية الإلهية الخالقة القاضية .

عندما يؤمن الإنسان بهذا التصور وما فيه من إحكـام وإبداع وشمول تتملكه حالة نفسية تجعله يستشعر ما استشعره الأنبياء. ﴿قُلْ إِن صلاتِي ونُسكِي ومحياي ومماتِي لِلـهِ رب الْعالَمِين**(١٦٢)** لا شَرِيك لَه وبِذَلِك أُمِرتُ وَأَنَا أَولُ الْمسلِمِين﴾. {١٣٦ الأنعام}.. وهو أيضا الذى يمكن أن يفهم فـى ضـوء الآية – التى أسيئ فهمها – ﴿وما خَلَقْتُ الْجِـن والإنـس إِلا لِيعبدونِي﴾ بحيث تكون الحياة نذراً وتطبيقـاً لمـا خلـق ا الإنسان من أجله من أداء الطيبات واجتناب السيئات واتبـاع هداية الأنبياء واجتناب غواية الشياطين فهذا هو محض عبادة ا ...

ومن الناحية المقابلة فهل يتصور فى مثل هذا المجتمع أن يحس الإنسان بالاكتئاب أو الاغتراب أو العبثية أو المـل القاتل؟؟ أو يشغله التساؤل من أين جاء وأين انتهى؟ هـذا لا يمكن أن يرد على ذهن إنسان يؤمن الحيـاة كمـا يقـدمها التصور الإسلامى بداية بالخلق ونهاية بالبعث، وفيمـا بـين

هذين كفاحاً واختباراً ومسارعة فى الخيرات واستباقاً إلى الفضائل والإقبال على الحسنات.. والعزوف عن السيئات .

وقد صور الرسول ﷺ موقف المؤمن "عجباً لأمر المؤمن" إن أمره كله له العجب وليس ذلك لأحد إلا المؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً، وأن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له (مسلم). وكذلك "إن ا إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط". متفق عليه. والحقيقة أن العجب لا يقف عن هذا، لأنه فى الوقت الذى يجعل الإيمان المؤمن راضيا لا تنغصه المتاعب، ولا يأس على ما فاته، ولا يفرح لما يؤتاه. يكون عليه أن يدخل فى الكفاح مع قوى الشر وإغواء الشيطان، وزهو السلطة والثروة، وقهر الفاقة والمرض أى أن يجمع بين أهبة المحارب، وسلام المؤمن ..

قد تضيق نفس الإنسان الأوربى المتحرر بهذا العالم الملتزم، ولكن ما هو مصيره؟ فى بعض الحالات ينسحق تحت ضغط توترات الحياة الحديثة. أو الاكتئاب أو الإغواء أو يعب من اللذات حتى تفقد لذتها.. فيجد نفسه حيث بدأ. أو يحاول أن يتابع عجلة الاستهلاك فلا يستطيع، لأن كل يوم

يوجد حاجة جديدة يجب إشباعها فيجرى خياله لاهثا أو ينتفخ ويستعلى بما وضعه العقل الإنسانى فى يده من وسائل القـوة التى دفعت به إلى أعماق البحار ورفعته إلى أجواز السـماء فتكون النتيجة الغرور والاسـتكبار والزهـو والازدهـاء.. والاندفاع الذى يصل إلى حافة الانتحار النووى .

أن الانتحار فى المجتمع الأوربى قـد يكـون يأسـاً واكتئابا كما قد يكون اسـتعلاء علـى الحيـاة.. واسـتباقاً للموت، وجعله – فيما يظنون – إرادة وليس قضاء .

وهذه كلها خيارات شاذة.. مهلكة.. تنتفى منها الغائية والاعتدال ولا تجعل من الحياة ساحة لجهاد، تنتهى بنصـرة الحق.. ولكن ساحة الصراع أهوج ينهى نفسه بنفسه .

بعد هذا التصوير عن "الطبيعـة الجهاديـة للإسـلام نستطيع أن ننتقل الآن لتوضيح مفردات، ووسائل الجهـاد، وما يمكن أن نسميه "دستور الجهاد الإسلامى" .

الفصل الثالث
دستور الجهاد الإسلامى
اليومى والدائم

رأينا أن الإسلام له طبيعة جهادية، وهذه الطبيعة تقتضى من المسلم سلوكاً خاصاً، والتزاماً بالقيم الجهادية فى الإسلام إيجابية وسلبية. وهذا السلوك هو ما يتضمنه بالدرجة الأولى والأساسية توجيهات وموجبات القرآن الكريم، كما تجلى فى سلوك وسياسات وتصرفات الرسول، وسنعرض هنا لأبرز هذه التوجيهات ..

١- هدى القرآن :

" وجاهدهم به ..."

وقفت طويلاً أمام هذه الآية: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. {٥٢ الفرقان} ..

الضمير هنا يعود إلى القرآن الكريم .

كيف يمكن للرسول ﷺ أن يجاهد بالقرآن .

وكيف يمكن للمسلمين أن يجاهدوا به .

وكنت كلما أفكر كلما كانت تتفتح أمام بصيرتى أفـاق ومجالات ووسائل وطرق .

من الممكن أن يتلو الرسول القـرآن علـى مسـامع المشركين وقد أمره ا بذلك ﴿وأن أتلو القرآن فمن اهتـدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾.{٩٢ النمل} ..

وما كان ا تعالى أن يقول هذا لولا أنه يعلم أن فى القرآن نفسه – فى معانيه وألفاظه وأسلوبه ونظمه ما يؤثر على نفس المشرك بحيث يزلزل شركه ويجعله "يعود بوجه غير الذى دخل به" ..

وقد حدث هذا ...

ولكن هناك ما هو أكثر ...

هناك أن يتوجه الرسول، والدعاة إلى غير المسـلمين، بالمعان والتوجيهات التى أمر بها القرآن الكريم وهـو مـا يدخل فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ..

ولكنى كنت أفكر فى استخدام القرآن كأداة للجهاد، كما هو منطوق الآية، وليس للهداية .

وهذا ما توصلت إليه أخيراً ...

إن قراءة القرآن، والاستماع إليه بصـفة منتظمـة، أو شبه منتظمة، تبنى شخصية المسلم وتزوده بروح الكفاح بـل وتعده لهذا الكفاح .

وإذا راجعنا القرآن لوجدنا أن ثلاثين سورة على الأقل من السور الطوال التى تحمل فى ترتيب الأرقام من ١٠ إلى ٣٠ وتبدأ بسورة يونس، وتنتهى بسورة السجدة التى تحمـل رقم ٣٢ كلها سور مكية لا تتضمن قتالاً ولكن جهاداً وكـل سورة منها تحرك الجبال فما بالك بالإنسان وتحمل من القوى والمحفزات ما يدفع للجهاد.. وتتضمن من القوارع والتنديـد ما يؤدى إلى الكف عن كل شر، أو بخل أو استخذاء .

وطالماً كنت أسائل نفسى كيف توصل محمد إلى تربية جيل الصحابة وحولهم من عامة عرب قـريش إلـى رسـل حضارة فيهم أفضل ما يشترط فى بناه الإمبراطوريـة مـن صدق وإخلاص وشجاعة. وقد انتهت إلـى أن هنـا يعـود بالدرجة الأولى إلى الاستماع المنتظم والمستمر للرسول وهو يتلو فى صحراء مكة النائية السور الطوال فى صلواته، ولا سيما الصلوات المشهودة، صلاة الفجر، وصـلاة المغـرب، وصلاة العشاء. التى كانت جمهرة الصحابة رجـالاً ونسـاء

يحضرونها، وأتصور أن الملائكة أيضـا كانـت تحضـرها وتضع أجنحتها لها.. إن صوت الرسـول. ونظـم القـرآن ومعانى الكلمات كانت تنزل من شفتى الرسول إلى أعمـاق القلوب لتقر بها وتنغرس فيها ما تنطوى عليه من أمر ونهى ووعد ووعيد دفع للخير ومقاومة للشر وصبر على المشـاق وصدق فى القول ووفاء بالعهد وعدل فى التعامل.. كل هـذه القيم يسوقها القرآن فى نسق فريد وفى نظم له ما للموسـيقى من آثر فى النفس .

أن كل أساسيات الإسلام ودعائمه وقيمه تكـون علـى أفضلها فى القرآن الكريم، ولا يقتصر عنصر الامتياز علـى حسن العرض وسلامة التصوير، ولكن يضاف إليـه الـنظم الموسيقى الذى يعطى المعانى قوة وعذوبة ويدفع بهـا إلـى القلب وهذه هى أهمية التلاوة، والأمـر الإلهـى "وأن أتلـو القرآن..." أو الاستماع إليه هى طريقة تعلمه .

نعلم أن الفنون والآداب تقوم فى العصر الحديث بدور بارز فى التثقيف وصقل الشخصية وتنمية الوجدان وأن الاستماع إلى الموسيقى فى نواديها أو حضور السيمفونيات ذات الشهرة العالمية وكذلك حضور حفلات الأوبرا والبالية..

كلها جزء لا يتجزأ من الثقافة الاجتماعية للإنسان الأوربى. وهم يحضرون فى أبهى ملابسهم – رجالاً ونساء – ويجلسون يستمعون فى صمت وإصغاء فلا ترتفع نأمه حتى ينتهى المشهد ليكون من حقهم التصفيق وهم يرون أن هذا الجانب من أهم جوانب سمات الشخص المتمدن والمهذب، وأذكر ما رواه أستاذ فى الجامعات الأمريكية – من أصل عربى. من أن إحدى السيدات ألحت فى زيارته بمنزله، ورغم غرابة هذا الطلب. فقد رحب الرجل ودعاها، فلم تكد تدخل وتشاهد بيانو كبير فى الصالة حتى سألته عنه وعندما قال لها إنه خاص به وأنه يعزف عليه أحياناً حتى ولت على أعقابها وفهم الأستاذ بعد ذلك أن رؤية هذا البيانو دلها على أنه أستاذ مثقف متمدن كالأوربيين، وأنه ليس شرقيا بدائياً. كما قد يتبادر إلى ذهن بعضهم ! .

صلاة الجماعة، والاستماع إلى السور الطوال، خاصة إذا كان فى مسجد مفتوح كمسجد الرسول فى المدينة حيث تتبدى الشمس الغاربة.. أو السماء الصافية. وفى جو الاستغراق الذى تفرضه الصلاة بحيث لا يرتفع صوت خلال

القراءة تنتقل الآيات إلى النفس وتفعل فعل السحر فيها وعندما يتكرر هذا يصبح طبيعة ثانية .

في العصر الحديث كانت إمامة الإمام الشهيد حسن البنا لشباب الإخوان فى صلوات "الكتيبة" فى المغرب والعشاء، أو الفجر من أقوى الأساليب فى التكوين الروحى والنفسى لشباب الإخوان. وقد قدر لى أن أشهد إحداها، كما أنى أذكر حتى الآن صلاة الإخوان فى معتقل الطور وكان يؤمنا أحد العمال، وكان له صوت شجى مؤثر ينفذ إلى القلوب ولا أزال أتذكر صوته – بعد خمسين سنة – وهو يتلو دعاء إبراهيم فى سورة إبراهيم كأنما يصدر من قلبه وهو يقف عند آخر الآية ٤٠ من السورة وهى كلمه "دعاء" رب أجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وتقبل دعاء ..

وكثيراً ما تتملك الحيرة والعجز طالبى الإصلاح.. أنى لهم أن يصلحوا النفوس ويعالجوا القلوب.. وأنا أدلهم على طريقة سهلة وسائغة، تلك هى المشاركة فى صلاة المغرب والعشاء (وحبذا لو كان يوم خميس) وراء إمام يتقن القراءة على غير عادة القراء. فهو يقرأ قراءة متأنية، واضحة، يؤدى فيها للحروف حقها كما فى علم التجويد ولكن

دون تقعر – وأن لا يكون ذلك فى مسجد مغلق ولكن فى صحراء مكشوفة يقرأ سوراً من السور الطوال (الأعراف أو الإسراء أو التوبة الخ...) أؤكد أن وقع الكلمات سيكون عليهم أعظم أثراً من وقع الموسيقى على الأوربيين، وأنهم سيتشربوها، وفى النهاية يمكن أن توجد فيهم السليقة القرآنية ...

إننا نؤكد هنا ضرورة الاقتصار على التلاوة بالصورة التى حددناها، بحيث لا يكون هناك أى شرح أو تفسير .

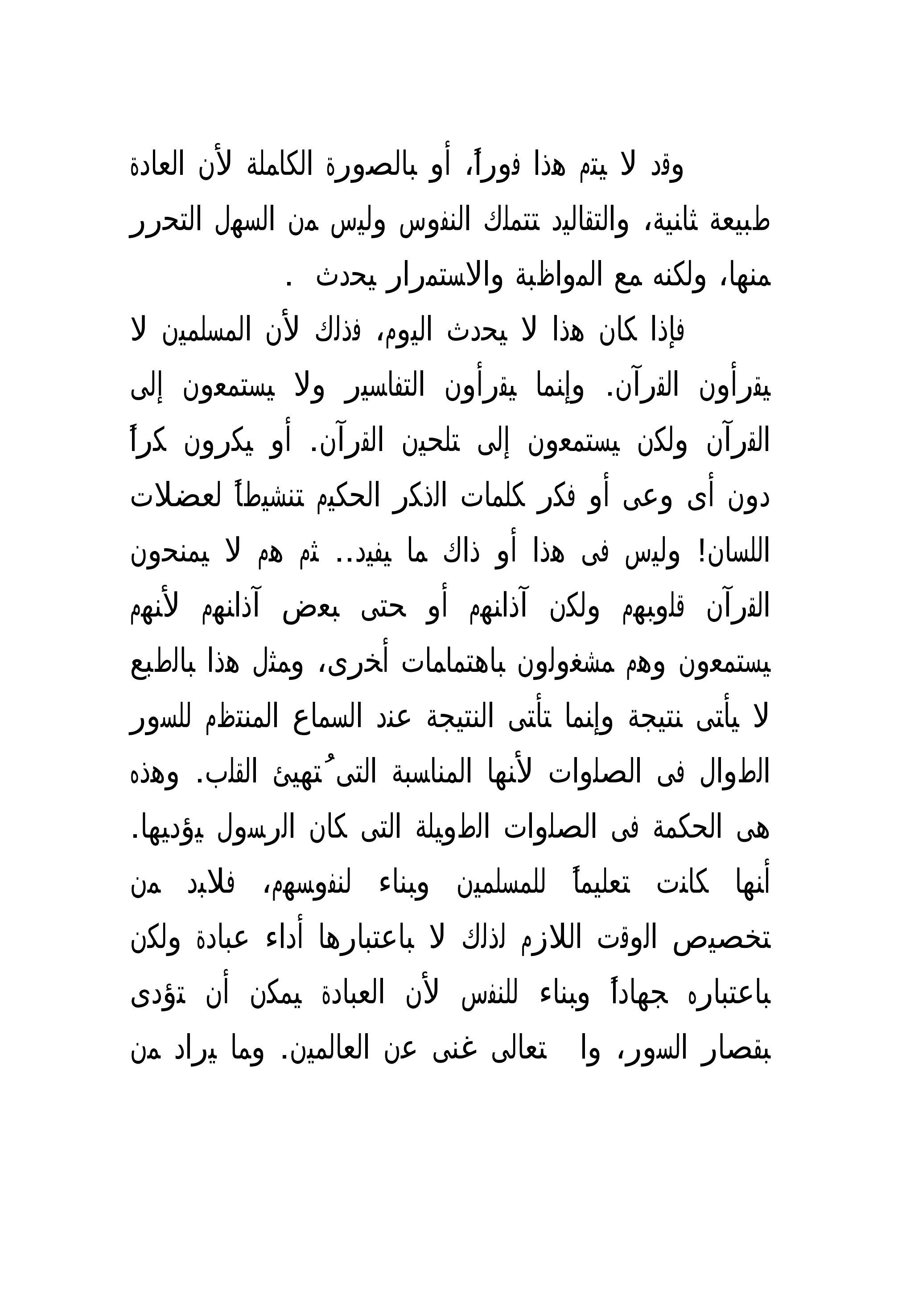
نعود إلى الغرض من إيراد كل هذا.. أن الرسول جاهد المشركين بالقرآن بطريقتين. فمن ناحية فإنه عندما كان يتلوه عليهم، أو يدعوهم بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة فإنه كان يزلزل شركهم ويعدهم للإيمان ومن ناحية أخرى فإن صلواته بالمسلمين خاصة فى مكة، وقراءاته بالسور المكية الطوال كان من أكبر العوامل التى غرست هدى القرآن فى نفوس الصحابة بحيث خلقهم خلقاً جديداً، وكيف لا يخلقهم خلقاً جديداً وهو يقرأ عليهم ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ

يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. {٣١ الرعد} .

أى واحد يستمع حاضر القلب إلى تنديد القرآن بالبخل واكتناز الأموال، وأمره بالكرم والإنفاق ثم يكون بخيلا؟ وأى واحد يسمع تقريع القرآن للذين لا يتفكرون ولا يتدبرون ويقولون نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ثم يكون مقلداً دون فكر أو تدبير؟ أى واحد يسمع الثناء الجميل على القلب السليم. والعمل الخير، والوفاء بالعهود والصدق فى القول والإخلاص فى العمل ثم يكون ناكثاً للعهد، فاعلاً للشر، تاركا للخير .

كيف يمكن أن يدعى أنه مسلم، ويحلف بالقرآن وهو يخالف القرآن ليل نهار ! .

إن السماع المنتظم لآيات الذكر الحكيم يخلق الإنسان خلقاً جديداً يذهب بالأباطيل والشهوات والعادات الموروثة ويهدى إلى القيم العظمى من عدل، وحرية، وإخلاص وخير ...

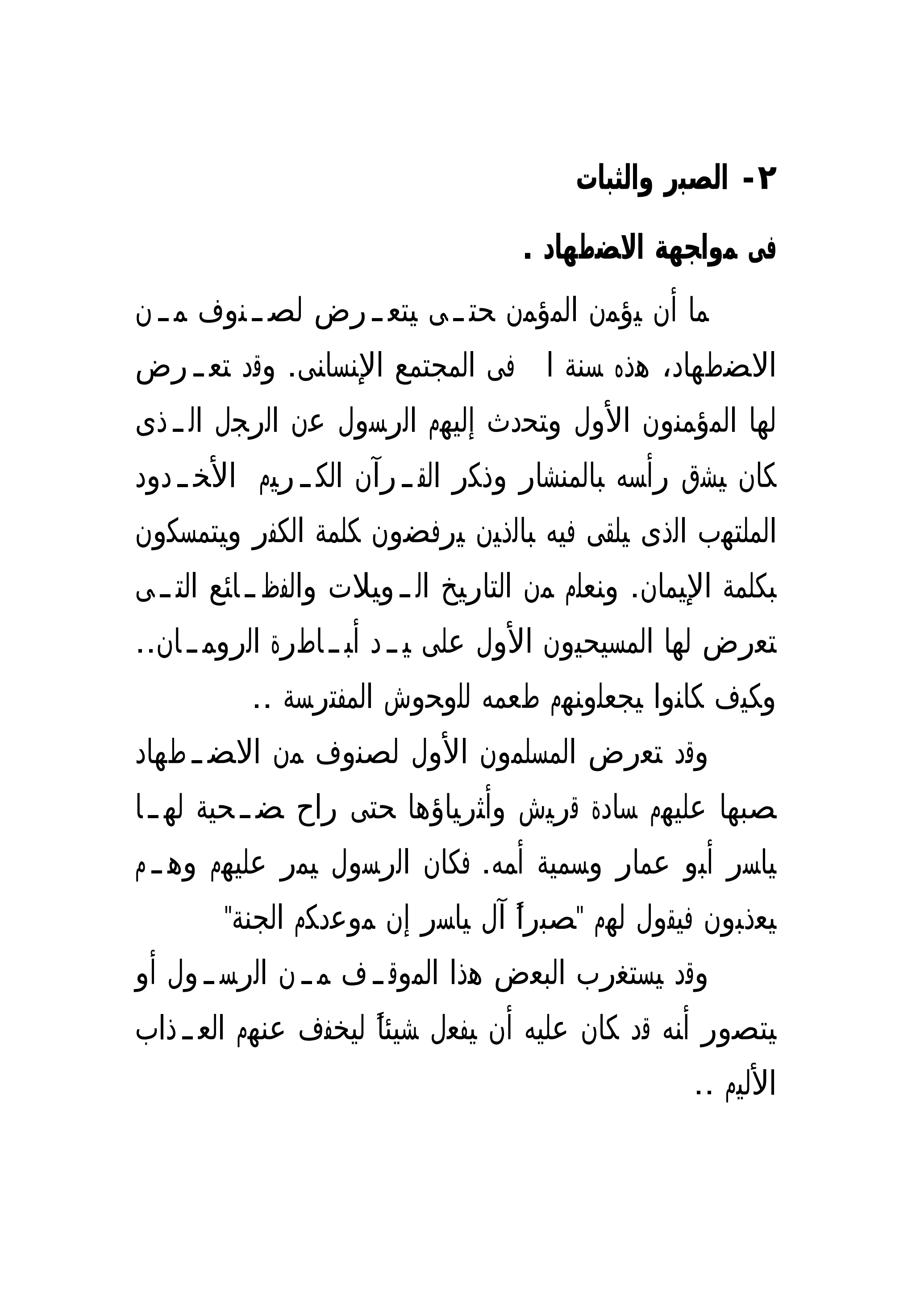


وقد لا يتم هذا فوراً، أو بالصورة الكاملة لأن العادة طبيعة ثانية، والتقاليد تتملك النفوس وليس من السهل التحرر منها، ولكنه مع المواظبة والاستمرار يحدث .

فإذا كان هذا لا يحدث اليوم، فذلك لأن المسلمين لا يقرأون القرآن. وإنما يقرأون التفاسير ولا يستمعون إلى القرآن ولكن يستمعون إلى تلحين القرآن. أو يكررون كراً دون أى وعى أو فكر كلمات الذكر الحكيم تنشيطاً لعضلات اللسان! وليس فى هذا أو ذاك ما يفيد.. ثم هم لا يمنحون القرآن قلوبهم ولكن آذانهم أو حتى بعض آذانهم لأنهم يستمعون وهم مشغولون باهتمامات أخرى، ومثل هذا بالطبع لا يأتى نتيجة وإنما تأتى النتيجة عند السماع المنتظم للسور الطوال فى الصلوات لأنها المناسبة التى تُهيئ القلب. وهذه هى الحكمة فى الصلوات الطويلة التى كان الرسول يؤديها. أنها كانت تعليماً للمسلمين وبناء لنفوسهم، فلابد من تخصيص الوقت اللازم لذلك لا باعتبارها أداء عبادة ولكن باعتباره جهاداً وبناء للنفس لأن العبادة يمكن أن تؤدى بقصار السور، وا تعالى غنى عن العالمين. وما يراد من

هذه الصلوات هو أن تنطبع الآيات على قلب المسلم فتخلقه خلقاً جديداً ...

ومن الخير أيضاً أن يفكر الخطباء فى صلاة الجمعة وغيرها فى استخدام القرآن بدلاً من كلامهم الغث. وقد كان الرسول ﷺ يخطب بالقرآن. وتحدثت صحابية أنها ما حفظت سورة "ق" إلا من كثرة ترديد الرسول لها فى خطبه .



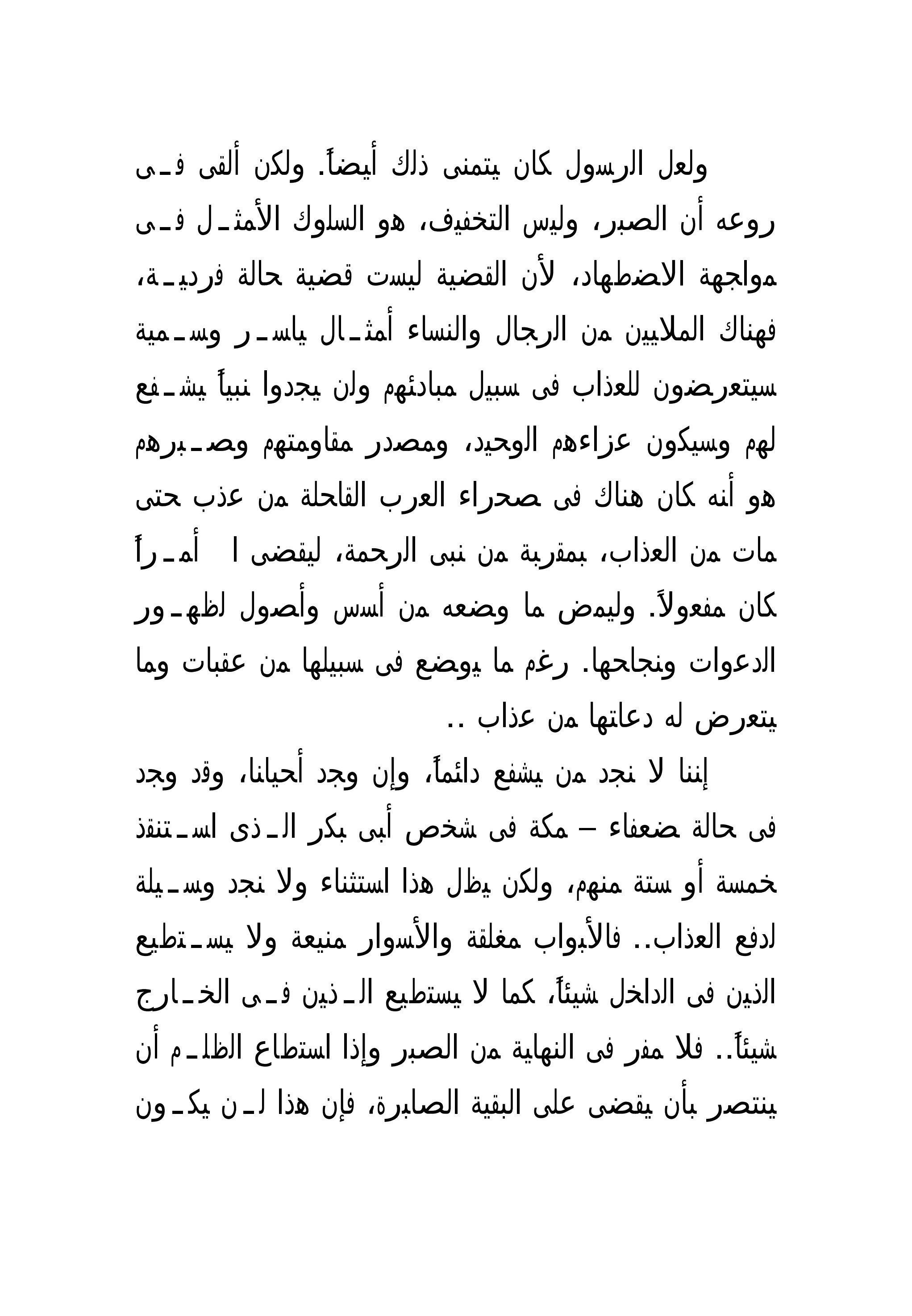
٢- الصبر والثبات

فى مواجهة الاضطهاد .

ما أن يؤمن المؤمن حتـى يتعـرض لصـنوف مـن الاضطهاد، هذه سنة ا فى المجتمع الإنسانى. وقد تعـرض لها المؤمنون الأول وتحدث إليهم الرسول عن الرجل الـذى كان يشق رأسه بالمنشار وذكر القـرآن الكـريم الأخـدود الملتهب الذى يلقى فيه بالذين يرفضون كلمة الكفر ويتمسكون بكلمة الإيمان. ونعلم من التاريخ الـويلات والفظـائع التـى تعرض لها المسيحيون الأول على يـد أبـاطرة الرومـان.. وكيف كانوا يجعلونهم طعمه للوحوش المفترسة ..

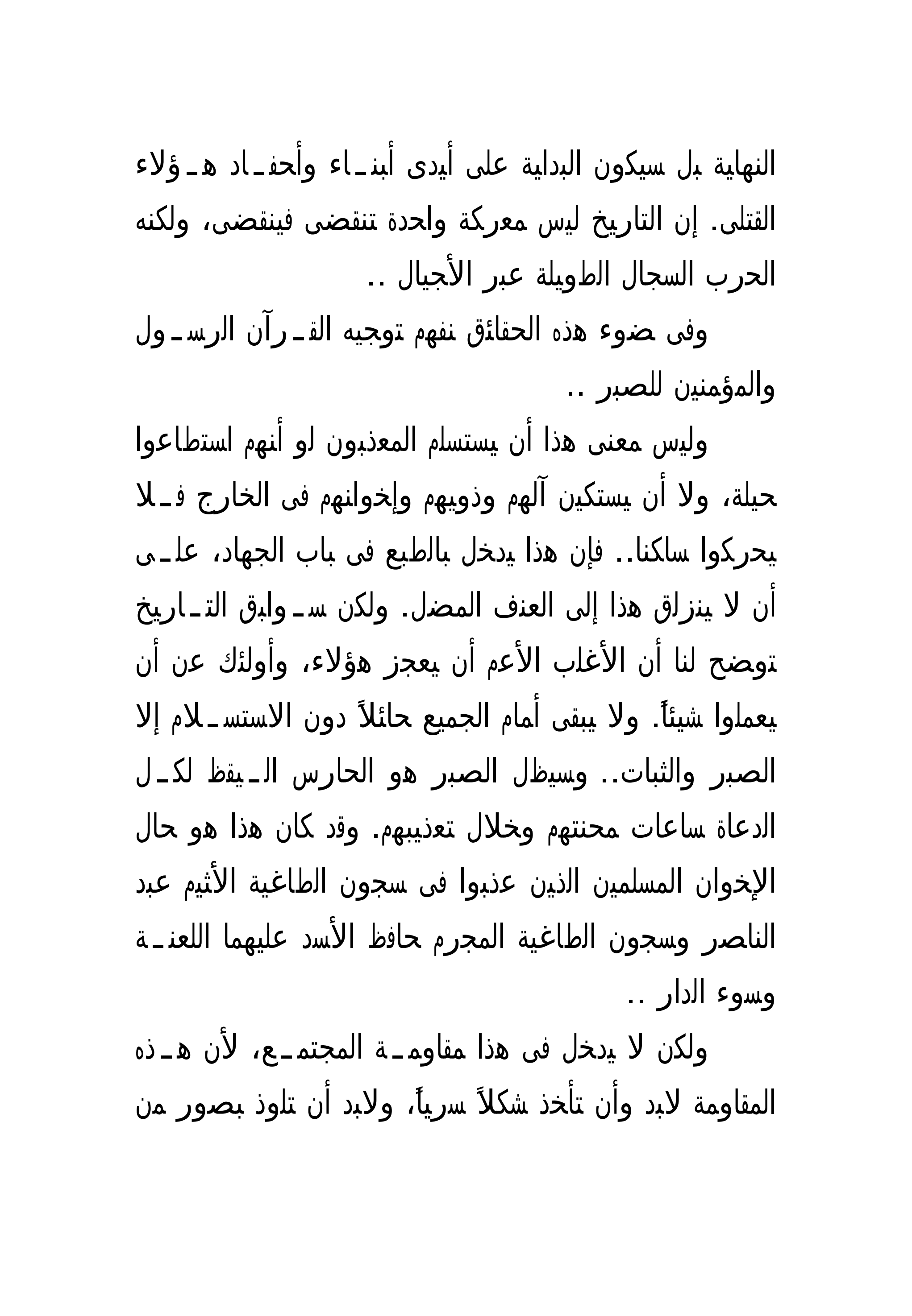
وقد تعرض المسلمون الأول لصنوف من الاضـطهاد صبها عليهم سادة قريش وأثرياؤها حتى راح ضـحية لهـا ياسر أبو عمار وسمية أمه. فكان الرسول يمر عليهم وهـم يعذبون فيقول لهم "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة"

وقد يستغرب البعض هذا الموقـف مـن الرسـول أو يتصور أنه قد كان عليه أن يفعل شيئاً ليخفف عنهم العـذاب الأليم ..



ولعل الرسول كان يتمنى ذلك أيضاً. ولكن ألقى في روعه أن الصبر، وليس التخفيف، هو السلوك الأمثل في مواجهة الاضطهاد، لأن القضية ليست قضية حالة فردية، فهناك الملايين من الرجال والنساء أمثال ياسر وسمية سيتعرضون للعذاب فى سبيل مبادئهم ولن يجدوا نبياً يشفع لهم وسيكون عزاءهم الوحيد، ومصدر مقاومتهم وصبرهم هو أنه كان هناك فى صحراء العرب القاحلة من عذب حتى مات من العذاب، بمقربة من نبى الرحمة، ليقضى ا أمراً كان مفعولاً. وليمض ما وضعه من أسس وأصول لظهور الدعوات ونجاحها. رغم ما يوضع فى سبيلها من عقبات وما يتعرض له دعاتها من عذاب ..

إننا لا نجد من يشفع دائماً، وإن وجد أحيانا، وقد وجد فى حالة ضعفاء – مكة فى شخص أبى بكر الذى استنقذ خمسة أو ستة منهم، ولكن يظل هذا استثناء ولا نجد وسيلة لدفع العذاب.. فالأبواب مغلقة والأسوار منيعة ولا يستطيع الذين فى الداخل شيئاً، كما لا يستطيع الذين في الخارج شيئاً.. فلا مفر فى النهاية من الصبر وإذا استطاع الظلم أن ينتصر بأن يقضى على البقية الصابرة، فإن هذا لن يكون



النهاية بل سيكون البداية على أيدى أبنـاء وأحفـاد هـؤلاء القتلى. إن التاريخ ليس معركة واحدة تنقضى فينقضى، ولكنه الحرب السجال الطويلة عبر الأجيال ..

وفى ضوء هذه الحقائق نفهم توجيه القـرآن الرسـول والمؤمنين للصبر ..

وليس معنى هذا أن يستسلم المعذبون لو أنهم استطاعوا حيلة، ولا أن يستكين آلهم وذويهم وإخوانهم فى الخارج فـلا يحركوا ساكنا.. فإن هذا يدخل بالطبع فى باب الجهاد، علـى أن لا ينزلق هذا إلى العنف المضل. ولكن سـوابق التـاريخ توضح لنا أن الأغلب الأعم أن يعجز هؤلاء، وأولئك عن أن يعملوا شيئاً. ولا يبقى أمام الجميع حائلاً دون الاستسـلام إلا الصبر والثبات.. وسيظل الصبر هو الحارس الـيقظ لكـل الدعاة ساعات محنتهم وخلال تعذيبهم. وقد كان هذا هو حال الإخوان المسلمين الذين عذبوا فى سجون الطاغية الأثيم عبد الناصر وسجون الطاغية المجرم حافظ الأسد عليهما اللعنـة وسوء الدار ..

ولكن لا يدخل فى هذا مقاومـة المجتمـع، لأن هـذه المقاومة لابد وأن تأخذ شكلاً سرياً، ولابد أن تلوذ بصور من

العنف أو اللاشرعية مما يسمح بانزلاقات خطيـرة، دون أن يحقق شيئاً، ولو فكر أعضاء الجماعات الإسلامية فى سياسة دعوة الرسول فى الفترة المكية، وكيف أنه لم يقم بأى مقاومة يقارع بها المجتمع الجاهلى، لقاء ما ارتكبوه مـن حماقـات لفهموا حكمة ذلك، ولما انساقوا فى "جهادهم" الضال العقـيم ولما لاذوا بصور من العنف أساءت إليهم وإلـى الإسـلام، وإلى الأمة كلها .

الصبر إذن هو المسلك الأمثـل، ومـن ثـم جـاءت توجيهات القرآن آمرة به ..

- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ . {١٧٧ البقرة} ..
- ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . {٢٥٠ البقرة} ..
- ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. {١٤٦ آل عمران} ..
- ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ . {١٨٦ آل عمران} ..

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ . {٢٠٠ آل عمران} ..
- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾. {٣٤ الأنعام} .
- ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. {١٢ إبراهيم}
- ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. {٣٥ الحج} ..
- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.{٣٥ الأحقاف}

ولا يوجد صبر إلا عندما يوجد الإيمان بـا ، لأنـه الأقوى من الطغاة، ومن العذاب.. ولأن إليه المآب فى النهاية فالمؤمن با حقا يصبر لأنه نوع من الجهاد، فـإذا قتـل أو مات فإنه يظفر بالشهادة وأن عاش يظفر بالبطولـة وبقـدر إيمانه با يكون صبره على العذاب ..

٣- الحكمة والموعظة الحسنة

فى التعريف بالدعوة

ما الذى يجعل دعوة تزدهر، وتنتصر بينما تفشل دعوة أخرى وتنغلق وتنطوى؟ عندما تتساوى العوامل، فإن الدعوة التى يلجأ دعاتها إلى الحكمة والموعظة الحسنة هـى التـى سيكون لها الانتشار والانتصار .

لقد قال القرآن الكريم فأوجز، وأعجز، وبلـغ الغايـة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. {١٢٥ النحل} ..

فرسم فى هذه الآية سبيل الدعوة ..

ومرة أخرى :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {٤٦ العنكبوت}..

وأى سبيل آخر غير الحكمة لا يمكن أن يجدى جدواها أو يشجى شجواها.. أو يبلغ منتهاها.. فالمال مثلاً لا يمكن أن

يثمر فى ميدان الدعوات. إن الذين يعطـى لهـم يأخذونـه ويلعنون صـاحبه! ويرون أنهم أحق به منه.. وهـو لا يصنع أخوة أو يحكم رابطة وصـدق الله ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٦٣ الأنفال} ..

والسلطة لا تجـدى فتـيلاً فـى الـدعوات وسـتأتى بالانتهازيين والطامعين والمنافقين الذين يزيدون الحاكم خبالاً وضلالاً. ولعلهم يفعلون سراً عكس ما طلب إليهم جهراً ...

ولو كان المال أو السلطة يجديان لكان الأنبياء والدعاة من الأثرياء، والحكام. ولكن هذين بالذات هما أبعد الناس من الدعوات ..

ليس إلا الحكمة والموعظة الحسنة. بألفاظها ومعانيها، أى السلامة فى عرض فى الموضوع التـى تكشـف عـن حكمته، والأسلوب الحسن الذى يكفـل قبولهـا والمحاولـة بالحسنى التى تفند الشكوك والشبهات ثم بعد هذا فلا تأسى إذا لم يؤيد البعض، لأن الله تعالى أعلم بهم منك ..

وقد كانت ولا تزال – الحكمة والموعظة الحسنة هـى أمثل الطرق فى اكتساب الأعضاء للدعوات فإن فرداً واحـداً

تكسبه الدعوة يمكن أن يكون أمه.. إن أبا بكر وحده كسب للإسلام المجموعة التى قادت الإسلام بعد ذلك. وعندما مر المسيح على صائد سمك. دعاه وجعله صائداً للناس وأرتفع إلى مستوى كبار الحواريين ..

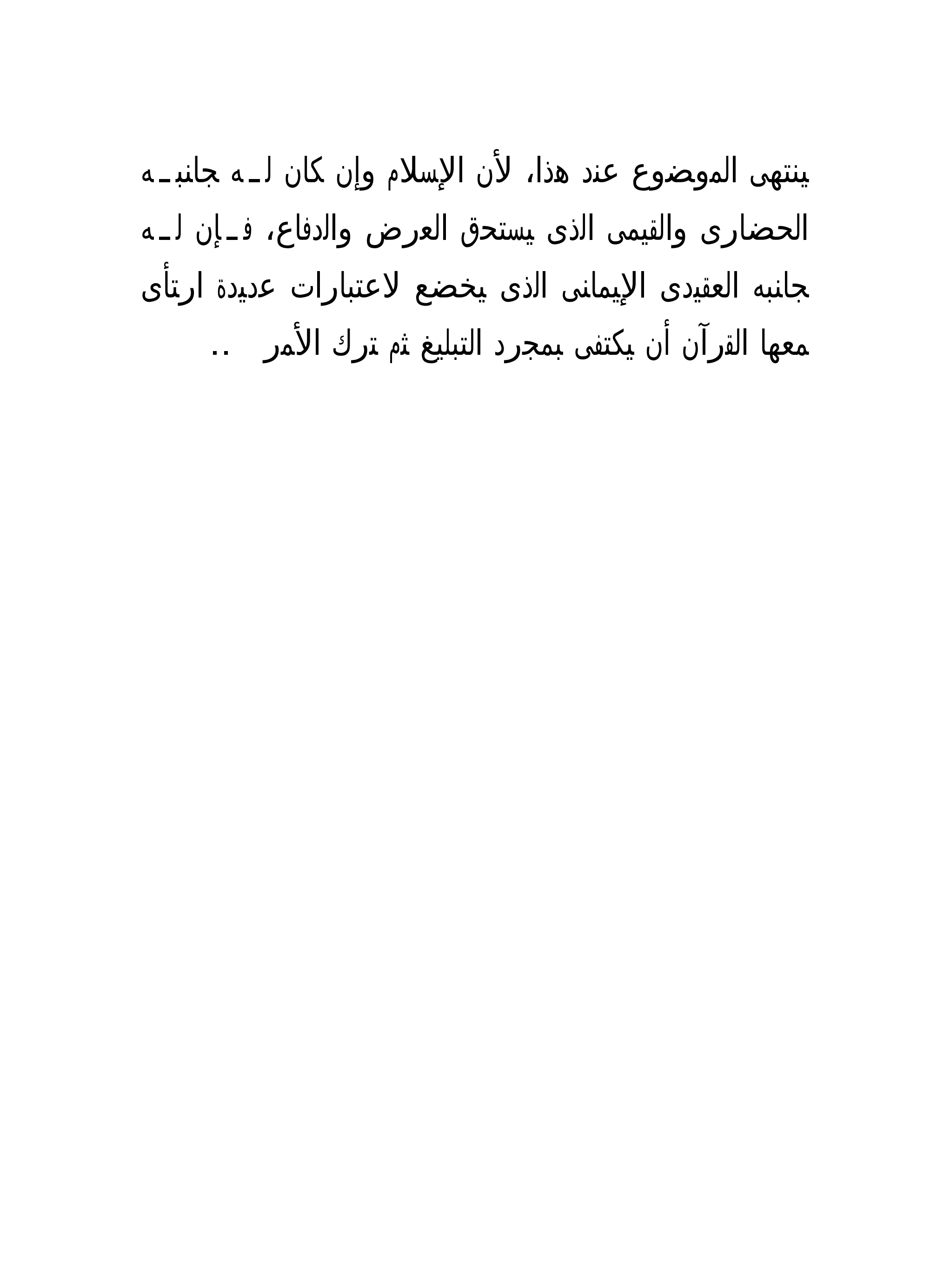
ومع انتشار وسائل الدعاية الحديثة، وقوة تأثيرها، فلا تزال العلاقة الشخصية، والكلمة المباشرة من فم إلى فم هى أكثر الطرق فعالية للتوصل إلى العناصر الصالحة. لأن الصلة الشخصية هى أوثق العلاقات وهى تجعل الداعية يختار أفضل العناصر بحكم معرفته، ويستبعد من لا خلاق له، أو من ليس مؤهلاً لحمل الدعوة فيدرأ عنها كثيراً من الغثاء الذى يحسب عليها لا لها. وهذا العنصر الصالح سيستمع من قلبه لصديقه لأنه يعلم أنه جاد. وسيقوم بدورة فى الدعوة وبهذا تنتقل الدعوة من الداعية لتكسب داعية أخر وهلم جراً ..

ولا يمنع هذا بالطبع من أن وسائل الدعوة الأخرى كالنشرات والرسائل والكتب والاجتماعات والندوات الخ... تستخدم فقد يكون أسلوب الدعوة الفردية وحده مما لا يتسق أو يسير مع السياق.. ولكن هذه الوسائل من اجتماعات

ونشرات تأتينا بالكثير من الغثاء.. الذى تضيق بـه الـدعوة فيما بعد، ويكون عليها أن تخلص منهم .

وإشارة الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. توجه الدعاة لعدم إلحافهم بالدعوة علـى الـذين لا يتقبلونهـا لهـذا السـبب أو ذاك. لأن السـلامة الموضوعية للدعوة قد لا تكون سببا للإيمان، فقد يكون هناك من العوامل الذاتية ما يجعل فرداً ما يرفضها لأنها تخـالف مصالحه الخاصة أو تؤثر على وضعه الاجتماعى الخ ...

وهناك أمر آخر وثيـق الصـلة بالـدعوة بالحكمـة والموعظة الحسنة.. ذلك أن المسلمين مطـالبون بتعريـف العالم على الإسلام وتعميق هذا بالطبع – ولو ضمنا – دعوة للإيمان به، ولكن هذا ليس جزءاً لا يتجزأ من دعوة التعريف وهى التفسير للنص القرآنى ﴿لِتَكُونُوا شُهداء علَـى النـاسِ ويكُون الرسولُ علَيكُم شَهيدا﴾. لأن النص وإن كان يـوحى الخصوصية بعهد الرسول، فإن العبرة هى بعمـوم الـنص وليس بخصوص السبب – كما يقولون.. ويجب أن يتم هـذا بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا تطلب تحاوراً فيجب أن يتم طبقاً للأصول التى وضعها القرآن "بالتى هـى أحسـن" وأن



ينتهى الموضوع عند هذا، لأن الإسلام وإن كان لـه جانبـه الحضارى والقيمى الذى يستحق العرض والدفاع، فـإن لـه جانبه العقيدى الإيمانى الذى يخضع لاعتبارات عديدة ارتأى معها القرآن أن يكتفى بمجرد التبليغ ثم ترك الأمر ..

٤- الإنفاق – الإنفاق :

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ..

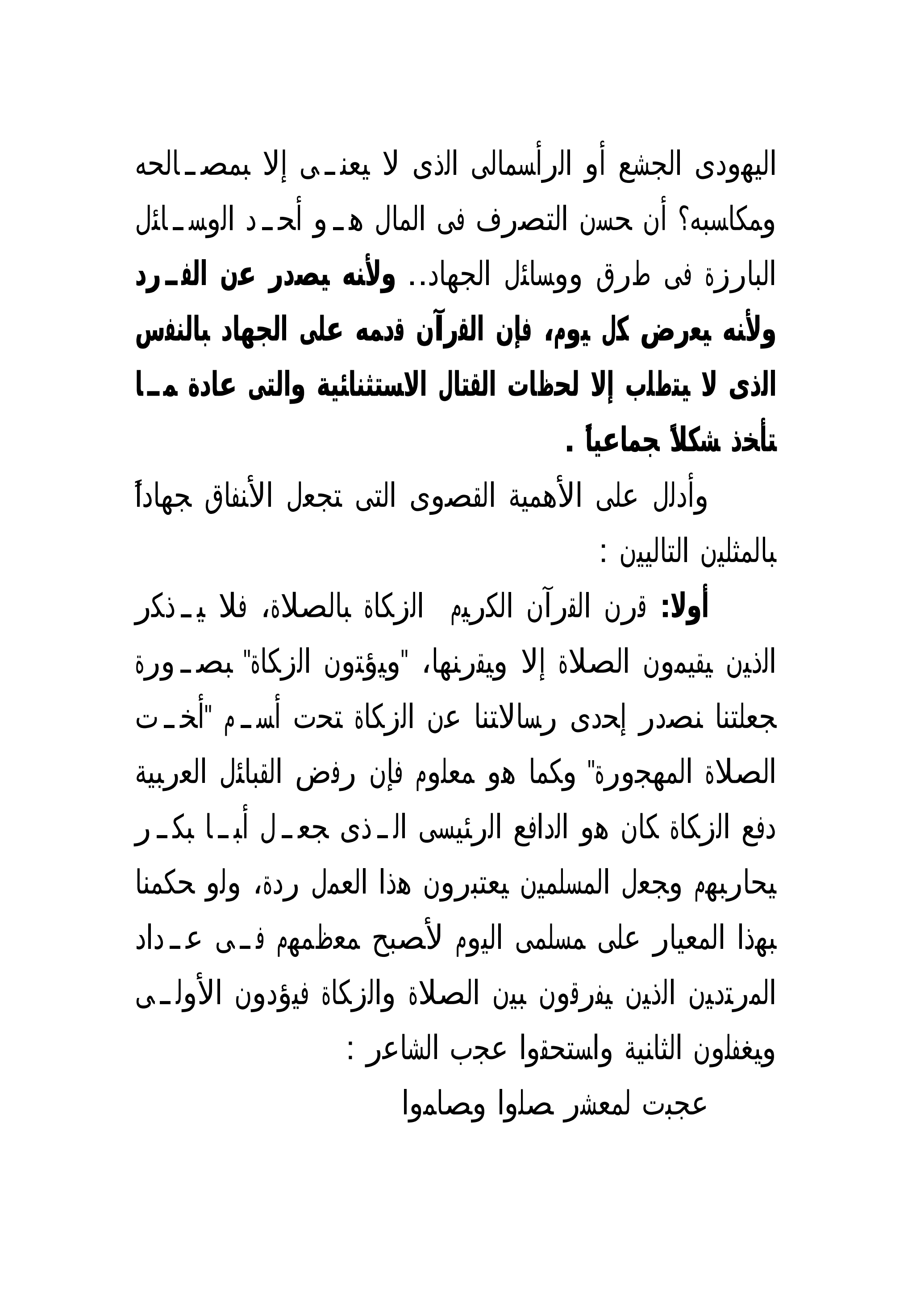
من يتقصى آيات الجهاد يجد أنها تضم الذين "يجاهدون بأموالهم وأنفسهم" ويلحظ أن القرآن الكريم قدم الأموال على النفوس .

- ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. {٩٥ النساء} ..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. {٧٢ الأنفال} ..
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. {٢٠ التوبة} ..
- ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {٨٨ التوبة} ..

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. {١٥ الحجرات}

أن إدخال الأموال فى باب الجهاد وتقديمه على النفس أمر قد يثير الدهشة لأن النفس أكرم من المال .

ولكن هذه الدهشة تتبدد إذا تذكرنا أن الجهاد أسلوب فى الحياة. يعنى بذل الجهد، كل الجهد، فى سبيل الخير، كل الخير. فى هذا الأسلوب يكون جهاداً بذل المال إعانة لمحتاج، أو مشاركة فى تسليح أو تزويدا لمحارب بالعدة، أو مساهمة فى بناء مؤسسات للخير أو حتى القيام بنشاط اقتصادى للشعب ييسر الوظائف وينهض بمستوى المعيشة هذا كله فى صميم جهاد الحياة اليومية، بل لا نغالى إذا قلنا إن هذا الجانب هو ما يشغل الناس جميعا، فقضية المال والحرص على تملكه واكتنازه أو استخدامه فيما تهوى الأنفس من شهوات واستمتاع أو الحرص على كسبه بطرق قد يدخل فيها استغلال العمال وظلم الفلاحين الخ... هذه كلها هى ما يملأ مخيلة، وطموح، معظم الناس وما يؤدى إلى ما يعانيه المجتمع الحديث من مظالم وأزمات وما الفرق بين المسلم المؤمن الذى يبتغى بحياته رضا ا ورضوانه.. وبين



اليهودى الجشع أو الرأسمالى الذى لا يعنـى إلا بمصـالحه ومكاسبه؟ أن حسن التصرف فى المال هـو أحـد الوسـائل البارزة فى طرق ووسائل الجهاد.. **ولأنه يصدر عن الفـرد ولأنه يعرض كل يوم، فإن القرآن قدمه على الجهاد بالنفس الذى لا يتطلب إلا لحظات القتال الاستثنائية والتى عادة مـا تأخذ شكلاً جماعياً .**

وأدلل على الأهمية القصوى التى تجعل الأنفاق جهاداً بالمثلين التاليين :

أولا: قرن القرآن الكريم الزكاة بالصلاة، فلا يـذكر الذين يقيمون الصلاة إلا ويقرنها، "ويؤتون الزكاة" بصـورة جعلتنا نصدر إحدى رسالاتنا عن الزكاة تحت أسـم "أخـت الصلاة المهجورة" وكما هو معلوم فإن رفض القبائل العربية دفع الزكاة كان هو الدافع الرئيسى الـذى جعـل أبـا بكـر يحاربهم وجعل المسلمين يعتبرون هذا العمل ردة، ولو حكمنا بهذا المعيار على مسلمى اليوم لأصبح معظمهم فـى عـداد المرتدين الذين يفرقون بين الصلاة والزكاة فيؤدون الأولـى ويغفلون الثانية واستحقوا عجب الشاعر :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا

ظواهر خشية وتقى كذابا

وتلقاهم حيال المال صماً

إذا داعى الزكاة بهم أهاباً

ولا يتسع المجال للحديث عن عبقرية الزكاة وقد بينـا عشرة وجوه تفضل بها الزكاة النظم الأخرى التى وضـعها المجتمع كالضمان الاجتماعى أو صور التأمينات(٥) .

ثانيا: الحملة الشعواء التى شنها القرآن الكـريم علـى الربا وتهديده لأصحابه بحرب من ا ورسوله والتى أريـد بها الحرب على الاستغلال الاقتصادى وضرورة ملاحظـة الاعتبارات التى تتحكم فى الفقراء إلى درجـة جعـل فيهـا القرض نوعاً من الصدقة عندما سمح بتأخير دفعه إلى ميسرة وأنى للفقير المستدين من ميسرة ؟ إن منطق الإسلام هـو أن على الدائن الغنى أن ينظره إلى النهاية أو يحتسـب قرضـه صدقة فى سبيل ا . فإن هذا وإن أخل بحساباته فلن يعجزه.. ولكن السداد هو ما يعجز عنه الفقير .

ولكى يعزز القرآن الكريم الجهاد بالمال، فإنـه فـى آيات عديدة حذر من البخل ومن الاكتنـاز وتوعـد الـذين

---

(١) "أخت الصلاة المهجورة" وهى إحدى رسائل الاتحـاد الإسـلامى الدولى للعمل. من ص٢٦ إلى ص٣٠ .

يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها فى سـبيل ا بالنـار ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ .

كما أنه رفع الأنصار إلى أعلى مرتبة لأنهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. {٩ الحشر} ..

وحدد القرآن الكريم فيم يكون الإنفاق ..

من هنا جاء حث القرآن الكريم على الجهاد بالأموال واعتباره أعظم قربى إلى ا ، وأولى وسيلة فى الجهاد، لأن أثره يعم المجتمع ويحل مشاكل الحياة اليومية فيه. ويمكـن أن يسعد، أو يشقى، الملايين من الناس بـدء مـن الأسـرة والجار إلى كل المواطنين .

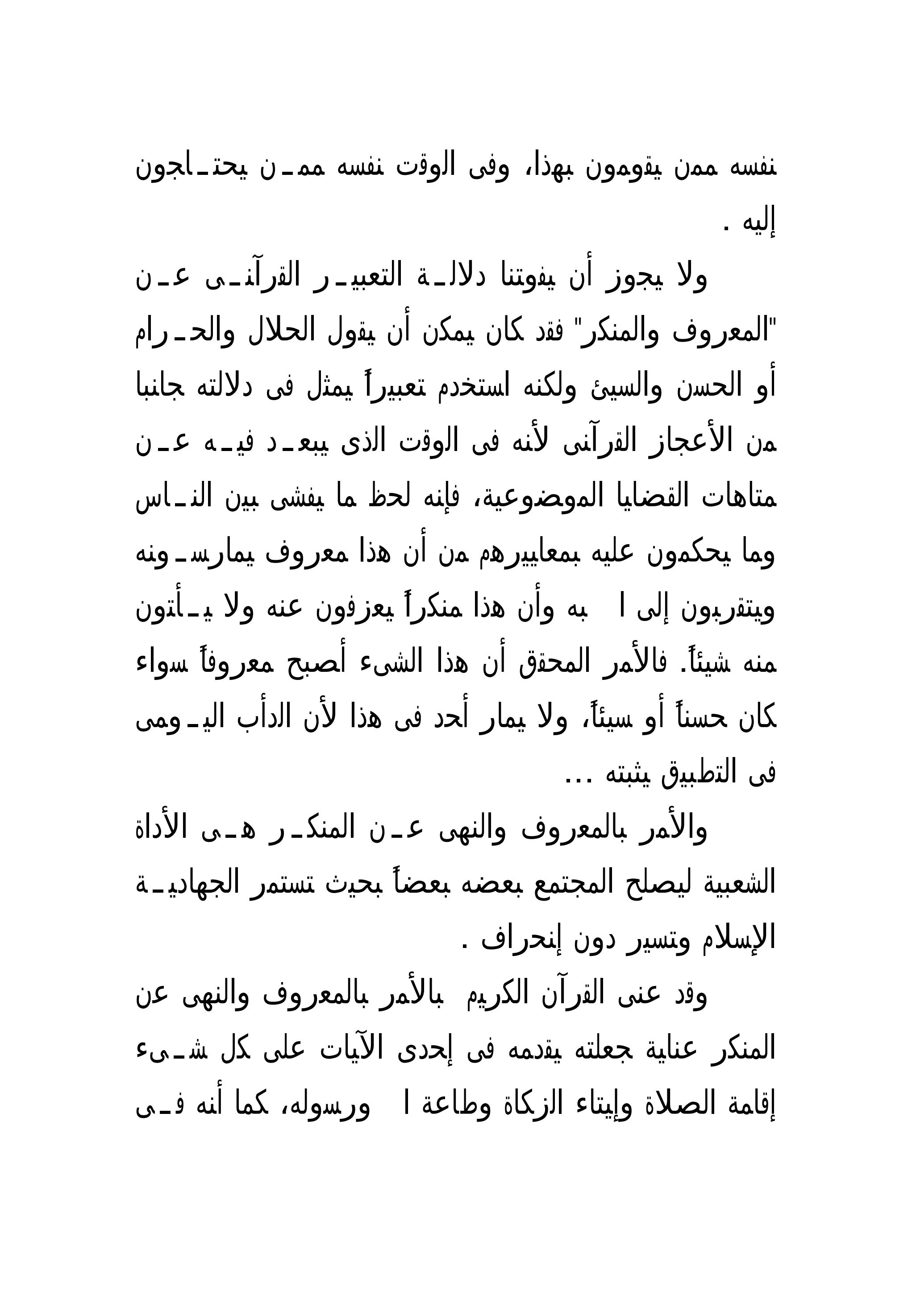
واستعراض هذا، يجعلنا بدلاً من أن نندهش لاعتبـار الإنفاق وسيلة من وسائل الجهاد.. نندهش كيف فاتنا ذلـك، ولم نعتبره من أولى وسائل الجهاد .

٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

أسلوب التعامل مع الانحرافات

الأسباب التى تدفع بالمجتمعات إلى الانحراف عديـدة والوقوع فيها هو مما لا مناص عنه. فقد أشـرنا إلـى قـوة الشهوات وجاذبية المال والسلطة، وأشرنا إلـى أن الطبيعـة البشرية بها عرق ينزع إلى الهبوط إلى الأرض. وتحدثنا عن الابتلاء الذى يتطلب قوة وصموداً يغلب أن لا يتوفرا لمعظم الناس. بل حتى فى مجال الهداية الإسلامية لا نعـدم أسـباباً تؤدى إلى الانحراف مثل سوء فهم النصـوص. أو التمسـك بآراء الأئمة والتعصبات المذهبية. أو العجز عن التمييز مـا بين الحديث الذى لا يعتد به – والحديث الذى يعتمد عليـه. وهذه كلها تؤدى إلى إنحراف فى مجال الـدعوة الإسـلامية والسلوك الإسلامى لا يقل عن الانحراف فى مجـال الحيـاة الدنيا والاستسلام لشهواتها ونزواتها .

من أجل هذا كان من الضرورى أن توجـد جهاديـة الإسلام أداة لمواجهة هذه الانحرافات. وقـد أوجـدتها فـى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" بحيث يجد كل واحـد من يعرفه بالخطأ أو الضعف الذى ينساق إليه، وقد يكون هو


نفسه ممن يقومون بهذا، وفى الوقت نفسه ممـن يحتـاجون إليه .

ولا يجوز أن يفوتنا دلالـة التعبيـر القرآنـى عـن "المعروف والمنكر" فقد كان يمكن أن يقول الحلال والحـرام أو الحسن والسيئ ولكنه استخدم تعبيراً يمثل فى دلالته جانبا من الأعجاز القرآنى لأنه فى الوقت الذى يبعـد فيـه عـن متاهات القضايا الموضوعية، فإنه لحظ ما يفشى بين النـاس وما يحكمون عليه بمعاييرهم من أن هذا معروف يمارسـونه ويتقربون إلى ا به وأن هذا منكراً يعزفون عنه ولا يـأتون منه شيئاً. فالأمر المحقق أن هذا الشىء أصبح معروفاً سواء كان حسناً أو سيئاً، ولا يمار أحد فى هذا لأن الدأب اليـومى فى التطبيق يثبته ...

والأمر بالمعروف والنهى عـن المنكـر هـى الأداة الشعبية ليصلح المجتمع بعضه بعضاً بحيث تستمر الجهاديـة الإسلام وتسير دون إنحراف .

وقد عنى القرآن الكريم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عناية جعلته يقدمه فى إحدى الآيات على كل شـىء إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة ا ورسوله، كما أنه فـى

آية أخرى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبـرراً أفضلية أمة المسلمين .

- ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {١٠٤ آل عمران} ..
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. {١١٠ آل عمران} ..
- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. {١١٤ آل عمران} ..
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٧١ التوبة} ..

وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإيكالـه إلـى المؤمنين دلالة أخرى هى عمق التكافل والتكامل فى المجتمع الإسلامى. وأن هذا المجتمع هو كما قال الرسول – كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سـائر الأعضـاء بالحمى والسهر.. فلا يملك الفرد المسلم عندما يرى منكـراً ممارساً ومعروفاً مهملاً إلا أن يتحرك بطريقة لا إرادية كان عمق التكامل فى نفس المسلم أوجد أداة تتحـرك لا إراديـا

وتجعله يندفع للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإذا حال حائل دون ذلك فإنه يحس أنه حرم ما وجب عليه، فهو صورة من تفاعل المقتضى الاجتماعى مع الإرادة الفردية .

ويدخل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كل عالم العلاقات الفسيح وما يعرض له من تطورات، سواء فى ذلك ما بين الرجل والمرأة، العامل وصاحب العمل، الفرد المحكوم والجهاز الحاكم. وعندما أعطت الآية ٧١ من سورة التوبة المؤمنات حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جنباً إلى جنب المؤمنين، فإنها أعطتهن "كارت بلانش" لولوج كل أبواب العمل العام بحيث لا تقل مسئولية المرأة عن الرجل فى هذا المجال .

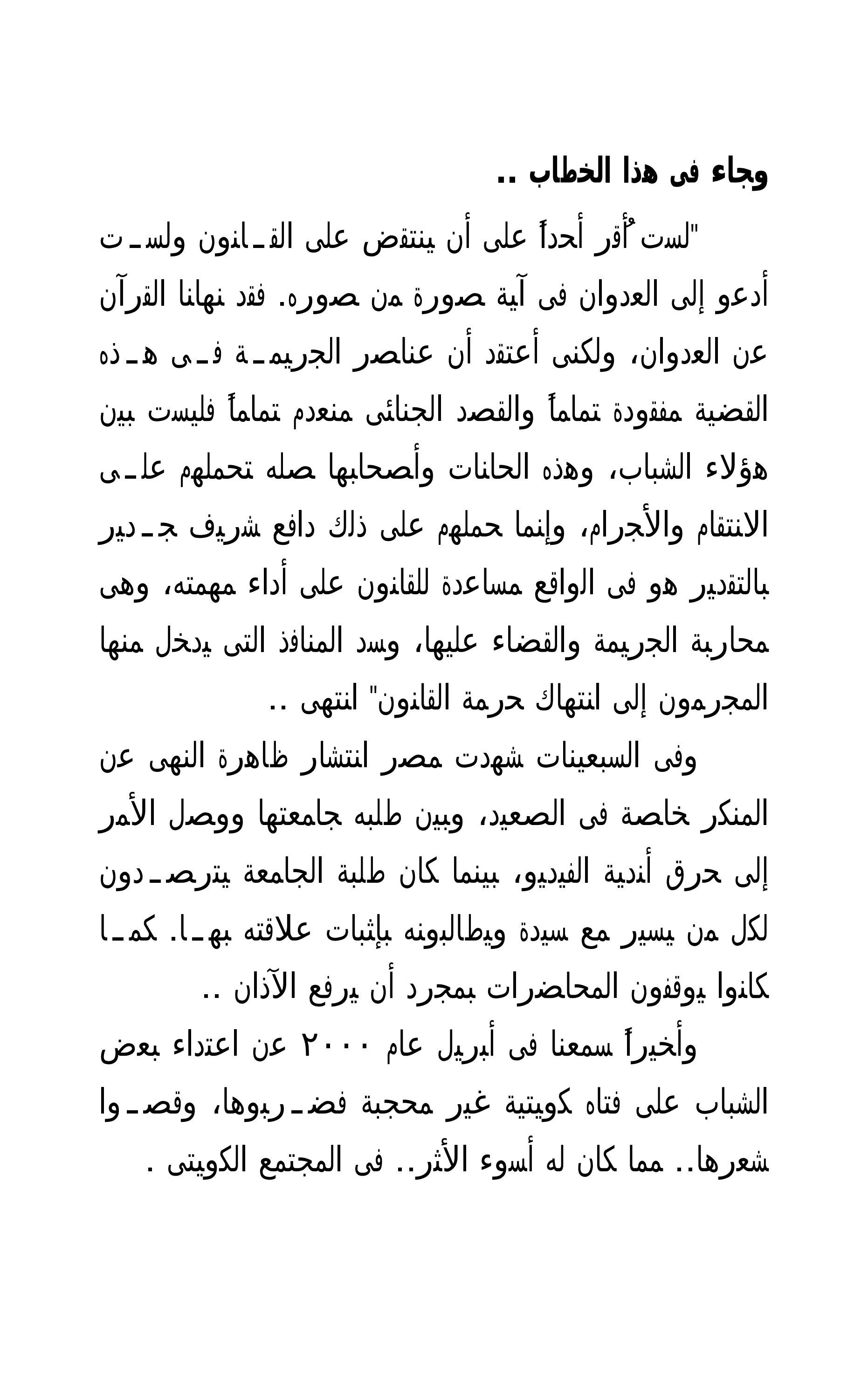
وتعبير "المعروف" و "المنكر" دون تحديد يمكن أن يجعل إطار ذلك شاملاً لكل معروف، ولكل منكر. وهذا ما يجعل تطبيق ذلك أمراً يتطلب كياسة وتعاملاً مع كل حالة، أو مع كل صنف من الناس، وملاحظة الوقت والظروف إلى آخر ما ينبغى أن يلاحظه كل آمر بالمعروف ناه عن المنكر حتى لا يسىء القيام بهذه المهمة النبيلة بحيث يولد من المنكر المنهى عنه منكرا أكبر مما أراد القضاء عليه.. وهذا أمر لم

يغب عن فطنة الذين كتبوا فى هـذا الموضـوع فوضـعوا ضوابط عديدة له. فلا تجوز الممارسة ما لم يكن المعـروف المأمور به أو المنكر المنهى عنه معروفاً صـريحاً ومنكـراً خالصاً ولا يكون هناك ريب أو شك فإذا كان هناك ريب أو شك فمن الواجب التريث. كما يجب أن يكون الأسلوب مهذباً رقيقاً وقد قال الله تعالى عن الرسول ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِـيظَ الْقَلْبِ لانْفَضوا مِن حولِك﴾. وأوحى لموسى وهارون أن يأتيا فرعون وأن يقولاً له قولاً لينا فكيف يكون الحال بداعية من عامة الناس. إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يكون بابتسامة أو قد يكون بالتحية والسلام كما قد يتعدى "الأمـر" إلى العمل كإعانة الضعيف ومساعدة المريض وإنقاذ مشرف على الهلاك. ويجب أن يلحـظ دائمـاً أن هنـاك رخصـاً وتيسيرات، كما أن صغائر الذنوب لا تستحق أن نقـيم لهـا أمراً ونهياً، لأن الله تعالى يتجاوز عنها، ولأن سلم الأولويات يقتضى البدء بالأهم قبل المهم، وليس من الصواب فى شىء أن نبدأ بأمر ضئيل الأهمية ونهدر ما هو أكثر أهمية ..

وقد جاءت النصوص القرآنية كلها مقصـورة علـى "الأمر" ولكن الحديث المشهور عن "تغيير" المنكر باليد، فإن

لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان، أعطى مؤشراً اخطأ الكثيرون فى فهمه وتطبيقه، وأوجد من "المناكر" ما يفوق ما أريد درؤه فإن استخدام اليد أمر شـديد الخطورة. ويمكن أن يصبح صورة من التطاول على النـاس وعلى من يمارسه أن يقدر المسئولية، ويتحملها. ولا يجـوز بصفة عامة ممارستها إلا فى حالات الضرورة القصوى .

وفى ثلاثينات القرن العشرين تملكت الحماسة لفيفا من أعضاء "مصر الفتاة " للقضاء على الحانات فـداهموا عـدداً فيها ودمروا مقتنياتها، وقبض البوليس على الذين قاموا بذلك وقدموهم للمحاكمة، وفى هذه المناسبة أرسل الإمام حسن البنا رحمه ا خطاباً مفتوحاً للسلطات نشرته مجلة الإسلام فـى العدد ٤٩ السنة السابعة الصـادر فـى ١٩٣٩/٢/١٧ ص ٦ أستنكر فيه هذا الفعل {تدمير الحانات} والطريقة التى تم بها، ولكنه فى الوقت نفسه وجه نظر السـلطات إلـى المعـانى الموضوعية التى دفعت بالشباب إلى هذا العمل، واعتقـد أن مسلك الإمام البنا هذا هو المسلك الأمثل من زعيم إسـلامى كبير يقدر كافة الأبعاد والعوامل .

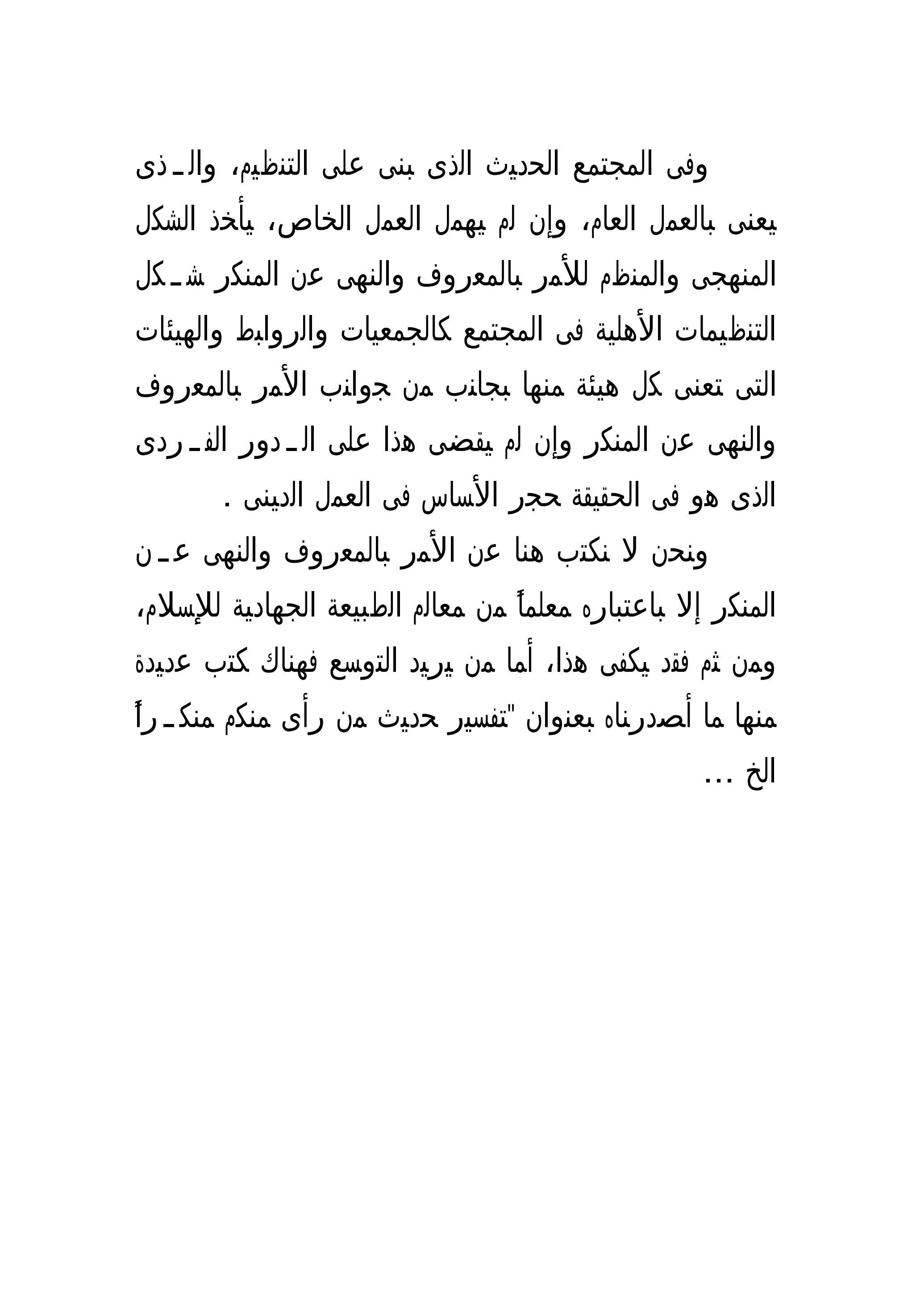


وجاء فى هذا الخطاب ..

"لست أُقر أحداً على أن ينتقض على القـانون ولسـت أدعو إلى العدوان فى آية صورة من صوره. فقد نهانا القرآن عن العدوان، ولكنى أعتقد أن عناصر الجريمـة فـى هـذه القضية مفقودة تماماً والقصد الجنائى منعدم تماماً فليست بين هؤلاء الشباب، وهذه الحانات وأصحابها صله تحملهم علـى الانتقام والأجرام، وإنما حملهم على ذلك دافع شريف جـدير بالتقدير هو فى الواقع مساعدة للقانون على أداء مهمته، وهى محاربة الجريمة والقضاء عليها، وسد المنافذ التى يدخل منها المجرمون إلى انتهاك حرمة القانون" انتهى ..

وفى السبعينات شهدت مصر انتشار ظاهرة النهى عن المنكر خاصة فى الصعيد، وبين طلبه جامعتها ووصل الأمر إلى حرق أندية الفيديو، بينما كان طلبة الجامعة يترصـدون لكل من يسير مع سيدة ويطالبونه بإثبات علاقته بهـا. كمـا كانوا يوقفون المحاضرات بمجرد أن يرفع الآذان ..

وأخيراً سمعنا فى أبريل عام ٢٠٠٠ عن اعتداء بعض الشباب على فتاه كويتية غير محجبة فضـربوها، وقصـوا شعرها.. مما كان له أسوء الأثر.. فى المجتمع الكويتى .



وفى المجتمع الحديث الذى بنى على التنظيم، والـذى يعنى بالعمل العام، وإن لم يهمل العمل الخاص، يأخذ الشكل المنهجى والمنظم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شـكل التنظيمات الأهلية فى المجتمع كالجمعيات والروابط والهيئات التى تعنى كل هيئة منها بجانب من جوانب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم يقضى هذا على الـدور الفـردى الذى هو فى الحقيقة حجر الأساس فى العمل الدينى .

ونحن لا نكتب هنا عن الأمر بالمعروف والنهى عـن المنكر إلا باعتباره معلماً من معالم الطبيعة الجهادية للإسلام، ومن ثم فقد يكفى هذا، أما من يريد التوسع فهناك كتب عديدة منها ما أصدرناه بعنوان "تفسير حديث من رأى منكم منكـراً الخ ...

٦ - المقاصة ...

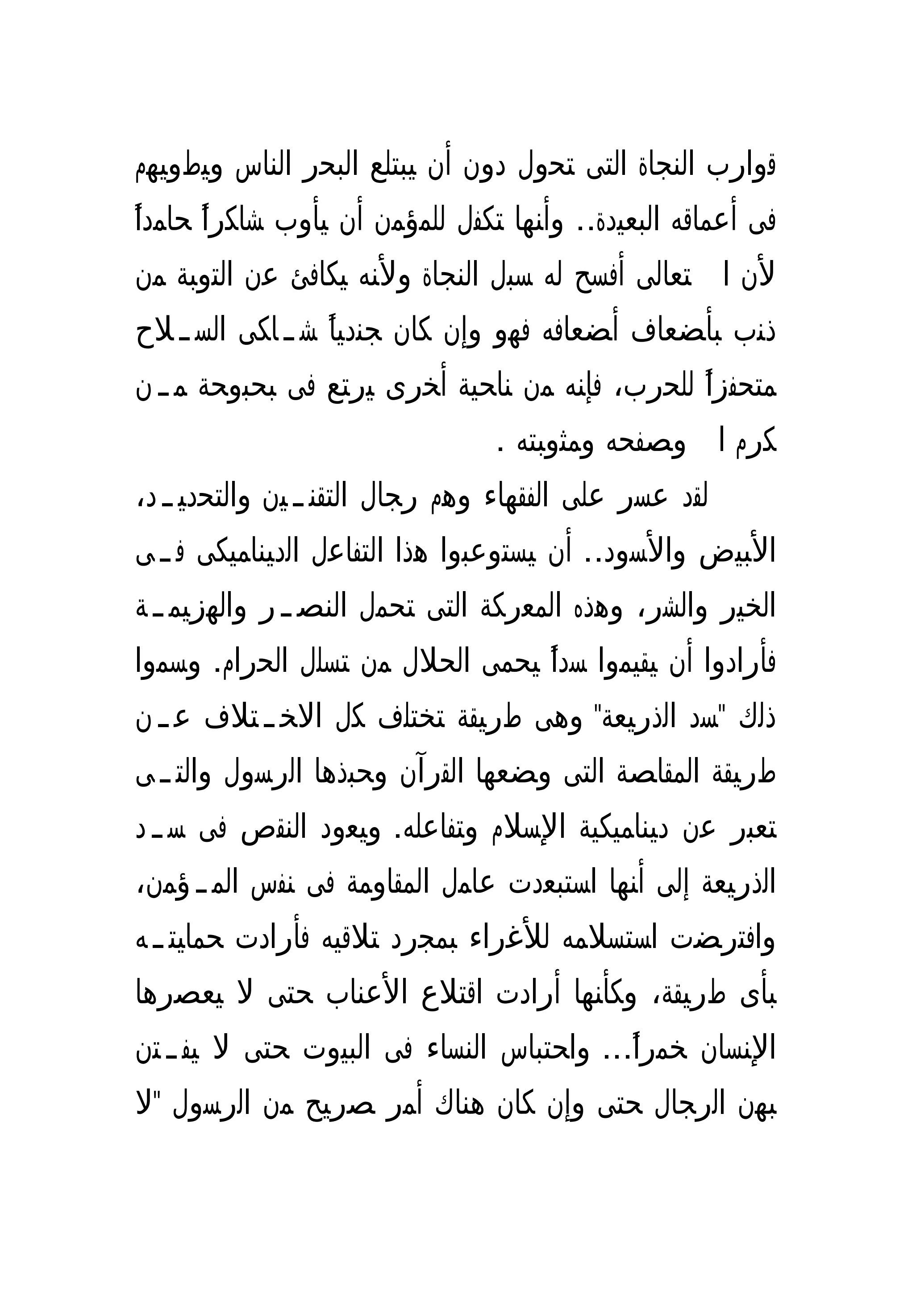
"إن الحسنات يذهبن السيئات"

يعلم ا تعالى الذى خلق الإنسان وهو أقرب إليه مـن حبل الوريد ما يتردد فى جنبات النفس وأطواء الضـمير. إن الإنسان مهما حاول ابتغاء الخير وتجنب الشر، فإنه لا يسـلم من الخطأ أو ما يؤدى إليه القصـور، كمـا لا ينجـو مـن خطيئات يقع فيها بحكم الضعف البشرى – لأن الإنسان ليس معصوماً. وقد قال حديث "كـل بنـى آدم خطـأون وخيـر الخطائين التوابون" واعترف القرآن بضعف الإنسان فقـال: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾. {٢٨ النساء}.. ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾. {١٩ المعارج}.. وأشار القرآن إلى ضعف بنى آدم الموروث عن أبيهم الذى قال عنه القرآن ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. {١١٥ طه}.. لهـذا فإن الإسلام لا يستبعد أن يقع المؤمن فى خطأ أو يتورط فى معصية، ولكن الإسلام ينتظر ممن فعل ذلك أن يندم أو يتوب أو يغير من ذلك بطريقة ما. وقد يفضل الإسلام مـن يـذنب فيستغفر على من لا يذنب ولا يستغفر، لأن خطأ الأول قـاده

إلى الاستغفار أى ذكر ا تعالى وسؤاله الصفح وقبوله التوبة وهذه كلها من الأفعال التى تصلح ما أفسدته الخطيئـة بـل وتتجاوزها فلذلك قال حديث "لو لم تـذنبوا لـذهب ا بكـم وجاء، بقوم يذنبون ويستغفرون فيتوب ا علـيهم". فلـيس السيئ أن يخطئ الإنسان، ولكن السيئ أن يصر على الخطأ أما إذا أقلع عنه واعترف به واستغفـر ا . فـإن ا يغفـر له. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {١٣٥ آل عمران} .

ووضع ا تعالى فى قرأنه أسلوب المقاصـة. فمـن يعمل سيئة ثم يتبعها بحسنة فإن الحسـنة سـتمحو السـيئة. وستكسب له أجراً ومن هنا قال "إن الحسنات يذهبن السيئات" "ويدرءون بالسيئة الحسنة" "واتبع السيئة الحسنة تمحها" .

واستعراض هذا يجلى الأعجاز فى المعالجة القرآنيـة لما يثور فى النفس البشرية من عناصر القوة والضعف ومـا يصدر عن ذلك ويتفاعل بعضه مع بعض كأمواج البحر التى تدفعه يميناً وشمالاً، ويظهر الحياة مسرح جهاد وكفاح.. تمثل فوقه معارك الخير والشر والانتصار والانهزام مـع وجـود



قوارب النجاة التى تحول دون أن يبتلع البحر الناس ويطويهم فى أعماقه البعيدة.. وأنها تكفل للمؤمن أن يأوب شاكراً حامداً لأن ا تعالى أفسح له سبل النجاة ولأنه يكافئ عن التوبة من ذنب بأضعاف أضعافه فهو وإن كان جندياً شـاكى السـلاح متحفزاً للحرب، فإنه من ناحية أخرى يرتع فى بحبوحة مـن كرم ا وصفحه ومثوبته .

لقد عسر على الفقهاء وهم رجال التقنـين والتحديـد، الأبيض والأسود.. أن يستوعبوا هذا التفاعل الديناميكى فـى الخير والشر، وهذه المعركة التى تحمل النصـر والهزيمـة فأرادوا أن يقيموا سداً يحمى الحلال من تسلل الحرام. وسموا ذلك "سد الذريعة" وهى طريقة تختلف كل الاخـتلاف عـن طريقة المقاصة التى وضعها القرآن وحبذها الرسول والتـى تعبر عن ديناميكية الإسلام وتفاعله. ويعود النقص فى سـد الذريعة إلى أنها استبعدت عامل المقاومة فى نفس المـؤمن، وافترضت استسلامه للأغراء بمجرد تلاقيه فأرادت حمايتـه بأى طريقة، وكأنها أرادت اقتلاع الأعناب حتى لا يعصرها الإنسان خمراً... واحتباس النساء فى البيوت حتى لا يفـتن بهن الرجال حتى وإن كان هناك أمر صريح من الرسول "لا

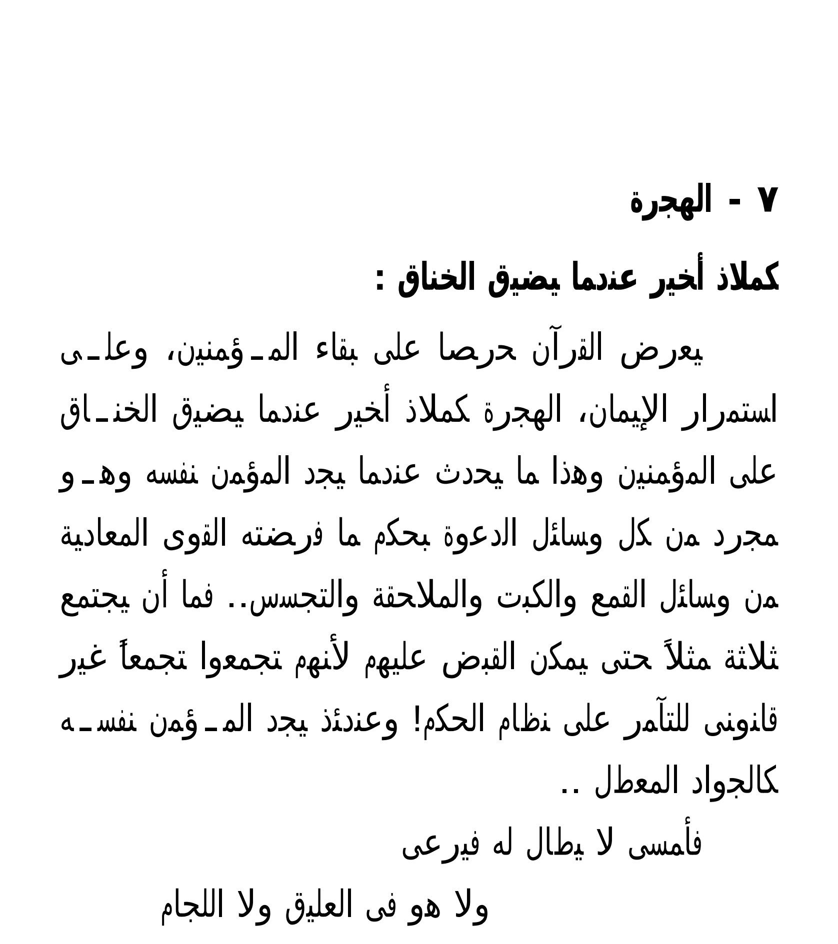
تمنعوا إماء ا   مساجد ا " فقد قالوا لو شاهد رسول ا   مـا فعلت النساء لما أباح لهن الخروج ولأمر بالقرار فى البيوت. وهو افتيات صريح على الرسول ..

القرآن الكريم يعرف أن المحارب شاكى السلاح الذى يحرص كل الحرص أن لا يهزم فى موقعة فاصلة، قد يساقط منه ما يخفف عنه ويجعله أكفأ فى القتال، ولا يعد هذا نقصاً أو تفريطاً وإنما هو تطبيق لحساب الأولويات، وقـد اعتبـر الرسول خالد بن الوليد كراراً لا فـراراً لانسـحابه الحكـيم بالمسلمين فى موقعة مؤتة ومنحه لقب "سيف ا   المسـلول". ومن هنا أوضح لنا القرآن الكريم أنه يتجاوز عن اللمم، وعن الخطأ للذين أثبتوا صدقاً وعزماً.. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. {١٦ الأحقاف}.. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. {٣٧ الشورى} ..

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ

أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾. {٣٢ النجم} ..

وهذه الآيات توضح أن فارس الجهاد الإسلامى ليس هو المبرء من الخطأ، إن عملية الجهاد لابد وأن تثخنه بالجراح. ولابد أنه وهو يتقدم ويهاجم أن يعثر مرة أو مرتين. دون أن يؤثر هذا على مسيرته، أو ينال من روحه، وهو يعلم أن عليه أن لا يبدد جهده فى الصغائر، وأن يدخرها للمعركة الكبيرة ..



٧ - الهجرة

كملاذ أخير عندما يضيق الخناق :

يعرض القرآن حرصا على بقاء المؤمنين، وعلى استمرار الإيمان، الهجرة كملاذ أخير عندما يضيق الخناق على المؤمنين وهذا ما يحدث عندما يجد المؤمن نفسه وهو مجرد من كل وسائل الدعوة بحكم ما فرضته القوى المعادية من وسائل القمع والكبت والملاحقة والتجسس.. فما أن يجتمع ثلاثة مثلاً حتى يمكن القبض عليهم لأنهم تجمعوا تجمعاً غير قانونى للتآمر على نظام الحكم! وعندئذ يجد المؤمن نفسه كالجواد المعطل ..

فأمسى لا يطال له فيرعى

ولا هو فى العليق ولا اللجام

فليس هو فى السجن والمعتقل يعذب ويقابل ذلك بالصبر والثبات، وليس هو بالطليق الذى يستطيع أن يقوم بالدعوة لمقتضيات إيمانه كتطبيق قيم الشريعة من عدل وحرية ومساواة أو ممارسة لأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. إزاء هذا الحصار الذى يحول دون ممارسة أدنى درجات الجهاد، شرع القرآن للمؤمن الهجرة كمبدأ فقال :

- ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. {٩٧ النساء} ..
- ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. {١٠٠ النساء} ..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. {٧٢ الأنفال} ..

وطبق الرسول هذا المبدأ ثلاث مرات علـى الأقـل. فأمر فريقاً من المؤمنين بالهجرة إلى الحبشة "فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد.." ثم دفع بفريق آخر إلى الهجـرة للحبشـة نفسها، وأخيراً هاجر هو وأبو بكر إلـى المدينـة. وتقـاطر المسلمون للهجرة إلى المدينة بعد ذلك بحيث أصـبح تعبيـر "المهاجرين" يماثل تعبير "الأنصار" أى أنهم أصـبحوا كتلـة المؤمنين من الفترة من هجرة الرسول حتى فتح مكة عنـدما أعلن الرسول أن ليس هناك حاجة للهجـرة بعـد الفـتح "لا

هجرة بعد الفتح" ولكن جهاد ونية" وتواترت الآيات فى مديح المهاجرين وسجلت لهم الرضا والتوبة والغفران ..

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . {٢١٨ البقرة} ..
- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾. {١٩٥ آل عمران} ..
- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ

بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. {٧٥ الأنفال} ..

- ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. {١٠٠ التوبة} ..
- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. {١١٧ التوبة} ..

وقد كانت هجرة الرسول فتحاً مبيناً وحدثاً فى تـاريخ الإسلام استحق أن يبدأ به تاريخه. كما أن هجرة كثير مـن الأفراد أو المجموعات إلى دول قريبة أو بعيدة كـان إيـذاناً بدخول الإسلام إليها. وهكذا فإن الهجرة لم تحرر المهاجرين من أسر حكامهم الظلمة الذين حالوا بينهم وبين حرية العبادة. بل إنها أيضاً جعلت هؤلاء المهاجرين سادة فى بلاد جديـدة ومكنهم من نشر الإسلام فيها بل لقد توجد هجـرة للـدعوة، وليس للمهاجرين. وقد هاجرت دعوة الإسلام إلـى المدينـة ففتحتها قبل أن يهاجر المسلمون إليها .

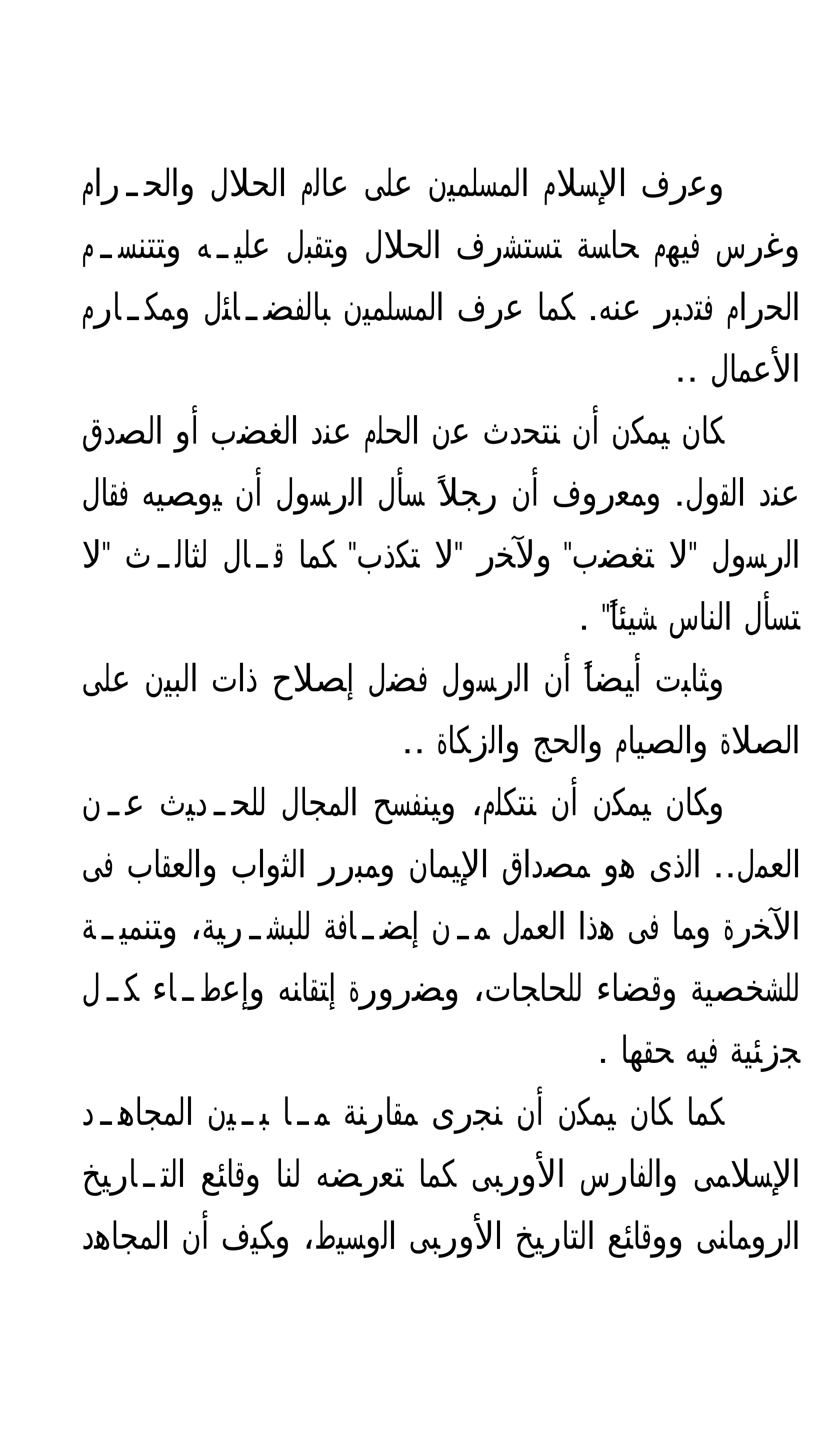
وبالطبع فإن للهجرة مشاقها فهى تعنى التخلـى عـن البيوت والسكن والمتاع والعتاد وما يملكونه من أراضـى أو

عقارات.. ثم العيش تحت سماوات جديدة وفوق أرض جديدة قد يختلف مناخها وناسها، بل قد لا يتحدثون العربية. ويكون عليهم التأقلم معها وقد يتعرضون لمقاومة مجموعات معينـة ويكون عليهم أن يكافحوا ويكدوا حتى تثبت أقدامهم. والحـق أن هذه المشاق كانت من الأسرار التى جعلت القرآن يمتـدح المهاجرين، ويقدر تضحياتهم، ويكفل لهم أعظم الثواب .

وأسلوب الهجرة يوضح أن الجهاد فى الإسلام جهـاد متفتح ليس مغلقاً وأنه إذا أعتمد على الإرادة والـتحكم فـى النفس، فإنه يستخدم العقل للبحث عن الوسائل التـى تمكـن المسلم من ممارسه جهاده عندما يضيق عليه الخناق فى بلاده فالجهاد الإسلامى لا يقف فى سبيله شىء، وهو يتوصل إلى الوسائل التى يغلب بها كل المعوقات والمثبطات .

* * *

ليس هذا هو كل دستور الجهاد الإسلامى. لقد تحـدث الرسول ﷺ عن الإيمان كبضع وسبعين شعبة أعلاها لا إلـه إلا ا   وأدناها إماطة الأذى من الطريق. وفيما بـين هـذين مجال أى مجال، وفسحة أى فسحة .



وعرف الإسلام المسلمين على عالم الحلال والحـرام وغرس فيهم حاسة تستشرف الحلال وتقبل عليـه وتتنسـم الحرام فتدبر عنه. كما عرف المسلمين بالفضـائل ومكـارم الأعمال ..

كان يمكن أن نتحدث عن الحلم عند الغضب أو الصدق عند القول. ومعروف أن رجلاً سأل الرسول أن يوصيه فقال الرسول "لا تغضب" ولآخر "لا تكذب" كما قـال لثالـث "لا تسأل الناس شيئاً" .

وثابت أيضاً أن الرسول فضل إصلاح ذات البين على الصلاة والصيام والحج والزكاة ..

وكان يمكن أن نتكلم، وينفسح المجال للحـديث عـن العمل.. الذى هو مصداق الإيمان ومبرر الثواب والعقاب فى الآخرة وما فى هذا العمل مـن إضـافة للبشـرية، وتنميـة للشخصية وقضاء للحاجات، وضرورة إتقانه وإعطـاء كـل جزئية فيه حقها .

كما كان يمكن أن نجرى مقارنة مـا بـين المجاهـد الإسلامى والفارس الأوربى كما تعرضه لنا وقائع التـاريخ الرومانى ووقائع التاريخ الأوربى الوسيط، وكيف أن المجاهد

الإسلامى يجرى معركته مع نفسه التى بين جنبيه أولاً. ثم هو يتجرد من كل صفات الزهو والغرور والاستعلاء التى تغرسها فى نفس الفارس الأوربى عتاده وسلاحه، وهدف فروسيته ..

وقد أجرى التاريخ بالفعل هذه المقارنة عندما جابه مجاهدو الإسلام فرسان كسرى وقيصر. وأثاروا أول الأمر السخرية بأزيائهم الرثة وعتادهم الخفيف، ولكنهم كسبوا الاحترام.. عندما بدأت المعركة وظهر أن سلاح النفس أقوى من أى سلاح آخر يمكن أن يحمى الجسم، ولكنه لا يكفل له الإقدام والاستماتة .

إن المجاهد الإسلامى لا يريد علواً فى الأرض أو استكباراً، ومثله الأعلى هو محمد الذى دخل مكة ساجداً على قتب بعيره، وليس القائد الرومانى الذى يسير فى موكب النصر تتقدمه العربات التى تحمل الغنائم المكدسة والأسرى فى الأصفاد .

* * *

فى مقدمة هذا الكتاب أشرنا إلى اللبس الذى وقع فيه المجتمع الإسلامى ما بين الجهاد والقتال وكيف أن عوامل

عديدة أدت لإعلاء كفة القتال على الجهاد وأشرنا إلى الآثار الوخيمة التى نتجت عن ذلك لأن الجهاد فى حقيقته يمثل منظومة الخلق الإسلامى "وبقدر ما يحسن فهمها وتطبيقها بقدر ما يتقدم المجتمع، وبقدر ما يساء فهمها ويهمل تطبيقها بقدر ما يتخلف المجتمع. ولا يمكن للقتال أن يحل محل الجهاد أو أن يجدى جدواه، وضربنا المثل على ذلك الدولة العثمانية التى كانت قتالاً ليس فيه جهاد ولذلك ذهبت المدافع بما جاءت به السيوف وفقد حكمها كل القيم الإسلامية فتبدد بعد أن حنت على العالم الإسلامى وأدت إلى دماره. كما ضربنا المثل بانتشار التصوف الذى كان فى حقيقة الحال الفرار من المجتمع والعجز عن مجابهة مشاكله إلى مجتمع آخر أسطورى من إبداع أصحابه يمكن أن يجدوا فيه بديلاً يحقق لهم أحلامهم .

وسنشير هنا إلى لبس داخل إطار الجهاد نفسه هو اللبس ما بين الجهاد فى الحياة الدنيا، والجهاد للحياة الآخرة. وما وقر فى نفوس المسلمين من أن الجهاد الحق هو الجهاد ضد الدنيا. وهو التركيز على العبادات. وأن علينا أن نشترى الحياة الآخرة بالدنيا وهذا فهم سقيم أدى إليه

التدهور السريع للمجتمع الإسلامى منذ أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض وما فرضه هذا الحكم الاستبدادى من قيود على حرية الفكر وحرية العمل. بحيث أصبح المجال الوحيد أمام الفقهاء والشيوخ هو مجال العبادات الذى صالوا فيه وجالوا ..

إن هذا الانفصام ما بين الدين والدنيا والعجز عن تحقيق التواءم بينهما هو مأساة الجهاد الإسلامى .

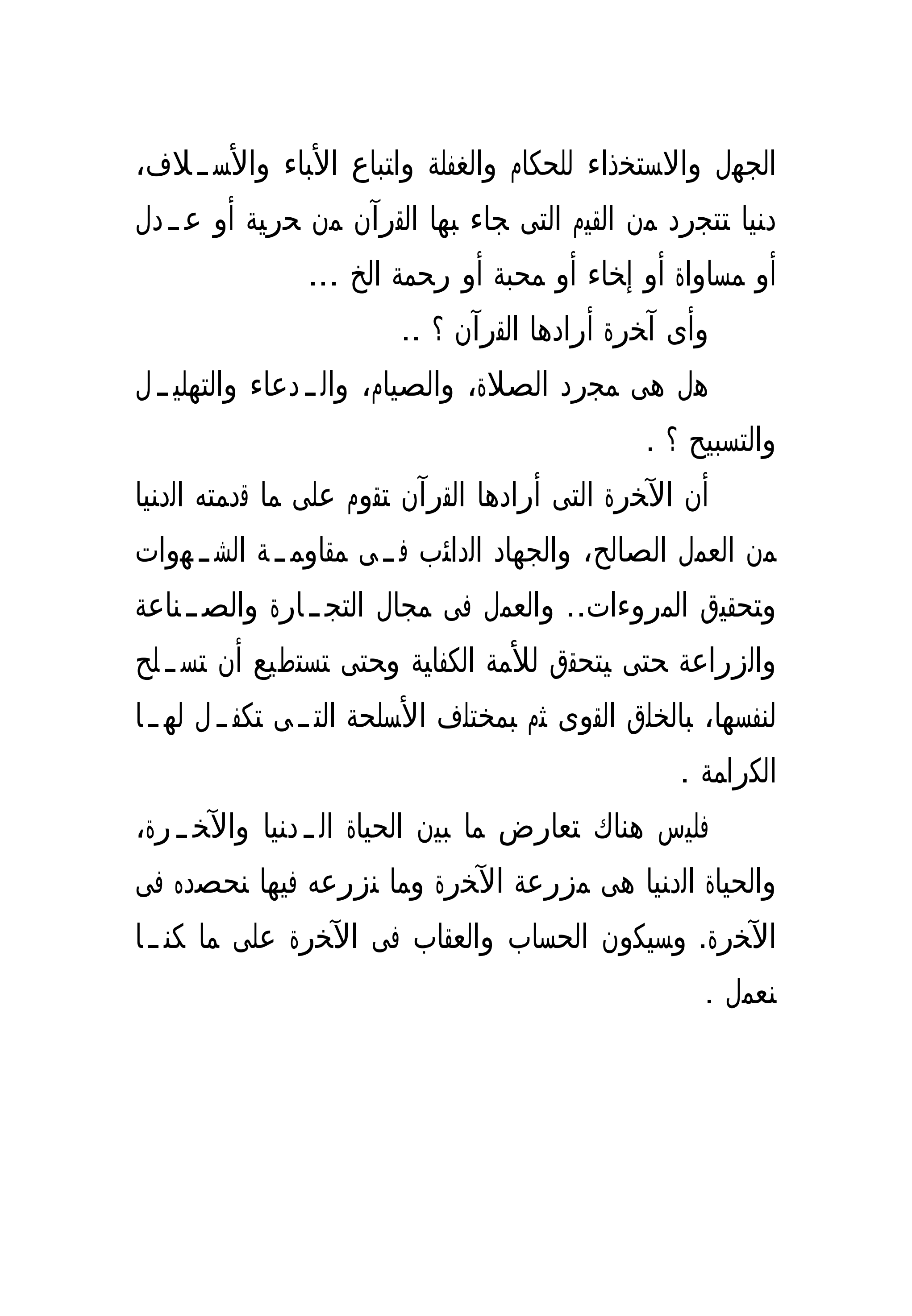
لأن الإسلام وقد أراد أن يكون منهج حياة لا يمكن أن يعادى الحياة الدنيا ..

ولأن الإسلام حتى وإن جعل الحياة الدنيا الوسيلة والحياة الآخرة هى الغاية. فلابد من أن يوجد اتساق ما بين الوسيلة والغاية ولا يمكن أن نطلب غاية شريفة بوسيلة دنيئة .

وحقا أن القرآن الكريم فى آيات عديدة حذر من الدنيا.. وذكرنا بالآخرة.. وذم الأولى وحمد الثانية ..

ولكن أى دنيا ذمها القرآن ؟ .

إنها دنيا الأثرة. والأنانية، دنيا الضعة والخسة. دنيا التهافت على الشهوات والانصراف عن المروءات.. دنيا



الجهل والاستخذاء للحكام والغفلة واتباع الأباء والأسـلاف، دنيا تتجرد من القيم التى جاء بها القرآن من حرية أو عـدل أو مساواة أو إخاء أو محبة أو رحمة الخ ...

وأى آخرة أرادها القرآن ؟ ..

هل هى مجرد الصلاة، والصيام، والـدعاء والتهليـل والتسبيح ؟ .

أن الآخرة التى أرادها القرآن تقوم على ما قدمته الدنيا من العمل الصالح، والجهاد الدائب فـى مقاومـة الشـهوات وتحقيق المروءات.. والعمل فى مجال التجـارة والصـناعة والزراعة حتى يتحقق للأمة الكفاية وحتى تستطيع أن تسـلح لنفسها، بالخلق القوى ثم بمختلف الأسلحة التـى تكفـل لهـا الكرامة .

فليس هناك تعارض ما بين الحياة الـدنيا والآخـرة، والحياة الدنيا هى مزرعة الآخرة وما نزرعه فيها نحصده فى الآخرة. وسيكون الحساب والعقاب فى الآخرة على ما كنـا نعمل .

وقد تقبل القرآن قول من قـال ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ . {٧٧ القصص} ..

وقد صدق كلام الرسول كـلام ا . فعنـدما أعجـب الصحابة بشاب جلد وقالوا لو كان جلده فى سبيل ا صـحح النبى ﷺ لهم هذا المفهوم "لو كان يسعى على أبوين شـيخين فإنه فى سبيل ا أو يسعى على نفسه يعفها فهو فـى سـبيل ا " فسبيل ا ليس مقصوراً على الصلاة والصيام .

وعندما أثنى بعض المؤمنين على أحدهم لأنه يصـوم النهار ويقوم الليل سألهم الرسول فمن يعد حاجته قالوا كلنـا قال كلكم خير منه!! وندد بالذين يزيدون فى العبادة ويزهدون فى طيبات الحياة التى أتاحها ا للناس ونهى الذين ينـذرون الحج مشيا أو يتعرضون للشمس بفكرة أن تحمل عذابها يزيد فى الثواب !! .

والصحابة أنفسهم، الذين كان الرسول بين ظهـرانيهم وهو رسول ا المصطفى ما تركوا أعمالهم ليكونوا بجانبـه بل كانوا يمضون إلى الأسواق للشراء والبيـع أو ممارسـة

الحرف. ولو كان الأمر أمر قربى فحسب لوضعوا أنفسـهم عند قدميه وما تركوه أبداً ...

* * *

للأسف، ولعوامل عديـدة أعتبـر الجهـاد ممارسـة للعبادات الأخروية وليس عملاً وسلوكاً فى المجالات الدنيوية وسار هذا حتى النهاية فوجد الذين يحسنون "الموت فى سبيل ا " ولكنهم لا يستطيعون الحياة فى سبيل ا .. وكان هذا فى حقيقته نهاية للجهاد الدنيوى والاستغراق فى الجهاد الأخرى مما أدى إلى فساد الاثنين معا .

الباب الثانى

القتال فى الإسلام

كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنـورة، إيـذاناً بفتح عهد جديد فى الدعوة الإسلامية. عهد تكون فيه سـيدة بلادها تحكم بالقرآن وتدين للرسول بالطاعـة، وكـان هـذا بالطبع يختلف اختلافاً تاماً عما كان عليه عهد مكة وملاحقة قريش للرسول وحيلولتها ما بينه وبين الناس ليبلغ دعوته ..

واصطحب تغيير البيئة بتغيير وسيلة العمل فبعـد أن كانت فى مكة الجهاد النفسى فإنها أصبحت فى المدينة القتال المسلح لأن الصراع أصبح يقوم بين كيانين كيـان الإيمـان بالمدينة وكيان الكفر بمكة ومثل هذا الصراع يطلـق عليـه الحرب، أو القتال ..

كان الانتقال من الجهاد بصبره، وهجرته، ومقاصـته، إلى القتال بما يعنيه من قوة ورباط الخيـل وسـلاح انتقـالاً طبيعياً. رغم ما فى ذلك من اختلاف، كان مختلفاً عن سابقه ولكن مؤتلفاً مع لاحقه وكان القرشيون أنفسهم هـم الـذين بلغوا به هذا التطور عندما حاكوا مؤامرتهم علـى الرسـول التى كادت أن تتم لولا هجرته .

النقطة الهامة التى فاتت معظم الكتاب الإسلاميين أن هذا الانتقال كان بالدرجة الأولى تطوراً فى المواقف تطلب وسيلة جديدة للدفاع عن مبدأ قديم وهو المحور الذى تدور عليه العقيدة إلا وهو حرية العقيدة، فلم يسن القرآن القتال كمبدأ. إنه سن الجهاد. أما القتال فليس إلا وسيلة تطلبها الدفاع عن المبدأ عندما تطلبت، بل وفرضت الظروف إستخدامه ..

وهذه نقطة هامة لأن القرآن يقدس الحياة، ويقدس حق الفرد فيها. وأن لا تنتزع منه إلا بناء على أسباب محددة وضعها على وجه التعيين. وإذا كان ا تعالى قد كتب فى أحد كتبه المقدسة.. ﴿أنه من قَتَلَ نَفْسا بِغَير نَفْسٍ أَو فَسادٍ فِي الأرضِ فَكَأنما قَتَلَ الناس جمِيعا﴾. فإن هذا يؤكد لنا أن الإسلام ليس **سيفاً فى الأصل إنه "كلمة" جاء بها الوحى ليقرأها الناس. وعندما هوجم الإيمان، وهدد المؤمنون. لم يعد مناص من القتال،** حماية له ولهم، وقد حرص القرآن الكريم على إيضاح هذه المعانى وصيانتها .

وكما ذكرنا فى المقدمة، فإن هذا التمحيص قد دق على كثير من الكتاب الإسلاميين الذين أخذوا أحكاماً من آيات

القتال دون أن يتبينوا أن آيات القتال نفسها تعود إلى أصـل أساسى هو حرية العقيدة والنفس. وأن هذا الأصل هو الـذى قاد إلى موقف معين هو تبنى القتال. وهو سبب مشـروعيته وأن هذه المشروعية تفتقد إذا لم تتطلبه حرية العقيدة، أى إذا لم تعد هناك "فتنة" وبالتالى حاجة للقتال .

فالقتال أمر كريه، وقد كان كرها للمؤمنين لأنـه فـى حقيقته ليس إلا سفكاً للدماء وإهداراً للحياة وإصابة الآخـرين بالعاهات من بتر الأيدى والسيقان الخ... ولم يجعل ا تعالى هذه الكره خيراً إلا عندما يتعلق الأمر بحماية حرية الضمير والنفس. فهذا وحده، هو الذى يعطـى المشـروعية للقتـال ويبرره، بل ويجعله خيراً لأن الاستسلام للحكـم الظـالم لا يعنى إلا مزيداً من الظلم والإذلال. ومن هنا كانت مقاومتـه ولو بالقتال أفضل من الاستسلام له. بدليل أنه ما أن يلقى من يحارب الإسلام السلم ويتخلى عن الحرب حتى يستجيب لـه المسلمون ..

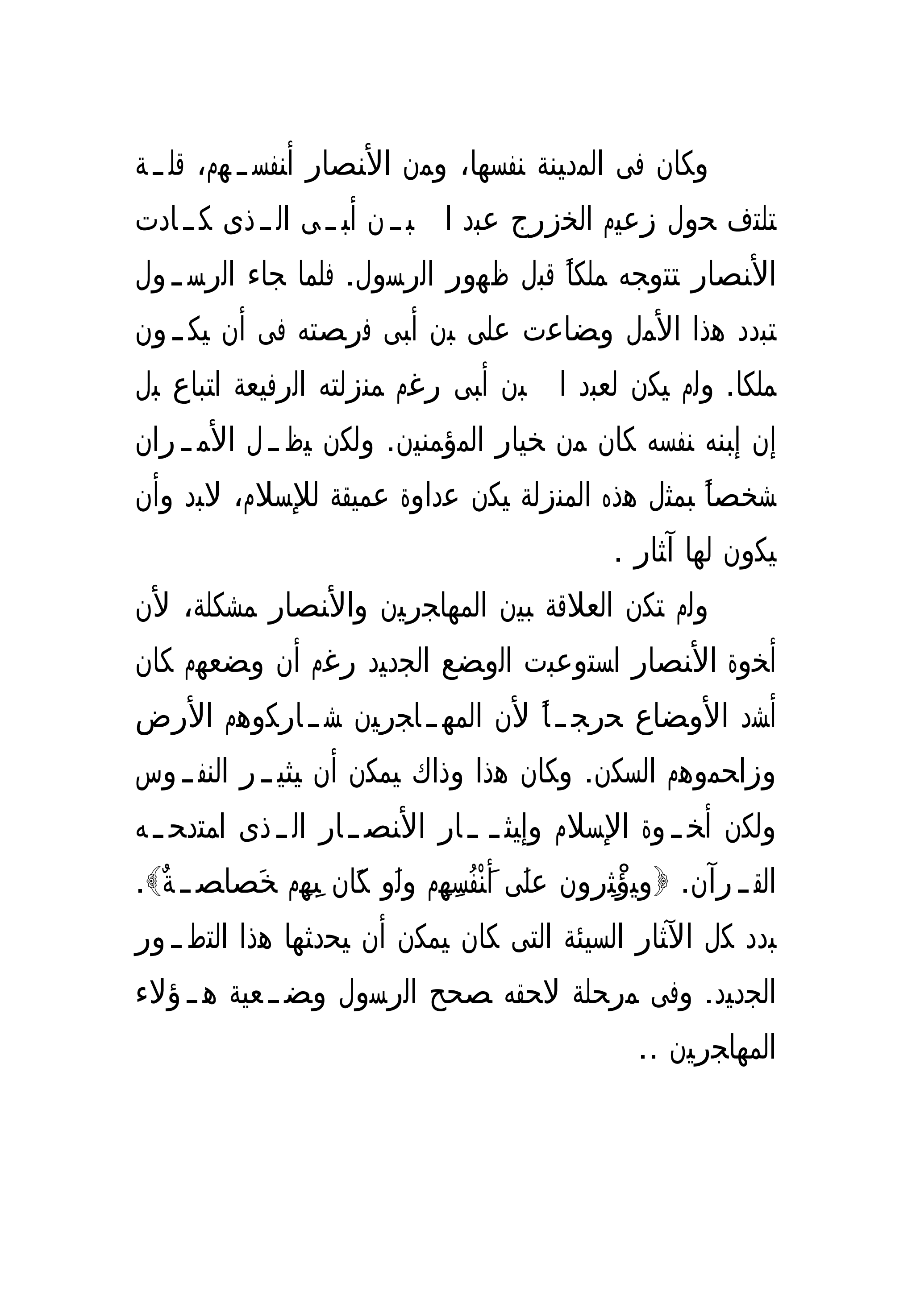
الفصل الثالث
المناخ الذى نزلت فيه
آيات القتال

لا يمكن فهم آيات القتال، ولا الشكل الذى أخذته إلا بالتعرف على المناخ الذى صدرت عنه – وبسببه – هذه الآيات. إن النقلة من مكة إلى المدينة لم تكن نقلة من مكان إلى مكان ولكنها كانت نقلة إلى مجتمع جديد له صفات وخصائص تختلف كل الاختلاف عن مجتمع قريش .

لقد آمن الأنصار أعمق الإيمان، وأسلموا إلى الرسول ﷺ الأمر كله ليحكمهم بالإسلام، ولم يكن هناك أدنى شك فى إخلاص الأنصار ولا حكمة وموضوعية وكمال القيادة النبوية المعززة بالوحى. ولكن القضية لم تكن بهذه البساطة. فلم تكن النقلة قطيعة بين عهد مدنى وعهد مكى، ولكنها كانت تطوراً فى ميزان القوى. من عهد مكى لا يزال موجوداً إلى عهد مدنى بدأ فى الظهور. لأن المشركين أى أهل مكة – تملكهم الغيظ عندما استطاع النبى أن يفلت من قبضتهم وأن يهاجر ليجد أنصاراً يحمونه ويضعون سيوفهم فى خدمته وطوع أمره. ومن ثم عقد المشركون العزم على ملاحقته قبل

أن يستغلظ أمره.. ورأوا أن من الضرورى إصلاح خطأهم عندما أفلت منهم إلى المدينة خاصة وأن المدينة يمكن أن تهاجم قوافلهم التجارية التى كانت عماد حياتهم .

وكان فى المدينة نفسها جالية قوية من اليهود استوطنوها منذ عهد طويل وأقاموا بها الآطام أى الحصون وسيطروا على التجارة والحرف فيها. ~~ومع أن الرسول حاول~~ أن يسترضى هؤلاء اليهود **فعقد فى الأيام الأولى لدخوله المدينة اتفاقاً يعطيهم حق المواطنة، ويجعلهم مع المسلمين "أمة واحدة لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"** إلا أنهم نقموا أن لم يكن هذا النبى العظيم منهم، وأن يخرج إطار النبوة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل. فضلاً عن أن الأخوة الإسلامية الوثيقة بين الأنصار قضت على سياسة "فرق تسد" التى كان اليهود يتبعونها ما بين الأوس والخزرج ويحولون بذلك دون اتحادهم. ومن ثم فقد وقف هذا المعسكر موقف المتربص الذى إذا بدت له فرصة القتال قاتل. وإذا لم يجد لاذ بوسائل من النفاق وإدعاء الحيلة، أو نصب المكائد ودس الدسائس .



وكان فى المدينة نفسها، ومن الأنصار أنفسهم، قلة تلتف حول زعيم الخزرج عبد ا بن أبى الذى كادت الأنصار تتوجه ملكاً قبل ظهور الرسول. فلما جاء الرسول تبدد هذا الأمل وضاعت على بن أبى فرصته فى أن يكون ملكا. ولم يكن لعبد ا بن أبى رغم منزلته الرفيعة اتباع بل إن إبنه نفسه كان من خيار المؤمنين. ولكن يظل الأمران شخصاً بمثل هذه المنزلة يكن عداوة عميقة للإسلام، لابد وأن يكون لها آثار .

ولم تكن العلاقة بين المهاجرين والأنصار مشكلة، لأن أخوة الأنصار استوعبت الوضع الجديد رغم أن وضعهم كان أشد الأوضاع حرجاً لأن المهاجرين شاركوهم الأرض وزاحموهم السكن. وكان هذا وذاك يمكن أن يثير النفوس ولكن أخوة الإسلام وإيثار الأنصار الذى امتدحه القرآن. ﴿ويؤْثرون علَى أَنْفُسِهم ولَو كَان بِهم خَصاصةٌ﴾. بدد كل الآثار السيئة التى كان يمكن أن يحدثها هذا التطور الجديد. وفى مرحلة لاحقه صحح الرسول وضعية هؤلاء المهاجرين ..

مناخ المدينة إذن، رغم حماسـة الأنصـار، وإيمـان المهاجرين. لم يكن صفواً خالصاً. لقد كان فيها أعداء يكتمون عداوتهم ومنافقون يخفون طويتهم.. بينما كـان المشـركون يعدون العدة لمعركة لابد وأن تقع قربت أو بعدت ..

فإذا كان مناخ مكة قد أفرز "دستور الجهاد" فى مقابلة الاضطهاد. بكل مفرداته التى أشرنا إليها فى الفصـل الأول، فإن مناخ المدينة كان لابد وأن يفرز القتال لأنه عندما ينشـأ صراع بين قوتين متميزتين يكاد يكون كل منهما "دولة" فإن هذا الصراع يأخذ اسم القتال أو الحرب ..

وفى الحقيقة كانت القضية أكبر من هذا بكثير ..

فلم تكن الهجرة إلا الخطوة الأولى على طريق "ثـورة الإسلام" فالإسلام لم يكن دين كهانة كبقية أديان العرب إنـه كان الثورة العربية الكبرى التى تحل "الأمة" محـل القبيلـة، والشريعة محل التقاليد. وا محل الأوثـان. ولعـل قـريش تذكرت كيف رفض محمد الملك والرآسة عنـدما عرضـتها قريش عليه، فلو كان الأمر أمر رئاسة لقبل محمد وأختصـر الطريق، ولكن كانت إرادة ا سابقه أن يجمع محمد العرب فى أمة واحدة تحمل رسالة الإسلام إلى العالم، وكـان لابـد

لذلك من حروب تصهر وتذيب العصبية القبلية فى أخوة الإسلام ومواطنة الأمة. بل لقد ظهر أن هذه الحرب كان لابد أن تستمر عندما تصورت بعض القبائل العربية بعد وفاة الرسول أنها تستطيع أن تنشق وترتد إلى النظام القبلى، وكان على أبى بكر أن يقوم بما قام به "لنكولن" بالنسبة للأمة الأمريكية بعده بألف عام – الحفاظ على وحدة الأمة ولو بالسيف .

وهكذا جوبه الإسلام بضرورة وحتمية القتال فلم يكن المشركون ليتركونه، ولم يكن اليهود ليقلعوا عن دس الدسائس وتأليب الأعداء الخ... ولم تكن المجموعة القليلة من "الأعراب" أو اتباع بن أبى الذين أطلق عليهم القرآن الكريم "المنافقين" ليتركوا الإسلام فى سلام وما كان المسلمون بالذين يتراجعون عن دورهم التاريخى والحضارى الكبير .

كان لابد من الصدام بين أوضاع تقليدية قديمة فاسدة، وأوضاع جديدة ناهضة. كان اللقاء ما بين الإسلام والوثنية هو أول حلقة فى "صراع الحضارات" إذا أصبنا التعبير .

* * *

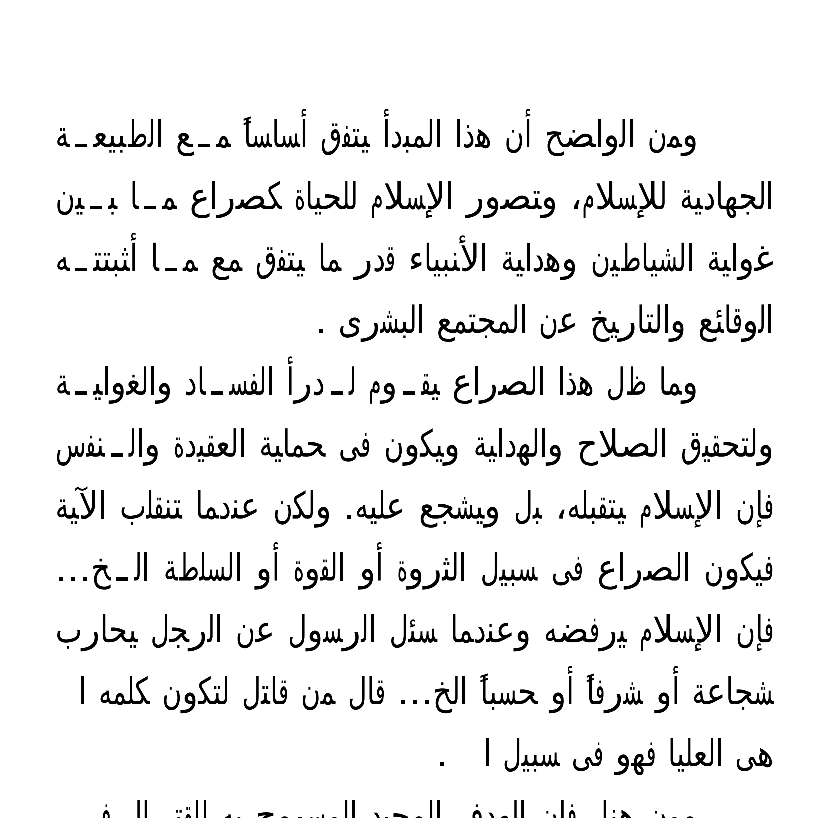
هكذا جوبه الإسلام بموقف جديد هو القتال فكان عليه أن يعلن تصوره له ..

فى آيات عديدة أوضح القرآن أن "دفع الناس بعضهم ببعض" وهو التعبير الذى كنى به القرآن عن القتال هو أحد الضرورات التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى. لأن هذا الدفع هو الذى يحول دون استئثار أو تحكم فرد أو فريق فى الأمر إذا لم يجد من يدفعه. ومن ثم فإنه مبدأ أصولى من مبادئ الاجتماع الإنسانى. وقد جاء التعبير عن ذلك مع صدور الإذن بالقتال الدفاعى فى آيات سورة الحج ٣٩ – ٤٠ .

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾. ثم جاءت آية البقرة تؤكد هذا المعنى .

وكذلك ...

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . {٢٥١ البقرة} ..



ومن الواضح أن هذا المبدأ يتفق أساساً مـع الطبيعـة الجهادية للإسلام، وتصور الإسلام للحياة كصراع مـا بـين غواية الشياطين وهداية الأنبياء قدر ما يتفق مع مـا أثبتتـه الوقائع والتاريخ عن المجتمع البشرى .

وما ظل هذا الصراع يقـوم لـدرأ الفسـاد والغوايـة ولتحقيق الصلاح والهداية ويكون فى حماية العقيدة والـنفس فإن الإسلام يتقبله، بل ويشجع عليه. ولكن عندما تنقلب الآية فيكون الصراع فى سبيل الثروة أو القوة أو السلطة الـخ... فإن الإسلام يرفضه وعندما سئل الرسول عن الرجل يحارب شجاعة أو شرفاً أو حسباً الخ... قال من قاتل لتكون كلمه ا هى العليا فهو فى سبيل ا .

ومن هنا، فإن الهدف الوحيد المسموح به للقتـال فـى الإسلام هو الدفاع عن العقيدة أو عن النفس أو عـن المـلك المشروع. أى أنها فى جميع الحالات حرباً دفاعية وفى غير هذه الحالات فإن الحياة الإنسانية مقدسة ولا يجوز المسـاس بها .

هذا بالنسبة لغاية الحرب والهدف منها أما عن الوسيلة التى تتخذها الحرب فقد وضع الإسلام توجيهين الأول تطلبته

طبيعة القتال. وهو أن الحرب جد خالص لا يصـلح معهـا التراخى، أو التخاذل، أو التهاون، أو الميوعة لأن أى تخاذل يعنى الهزيمة، أى العار وفقد الشرف والكرامة.. ثم الـنفس أيضاً ..

من هنا جاءت توجيهات القرآن صارمة. فهو يستحث المسلمين للقتال، ويرفع معنوياتهم، ويوحى ببذل غاية الجهد وأن "يثخنوا" فى العدو.. لأن نتائج الاستهانة لا تقتصر على الهزيمة، ولكنها يمكن أن تؤدى إلى زيادة سفك الـدماء أمـا الشدة من البداية، فإنها تضمن نهاية سريعة وتكـون أكثـر رحمة. بل يرى القرآن الكريم أن إعداد العدة بصورة جادة قوية ومؤثرة يمكن أن يصرف العدو عن الاعتداء وهذا هـو "الإرهاب" الحميد الذى يحول دون نشوب اللقاء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

وهذا التوجيه هو سر الشدة التى نلمسها فى الكثير من آيات القتال، وأى خبير فى الحرب والقتال إذا لم يحمدها فإنه يرى أنها ضرورية ولا مناص عنها وسنشير عند استعراضنا الآيات إلى بعض ملابسات ذلك .

أما التوجيه الثانى فهو أنه جعل أسـوأ حالاتـه هـو المعاملة بالمثل بحيث لا يجوز استخدام وسيلة أكثر سوء مما يستخدمها العدو. وهذا الحد الأدنى يرفقه الإسلام بما يرفـع مستواه وما يجعله متفقاً مع القيم الإسلامية، فلا يجوز تدمير أو تحريق أراضى وممتلكات ولا يجوز اقـتلاع أشـجار أو الاستحواز على محاصيل أو أقوات إلا بالثمن وما أن تضـع الحرب أوزارها ويقاد الأسرى إلـى محبسـهم حتـى يـتم التصرف فيهم على أساس **المن أو الفداء.** وهذا ما لم يكـن يحلم به المهزومون أمام الجيوش الرومانيـة الـذين كـانوا يعلمون أن النخاسين وتجار الرقيق يسيرون بصحبة الجـيش لشراء الأسرى واسترقاقهم .

وقد بينت وصية الرسول  للجيوش المحاربة، وكذلك وصية أبى بكر وعمر أن على هذه الجيـوش أن لا تقـرب النساء أو الأطفـال أو الشـيوخ، أو الرهبـان أو الأدبـار والكنائس، وأنه لا يجوز لهم أن يضعوا أيديهم على أى شىء إلا بالثمن وأن لا يذبحوا شيئاً إلا لمأكله .

كذلك مما يتعلق مـع توجيهـات القـرآن أن يتقبـل المسلمون كل بادره للسلام ﴿وإن جنَحوا لِلسلْمِ فَـاجنَح لَهـا وتَوكلْ علَى اللهِ﴾ .

قد يجوز لنا أن نقدم إضافة فيما يتعلق بعرض "السلم" أو إبداء بادرة صلح. لأنها تبرز مـا ترسـب فـى نفـوس المؤمنين بفضل القرآن وما اقتضاه من ضـرورة الالتـزام بإيقاف الحرب لدى أى بادرة للصلح أو السلم من الآخـرين، فقد أرسل أحد الموالى إلى أهل حصن يحاصره المسـلمون بالأمان. وفتح المحاصرون أبواب حصنهم بناء علـى هـذا. ورفض قائد الجيش الالتزام بما حرره المولى. ولكنه كتـب إلى أمير المؤمنين، فأخبره بأن يمضيه "**لأن المسلمين عدول يسعى بذمتهم أدناهم**" وكذلك ما روى عن تمرد قام به بعض سكان قبرص فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد ا بن عباس فكتب هذا إلى لفيف من التابعين يستفتيهم فـى نقض عهدهم أمانتهم فرد الليث بن سـعد أن لا يسـرع لأن أمان أهل قبرص كان ساريا لمدة طويلة وما من أحـد مـن الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم من بلادهم وأنـا أرى أن لا تعجل بنقص عهدهم ومنابذتهم حتى تتم الحجة عليهم.. وكتب

موسى بن أعين وإسماعيل بن عياش بهذا المعنـى وأفتـى معظمهم بحفظ العهد ونصحوا الحاكم بالتريث[٦] .

* * *

كان الإسلام ثورة أعمق من الثورة الفرنسية والثـورة الشيوعية وكانت مقومات الثورات فيه على أمثلهـا فهنـاك النظرية أو بمعنى أدق العقيدة التى تختلف أو حتى تضاد مـا كان سائداً من عقائد.. وهناك مشاركة كاملـة وفعالـة مـن الجماهير وهناك إرادة قوية لا يقفها الموت نفسـه للتغييـر. وكانت الثمرة التى حققتها ثورة الإسلام أبعد مدى مما حققته الثورتان الفرنسية والبلشفية لأن ثورة الإسلام خلقـت مـن القبائل العربية المتنازعة التى كانت تفخر بسـبق جـواد أو قرابة نسب أو كسب رهان وقمار... إلى أمة متماسكة تحمل الكتاب والميزان إلى من حولها مـن حضـارات كسـروية وقيصرية، ونظم طبقيـة تقـوم علـى اسـتعباد الجمـاهير وتسخيرها ..

ومع هذا ...

---

(١) استشهد بها فى كتاب حقوق الإنسان للدكتور محمد فتحى عثمان .

لم تعرف ثورة الإسلام مشاهد "الحيلوتين" ولا النسـاء اللاتى جئن خاصة ليتسـلين بمشـاهد الإعـدام، ولا عهـد الإرهاب. ولا وسائل التخاص من المعارضين ولو بإغراقهم. ولم تشهد شيئاً من ويلات وفظائع الثورة البلشفية ولا إبـادة كل الطبقة الحاكمة وأولادهم ونسائهم وخـدمهم ولا عشـرة ملايين من صغار الملاك الذين رفضوا تسليم أرضهم لأنهـا مصدر قوتهم وعيشهم فأخذت منهم عنوة، كما أخذ كـل مـا لديهم من محاصيل وتركوا ليموتوا جوعاً وبرداً وقيل عـنهم "كولاك" أى ملاك الخ... إن شيئاً من هذا لم يحدث فى ثورة الإسلام ولا يجاوز قتلى الحروب فى عهد الرسول سواء من العرب المسلمين أو المشركين ألف نفـس. كـان يمكـن أن يضحى بها فى أحد أحياء باريس أو موسكو.. أيـام الثـورة الفرنسية أو البلشفية دون أن يعلم بهم أحد ..

إن الثمن الذى دفعته ثورة الإسلام من دماء أنصارها أو دماء أعداءها لم يكن إلا جزءاً ضئيلاً لا يكاد يعتد به مما سفك من دماء فى الثورتين. وما ارتكب من فظـائع. ومـا خلفتاه من دمار .

لو جاز أن تقوم ثورة دون دماء لكانـت هـى ثـورة الإسلام. ولكن تأبى أوضاع المجتمع، ويـأبى تمسـك ذوى المصالح المكتسبة، والمتوارثة من العهود القديمة أن يتنازلوا عنها. ومن ثم تحتم القتال. وقد تم هذا بأقل قدر يتصور فـى ثورة الإسلام عهد الرسول .

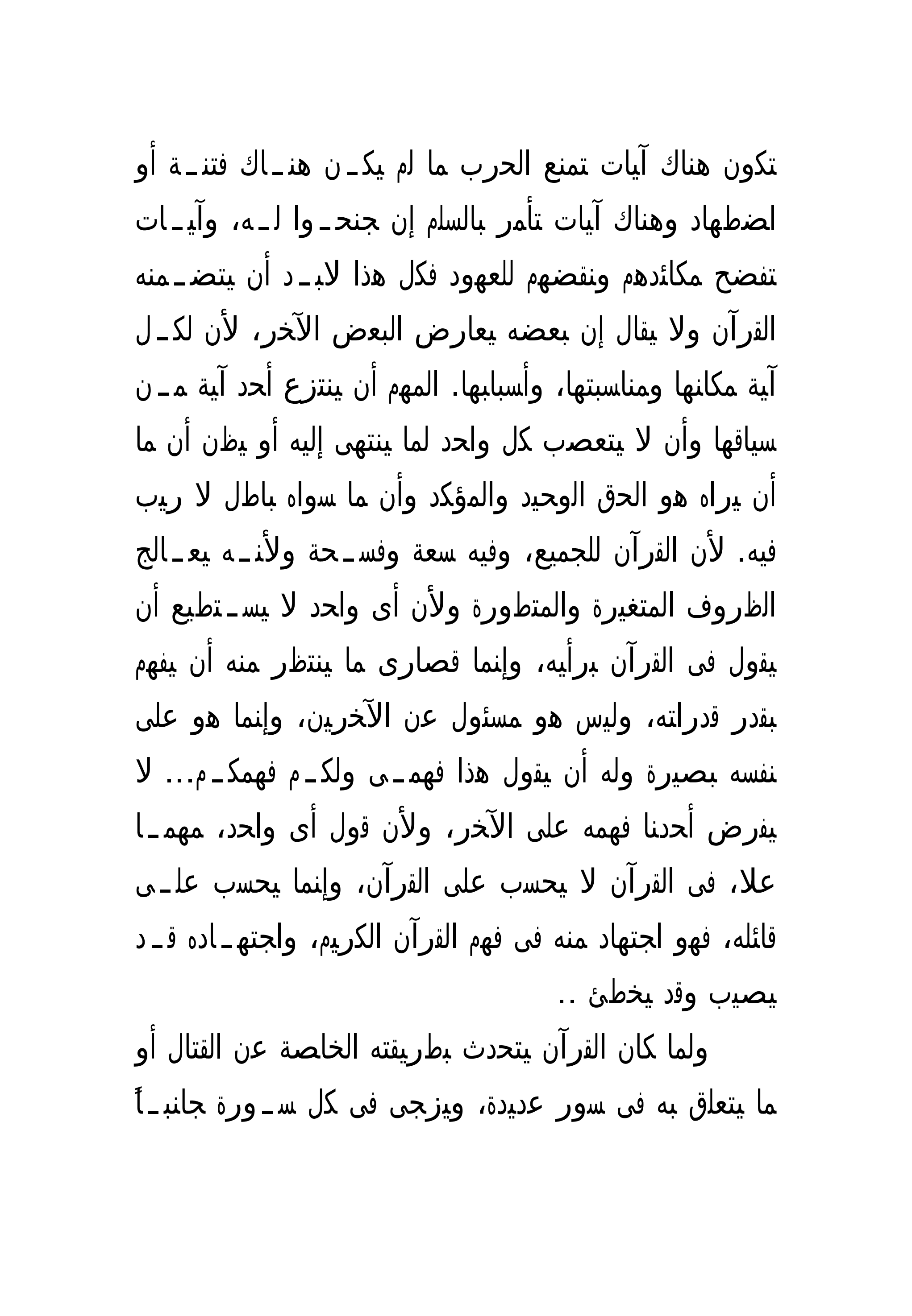
* * *

هناك موقف ثالث لم نتحدث عنه فيمـا سـبق وهـو الموقف من الآخرين. الذين لا يحاربون الإسلام والمسلمين، ولم يضطهدوهم أو يخرجوهم من ديارهم وهؤلاء تحكمهـم الآية ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ . {٨ الممتحنة} ..

* * *

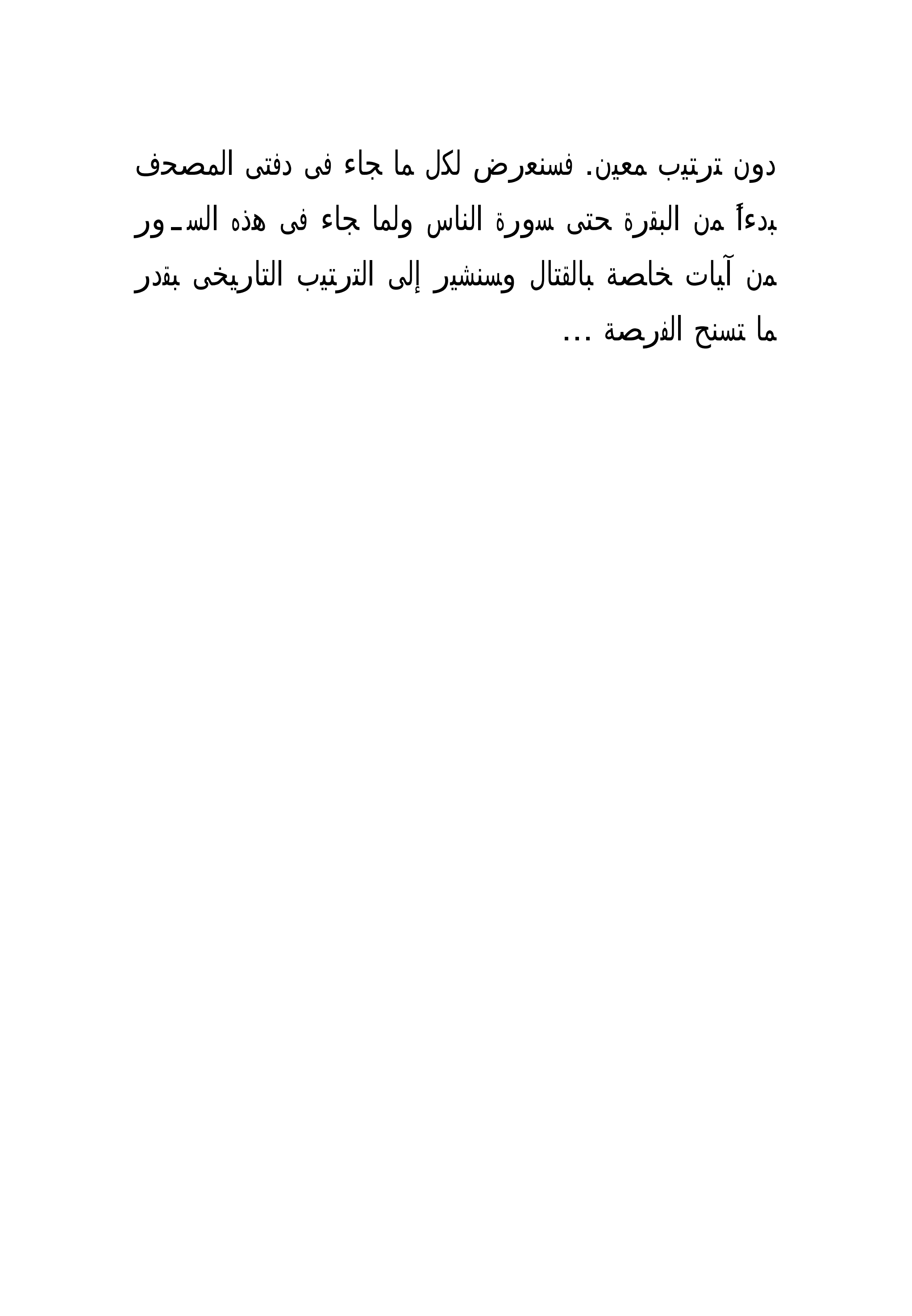
هذا هو ما قاله القرآن الكريم عن "القتال" وحتى يطمئن القارئ فسنضع تحت أنظاره كل ما جاء عن هذا الموضـوع خاصاً بغايته، ووسيلته والموقف من الآخرين لـيلم القـارئ بوجهه نظر القرآن كاملة عن هذا الموضوع. ولو اتسع لنـا المجال لكان يجب أن نعرض وجهة نظر القرآن عن مجالات أخرى قد لا تتصل بطريقة مباشرة بالقتال – ولكنها تتصـل

بطريقة غير مباشرة مثل قبول الإسـلام للتعدديـة وإرجـاء الاختلافات ما بين العقائد إلى ا تعالى ليفصل فيهـا يـوم القيامة. والتركيز على العدل الذى لا يجوز لشـنأن قـوم أن يحملهم على أن لا يعدلوا الخ... لأن من يريد أن يجزم برأى القرآن فى موضوع لا يجوز له أن يقتنص آية أو آيتين عن هذا الموضوع، بل قد لا يكتفى أن يأتى بكل الآيات عن هذا الموضوع لأن من المحتمل أن يوجد فى القرآن الكريم آيات أخرى تختلف فى طبيعتها ومعناها عن الآيات التى أوردهـا فى موضوعه ويكون من الضرورى الإلمام بها، ويكون لـه أن يأخذ بآيات معينة دون آيات أخـرى وأن اختلفـت فـى معناها عن الأولى لأنها فيما يرى الأفضل لا علـى سـبيل النسخ المزعوم لأننا لا نؤمن أن فى القرآن الكـريم ناسـخاً ومنسوخاً، ولكن فى القرآن بدائل وسِعه وفسـحه وتعدديـة بحيث يتجاوب القرآن مع التطورات المختلفة ومـع الافهـام المتفاوتة، ولا يكون هناك حرج على من يمسك بآيـة رغـم وجود آية أخرى مختلفة، لأن كل آية تمثل بعداً، أو جانباً من الحقيقة المتعددة الأطراف والأبعاد. فلابد أن تكـون هنـاك آيات تأمر بالقتال عندما يقاتل المشركون المؤمنين ولابـد أن



تكون هناك آيات تمنع الحرب ما لم يكـن هنـاك فتنـة أو اضطهاد وهناك آيات تأمر بالسلم إن جنحـوا لـه، وآيـات تفضح مكائدهم ونقضهم للعهود فكل هذا لابـد أن يتضـمنه القرآن ولا يقال إن بعضه يعارض البعض الآخر، لأن لكـل آية مكانها ومناسبتها، وأسبابها. المهم أن ينتزع أحد آية مـن سياقها وأن لا يتعصب كل واحد لما ينتهى إليه أو يظن أن ما أن يراه هو الحق الوحيد والمؤكد وأن ما سواه باطل لا ريب فيه. لأن القرآن للجميع، وفيه سعة وفسـحة ولأنـه يعـالج الظروف المتغيرة والمتطورة ولأن أى واحد لا يسـتطيع أن يقول فى القرآن برأيه، وإنما قصارى ما ينتظر منه أن يفهم بقدر قدراته، وليس هو مسئول عن الآخرين، وإنما هو على نفسه بصيرة وله أن يقول هذا فهمـى ولكـم فهمكـم... لا يفرض أحدنا فهمه على الآخر، ولأن قول أى واحد، مهمـا علا، فى القرآن لا يحسب على القرآن، وإنما يحسب علـى قائله، فهو اجتهاد منه فى فهم القرآن الكريم، واجتهـاده قـد يصيب وقد يخطئ ..

ولما كان القرآن يتحدث بطريقته الخاصة عن القتال أو ما يتعلق به فى سور عديدة، ويزجى فى كل سـورة جانبـاً



دون ترتيب معين. فسنعرض لكل ما جاء فى دفتى المصحف بدءاً من البقرة حتى سورة الناس ولما جاء فى هذه السـور من آيات خاصة بالقتال وسنشير إلى الترتيب التاريخى بقدر ما تسنح الفرصة ...

الفصل الرابع

آيات القتال فى القرآن الكريم

سنسير مع القرآن الكريم آية فآية لنبرز الآيات التـى جاءت عن القتال من سورة البقرة حتى سورة الناس والهدف من هذا أن يأخذ القارئ الفكرة الكاملة لكل ما جاء فى القرآن عن هذا الموضوع فتتكامل الصورة فى ذهنه. وهذه طريقـة تختلف كل الاختلاف عن الاتكاء على آيـة منزوعـة مـن سياقها ..

ومع أن قارئ ما جاء فى هذا الفصل سيلم بالطبع بكل ما جاء فى القرآن الكريم عن القتال وتتوفر لـه الصـورة الكلية عنه، إلا أننا بعد هذا كله نقول إننا لا يمكن أن نأخـذ الصورة الكلية تماماً إلا فى مضمون القرآن كله. فرغم كثرة الآيات، وصرامة بعضها. وسماحة البعض الآخر وهو أمـر أشرنا إلى مقتضياته من قبل – فإن الأغلبية الساحقة من آيات القرآن توجه الإنسان تعالى ولمثوبته ورحمتـه – وهـى تنضح بالحكمة والقيم وعمل الخير وتجنـب الشـر. وهـى تحض على العفو والصفح ومكارم الأخلاق، وهى تعيد الأمر

كله إلى ا يوم القيامة. فوضع آيات القتال وسط بقية الآيات يحكمها سياقه، وتأخذ منه مكانها وتظهر الطبيعة الاسـتثنائية لها وسط الطبيعة الإيمانية القلبية، وعـالم الخيـر والسـلام والعدل الذى تتوخاه الآيات، والحكمة والموعظة الحسنة التى أنزلت لهداية الإنسان إلى ا . لأن القـرآن كتـاب هدايـة ومعظم توجيهاته تتركز على هذا، وما آيات القتال إلا معالجة لجانب من جوانب تطور الدعوة اسـتكرهت عليـه أو هـى إحدى ضرورات التعقيد فى المجتمع البشرى .

ولكن هذا، أعنى فهم كل آيات القتال وسط كل آيـات القرآن، لا يتأتى إلا إذا أوردنا القرآن كله، وهو ما لا يسمح به المجال، ولذا لزم التنويه، ويا حبذا لو استصحب القـارئ مع آيات القتال بعض الآيات التى تسبقها وتلحقهـا لأن هـذا يزيد فى فهمه لآيات القتال ..

وقبل أن نتقصى آيات القتال، قد يكون من المفيد أنـه نوجه نظر القارئ إلى القرآن الكـريم يفـرق بـين "قتـل" "وقاتلوا" ليس بحسب بحكم الصياغة اللغوية ولكنه لاخـتلاف الحكم. فإن "يقتل" فرد فرداً آخر فإنه يرتكب أعظم موبقة وقد صور القرآن ذلك بما لا يكون بعده غاية فمن قتل نفساً بغير

نفس وفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعـاً وأوجـب القرآن فى القتل القصاص وأعطى ولى المقتول "سلطاناً" أما إذا حدث خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهلـه. وهـذه الآيات توضح قداسة الحياة الإنسانية. وأنه لا يجوز مطلقـاً إهدارها إلا قصاصاً .

ولكن الأمر يختلف عندما لا يقع الفعل من فرد علـى آخر، ولكن يشترك الاثنان فعندئذ لا يكـون قـتلاً.. ولكـن قتالاً ..

* * *

لنبدأ إذن من البقرة "فنجد الآية ١٩٠" ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ

قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. {١٩٤ البقرة}

هذه الآيات تصلح نموذجاً لتقرير الموقف مـن الـذين يقاتلون المؤمنين، ومنها يتضح أن قتال المؤمنين هو رد على قتال المشركين لهم ورغم ما يبدو فى نبرة الكلمات الأولـى "واقْتُلُوهم حيثُ ثَقِفْتُموهم" من شدة فإنها محكومة بضوابط ما جاء قبلها، وبعدها. فالأمر هـو بقتـال "الـذين يقـاتلونكم" فإخراجهم يكون كما أخرجوا المؤمنين مع النهى عن الاعتداء مع ملاحظة أن محاولة المشركين فتنة المؤمنين أشـد مـن القتل وهذا مبدأ رئيسى فى آيات القتال لأنه هو السبب المبرر للقتال. والذى يجعل القتال قتالاً فى سبيل حرية العقيدة فـى مواجهة محاولة إملاء العقيدة. وحرمت الآيات القتـال عنـد المسجد الحرام، ولكن إذا قاتلوكم عنده، فلا مناص، ويتعـين القتال "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين " وهو تعبير يذكرنا بالتعبير الذى أشاعه بعض الأخوة الأقبـاط، وهـم دون أن يعلموا إنما يكررون بالحرف ما جاءت به الآية "أن الدين " والآية توحى باستبعاد تدخل البشر فيما هو وتركه وهو

ما يتفق مع استبعاد الإسلام الأحبار والسـدنة، والمؤسسـة الدينية ومع تقريره لحرية العقيدة وأنها قضية شخصية .

وقد يوضح هذا تماماً ما رواه البخارى عن ابن عمـر رضى ا عنه، أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبيـر فقـالاَ: إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصـاحب النبـى ﷺ فمـا يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعنى أن ا حرم دم أخى، قـالا: ألم يقل ا : ﴿وقَاتِلُوهم حتى لا تَكُون فِتْنَةٌ﴾. فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين ، وأنتم تريدون أن تقـاتلوا حتـى تكون فتنة ويكون الدين لغير ا .

فهذا النص يوضح تماماً أن تدخل الحكام هو نوع من الفتنة التى تجعل الدين لغير ا ، ويؤكده ما جاء فى تفسـير بن كثير للآية عندما سئل ابن عمر عنها فقال "فعلنـا علـى عهد رسول ا ، إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن فـى دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثـقوه فلما كثر الإسلام لم تكن فتنة" فهذا النص يوضح أن تدخل الحكام هو الفتنة التى تجعل الدين لغير ا ، وإذا انتفى لم تكن فتنة وبالتالى قتال .

وتقرر الآية ما ستقرره آيات عديدة من تأكيـد مبـدأ المقابلة بالمثل بحيث لا يكون هناك عدوان إلا على الظالمين – ولا يعد وقتئذ عدوانا لأنه رد الظلم .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . {٢١٧ البقرة}

تقرر الآية أن القتال قد كتب على المؤمنين رغم أنـه كره لهم. وتلك نقطة هامة. فالطبيعة البشرية هـى الطبيعـة البشرية وقد كان – وسيظل القتـال – عمـلاً كريهـا، لأن الإنسان يدخله قاتلاً أو مقتولاً أو مجروحاً.. وكلهـا بـدائل سيئة، والعافية أسلم وأحب، ولكن الآية توضح "وعسـى أن تُحِبوا شيَئًا وهو شَر لَكُم " فالأمر ليس أمر هـوى أو حـب،

ولكن أمر ضرورات وواجبات والتزامات ومقتضيات تفرضها قيم الخير والسلام والحرية والعدل فى مواجهة القسر وإجبار الناس على ترك ما يؤمنون به والأخذ بما يؤمن به الآخرون وهذه هى الفتنة التى رأى القرآن أنها أشد من القتل وأسوأ من القتال لأن ذلك يعنى سيطرة الظلام والاستبداد والقضاء على الحرية. وأوضحت الآيات أن الشهر الحرم إذا حاربوا فيه. فعليكم بالرد، لأن البادئ أعظم ..

وأوردت الآية حكما هاماً. ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهى إحدى بضع آيات تذكر الردة صراحة ثم لا ترتب عليها عقوبة دنيوية والقرآن فيما يتعلق بالعقائد لا يقرر عقوبات دنيوية، لأن هذه العقوبات ليست من طبيعة العقيدة وإنما يقرر عقوبات أخروية لأنها من طبيعة العقيدة .

هناك آيات عن قتال فرض على بنى إسرائيل ولكنهم تولوا إلا قليلاً. "الآيات ٢٤٦ – ٢٤٧" لا تدخل فى شرعية القتال الإسلامية ..

فى سورة آل عمران نجد آيات عن موقعة بدر[7] لها طابع خبرى ولا تتضمن أحكاماً "الآيات ١٢٢ – ١٢٦" كما فيها إشارة.. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. {١٤٦ آل عمران} ..

وتتطرق السورة إلى حديث عما أصاب المسلمين فى غزوة أحد، وسلوك المنافقين وتختم بالآيات الرائعة عن مصير الشهداء. وهى آيات لها طابع خبرى، ولكنها تنضح بالحياة وتصور الموقف تصويراً فعالاً ..

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ

---

(١) وفى بعض الروايات أنها عن أحد .

لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. {١٧٤ آل عمران}

رغم أن سورة النساء قد عنيت بقضية المرأة وإنصافها من ظلم الرجال، فإنها تضمنت آيات هامة فى القتال وإن كان لبعضها الطابع الخبرى، ففيها أحكام وتوجيهات أبرزها الآية التى اتخذها فريق من الخوارج شعاراً لهم وسموا ببعض ما جاء بها فقيل لهم الشراة وهى. ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا(٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ . {٧٨ النساء} ..

وفى هذه الآيات ما فى آيات سابقة من بنـاء القتـال انتصافاً للمستضعفين من الرجال والنساء وقررت أن ﴿الذِين آمنُوا يقَاتِلُون فِي سبِيل اللهِ والذِين كَفَروا يقَاتِلُون فِي سـبِيل الطاغُوتِ﴾. سواء كان هذا الطاغوت ملكاً مستبداً أو صـنما معبوداً أو شهوة طاغية بالمال أو نساء الخ... ونددت بالذين خافوا القتال وتمنوا لو لم يكتب عليهم وأيقظتهم من أوهامهم " أَينَما تَكُونُوا يدرِكم الْموتُ ولَو كُنتُم فِي بروجٍ مشَـيدةٍ " آيـة ٧٨ النساء ..

وتستطرد الآيات إلى حديث طويل عن المنافقين :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(٨١) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً(٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً(٨٤) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ . {٨٥ النساء} ..

وتستطرد الآيات فى إشارتها إلى المنافقين ..

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا

تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ . {٩١ النساء} ..

علينا أن نذكر أن هذه الآيات نزلت والإسلام الناشـئ محصور فى المدينة يكافح اليهود والمشركين فى الخارج ثم يتعرض لمؤامرات المنافقين – الذين يمكن أن تطلق علـيهم الخونة – فى الداخل .

وتشير الآيات إلى مدى المعاناة المضنية التى عاناهـا الرسول والمؤمنون فى مواجهة مؤامرات فريق من المنافقين يعيشون وسطهم. ويضمرون مع ذلك عداوة عميقة للمسلمين لا تمحى إلا بأن يعودوا كفاراً وتصل عداوتهم حد التفكير فى التآمر عليهم عندما يقومون الصـلاة، وظهـر ذلـك فـى

تصرفاتهم فى أحد وما أوقعوه بالمسلمين عندما انخذلوا بثلث الجيش وما أشاعوه من إشاعات .

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. {١٠٢ النساء} ..

يبدو أن غرغرينا الخيانة أصابت فريقاً مـن هـؤلاء ووجب استخدام الحسم لذلك جاءت الآيات صارمة .

وفى الحقيقة أن سورة النساء تابعت فى آيات لاحقـة المنافقين وكشفت سرائرهم وحذرت المؤمنين منهم .

على أن زهد القرآن فى هذا المجال – رغم النـزول على ما تتطلبه الضرورات من حسم، جعله يستثنى من لديهم من المسلمين ميثاق عدم اعتداء مع المؤمنين وإذا اعتزلـوا المؤمنين فلم يقاتلوهم وألقوا إليهم السلم فما جعل ا للمؤمنين

عليهم سبيلاً وفى مقابله هؤلاء الذين يغلب علـيهم السـلم أو التردد فهناك فريق آخر كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيهـا. فإن لم يعتزلوكم أو يلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم ففى هـذه الحالة يستحقون القتل. "أينما ثقفوا" وهذه كلها تحذيرات تجمع ما بين عدم المساس بمن لم يبدأ والذين كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها وما ينبغى أن يعامل به هؤلاء من حسم .

وهكذا يتضح أنه ما دام الموضوع هو القتـال، فـلا إنصاف أو اعتدال أكثر من ذلك ..

بل أكثر من هذا.. لقد تضمنت سورة النساء آية عـن أشد فئات المنافقين نفاقاً ولم توجب عليهم عقوبة دنيوية لهذا النفاق .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. {١٣٧ النساء}.. فمع أن القرآن كشف خبيئتهم، وأعلن كفرهم مـرة بعد أخرى، فإنه لم يوقع عليهم عقوبة .

إن مقارنة معاملة هؤلاء الذين آمنوا، ثم كفـروا، ثـم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً – وليس هناك بالطبع ما هو أبعد من هذا، بمعاملة المنافقين فى الآيـات السـابقة عليهـا

توضح أن الآيات السابقة أرادت مجموعـة مـن المنـافقين المقاتلين أو المتآمرين ومن هنا جاءت أحكام قتالهم. أما الذين كفروا بعد إيمانهم وازدادوا كفراً فإنهم لم يعلنوا، أو يضمروا حربا، ومن ثم ترك عقابهم إلى ا يوم القيامة .

فى سورة الأنفال نجد حديثاً طويلاً مؤثراً عـن بـدر، ولكنه ذا طابع إخبارى وأن تضمن آداب القتال وما ينبغـى على المؤمنين سلوكه عند الزحف" حتى تأتى الآية :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩)﴾ . {٣٩ الأنفال} ..

وقد شرحنا معنى "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله " من قبل ولا مانع من الإشارة إليها فالجملة واضحة فهـى تستبعد الفتنة أى إجبار الناس على تغيير المعتقد – كما جاء فى سورة البروج ﴿إن الذِين فَتَنُوا الْمؤْمِنين والْمؤْمِنَاتِ ثُم لَم يتُوبوا فَلَهم عذَاب جهـنم ولَهـم عـذَاب الْحريـق﴾. {١٠ البروج}.. فإذا استبعدت الفتنة أصبح الـدين . بحيـث لا يكون قضية يتقاتل ويتجادل عليها البشر، وبهذا يكون المعنى الحقيقى بعيداً عما قد يتبادر إلى ذهن بعض. المتعصبين من

أن المقصود أن يكون الدين هو الإسلام فى حين أن نص الآية ويكون الدين كله : يشمل كل ملل الدين، وأن قصره على الإسلام يناقض الآيات التى تركت الأديان الأخرى (المسيحية، واليهودية، والصائبة والذين هادوا الخ...) على ما هى عليه ووكلت إلى ا وحده الفصل بينهم يوم القيامة .

ولو كان الغرض من تعبير أن يكون الدين كله الإسلام هو لوجب أن يغير هؤلاء دينهم إلى الإسلام فإن لم يفعلوا ذلك طواعية فجبراً وقسراً. وهو ما يكون "فتنة" ويؤدى هذا التفسير إلى عكس معنى الآية .

وواضح أن الأمر بالقتال هو بالنسبة للذين كفروا ويصرون على قتال المسلمين أما إذا "انتهوا" فسيغفر لهم، بل إن آية القتال نفسها تعيد "فإن انتهوا فإن ا بما يعملون بصير" .

وتشير – سورة الأنفال – مرة أخرى – إلى الذين ينكثون عهدهم فى كل مرة ...

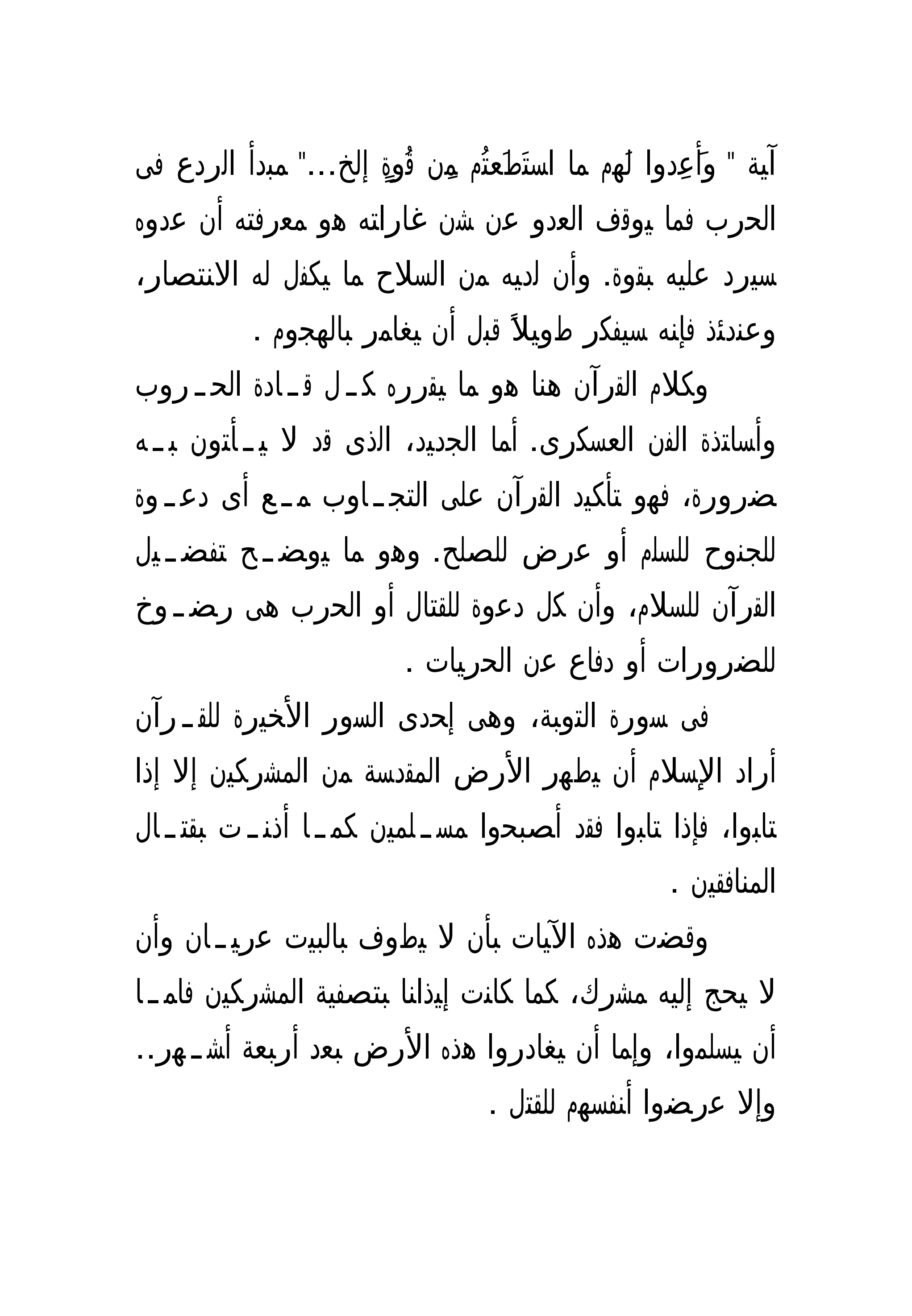
﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ(٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ(٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ(٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {٦١ الأنفال} ..

وهذه هى حقائق الحياة الصلبة، والمرة، والتى ليس منها مناص. ومع هذا، فإن الشعار الإسلامى هو لا تتمنوا لقاء العدو.. فإذا لقيتموه فاصبروا" .

وفى هذه الآيات إشارة إلى تبرير القتال عن نكث العهد (خاصة عندما يتكرر) والآية ﴿ فَإِما تَثْقَفَنهم فِي الْحربِ فَشَرد بِهِم من خَلْفَهم لَعلهم يذكرون﴾. توحى بقطع مادة النكث والخلاف، وكما ذكرنا فإن أولى ضرورات الحرب تقضى باستئصال مادته وعدم التهاون معه لأن هذا يعيده جذعه ويفسد الانتصار .

وتضع الآية ﴿وإما تَخافَن مِن قَومٍ خِيانَةً فَانبِذْ إلَيهم على سواءٍ إن الله لا يحِب الْخَائِنين﴾. مبدءاً يقوم على المعالجة الوقائية وتفويت الفرصة على الخائنين. كما تضع



آية " وَأَعِدوا لَهم ما استَطَعتُم مِن قُوةٍ إلخ..." مبدأ الردع فى الحرب فما يوقف العدو عن شن غاراته هو معرفته أن عدوه سيرد عليه بقوة. وأن لديه من السلاح ما يكفل له الانتصار، وعندئذ فإنه سيفكر طويلاً قبل أن يغامر بالهجوم .

وكلام القرآن هنا هو ما يقرره كـل قـادة الحـروب وأساتذة الفن العسكرى. أما الجديد، الذى قد لا يـأتون بـه ضرورة، فهو تأكيد القرآن على التجـاوب مـع أى دعـوة للجنوح للسلم أو عرض للصلح. وهو ما يوضـح تفضـيل القرآن للسلام، وأن كل دعوة للقتال أو الحرب هى رضـوخ للضرورات أو دفاع عن الحريات .

فى سورة التوبة، وهى إحدى السور الأخيرة للقـرآن أراد الإسلام أن يطهر الأرض المقدسة من المشركين إلا إذا تابوا، فإذا تابوا فقد أصبحوا مسـلمين كمـا أذنـت بقتـال المنافقين .

وقضت هذه الآيات بأن لا يطوف بالبيت عريـان وأن لا يحج إليه مشرك، كما كانت إيذانا بتصفية المشركين فامـا أن يسلموا، وإما أن يغادروا هذه الأرض بعد أربعة أشـهر.. وإلا عرضوا أنفسهم للقتل .

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١)
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ
مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ
اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا
عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤)
فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ(٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ
فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا
يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ

وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ(١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. {١٥ التوبة} ..

ويلحظ فى هذه الآيات طابع الصرامة، دون التخلى عن مبدأ الالتزام بالعهود والمواثيق. وقد جاء نص الآية ٦ وسط هذه الآيات الصارمة كبسمة وسط عبوس، ونسمة فى ثنايا عاصفة. ودلت على أن القرآن الكريم لا ينسى هذه القسمة من قسماته حتى فى أشد المواقف .

لقد تحكمت فى هذه الآيات ضرورة تصفية الموقـف بعد سلسلة المعارك التى سمحت بسيادة الإسـلام بإسـتثناء "جيوب" كان لابد من تصفيتها لأنه ليس من الحزم فى شىء ترك مثل هذه الجيوب التى يمكن أن تتضـخم مـع الـزمن وتصبح خطراً داهما على استقرار البلاد .

من أجل هذا يكون للصرامة ما يبررها، كما يدل على أن هذه الصرامة إنما هى ضرورة لإجراءات وقائية لتـأمين مستقبل البلاد. بمعنى أنها لحظت دواع خاصة واستثنائية وقد شرحنا عمق العداوة التى يكنها المشركون واليهود والمنافقون للإسلام وأنهم لا يرقبون إلا ولا ذمة ومع هذا فباب التوبـة مفتوح دائماً، ولو تابوا وأقاموا الصلاة وآتـوا الزكـاة فهـم "إخوانكم فى ا " وليس من سماحة، وحرص علـى إتاحـة بدائل ومندوحات عن القتال مثل هذا ..

أن سورة القتال.. هى نفسها سورة "التوبة" .

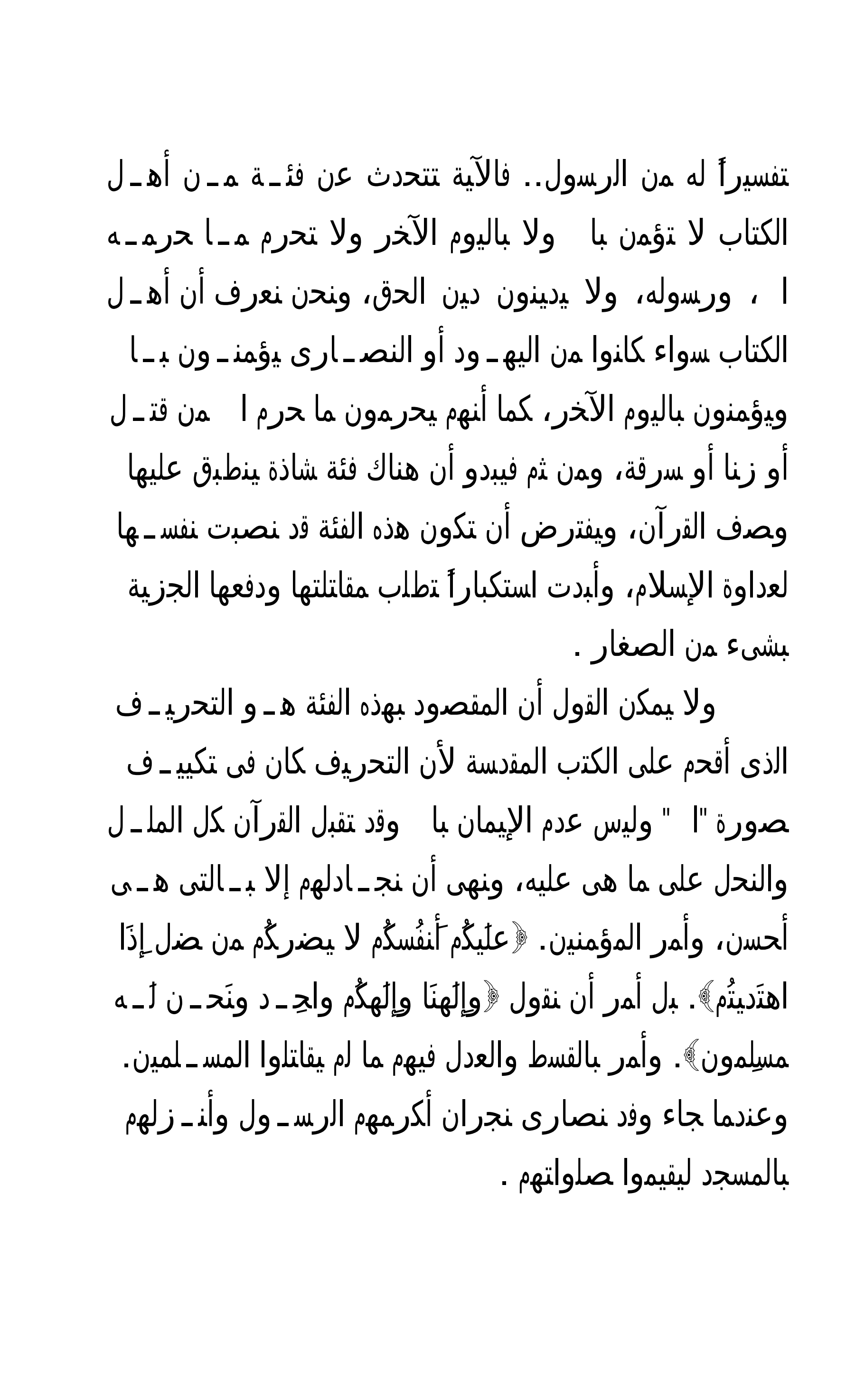
وتتواصل الآيات القارعة، الصاعقة التى بـدأت بهـا وتوجه الحديث إلى المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . {آية ٢٣} ..

وتضعهم أمام خيارين: ما يقضيه الإيمان من تضحية، وما يصطحب بالـدنيا مـن مـلاذ. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ . {الآية ٢٤} ..

ويرتفع السياق حتى يصل إلى قمته فى الآيـة {٢٩}..
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

نحن هنا أمام آية جاءت بوصف انفردت به، ولم يـرد فى المصحف بهذا الصدد إلا هذه المرة فضلاً عن أنه إذا فهم أنه ممارسة أو مبدأ، فإنه يخالف ما تضمنته آيات عديدة عما يتبع فى مثل هذا الموقف كما أنه يخالف الوقائع المادية لمـا حدث أيام الرسول والخلفاء الراشدين .

والنص الذى جاء به هذا التعبير، نـص نعجـز عـن التوصل إلى مفهومه الحق، وليس لدينا فى الصحيح الثابـت



تفسيراً له من الرسول.. فالآية تتحدث عن فئـة مـن أهـل الكتاب لا تؤمن با ولا باليوم الآخر ولا تحرم مـا حرمـه ا ، ورسوله، ولا يدينون دين الحق، ونحن نعرف أن أهـل الكتاب سواء كانوا من اليهـود أو النصـارى يؤمنـون بـا ويؤمنون باليوم الآخر، كما أنهم يحرمون ما حرم ا من قتـل أو زنا أو سرقة، ومن ثم فيبدو أن هناك فئة شاذة ينطبق عليها وصف القرآن، ويفترض أن تكون هذه الفئة قد نصبت نفسـها لعداوة الإسلام، وأبدت استكباراً تطلب مقاتلتها ودفعها الجزية بشىء من الصغار .

ولا يمكن القول أن المقصود بهذه الفئة هـو التحريـف الذى أقحم على الكتب المقدسة لأن التحريف كان فى تكييـف صورة "ا " وليس عدم الإيمان با وقد تقبل القرآن كل الملـل والنحل على ما هى عليه، ونهى أن نجـادلهم إلا بـالتى هـى أحسن، وأمر المؤمنين. ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. بل أمر أن نقول ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْـنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ﴾. وأمر بالقسط والعدل فيهم ما لم يقاتلوا المسـلمين. وعندما جاء وفد نصارى نجران أكرمهم الرسـول وأنـزلهم بالمسجد ليقيموا صلواتهم .

وقد أخذ الرسول الجزية، ولم يصـطحب أبـداً أخـذها بصورة من صور الصغار بل إن الإسلام خفف منها، ورفض أن تؤخذ من الصبيان والنساء والرهبان .

لا يتفق هذا الحكم الوقائع التاريخية الثابتـة أن معالجـة الإسلام للممارسات القديمة كانت تتسم بسمة من التقدم سـواء فى ذلك الرق، أو المرأة، أو العلاقة بين العامل وصاحب العمل والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وكذلك أحكام القتال ..

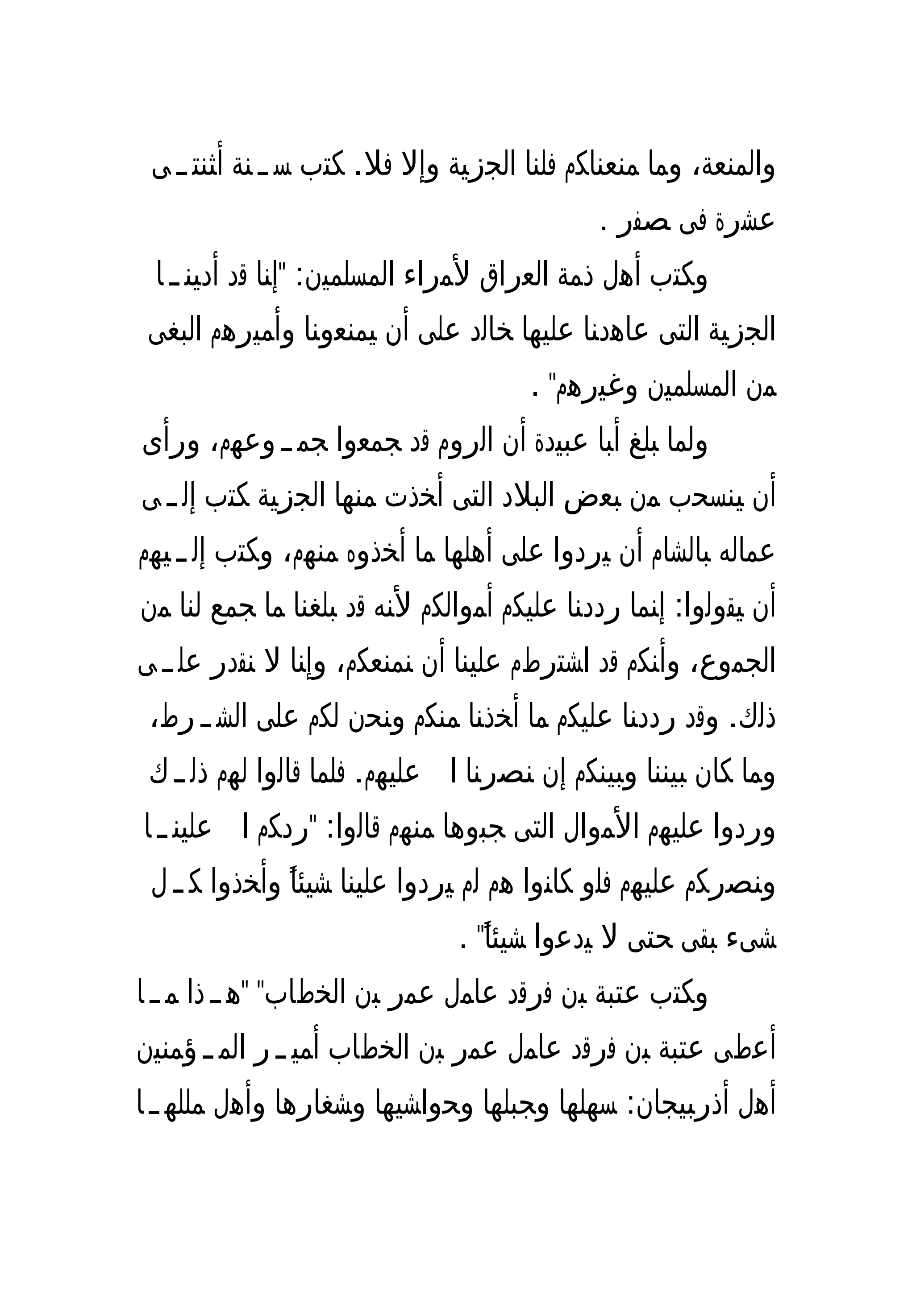
ويؤكد هذا أن الخلفاء الراشدين عندما فرضوا الجزيـة على الروم لم يقترن ذلك بصغار، بل كان الأهلـون شـاكرين للمسلمين تسامحهم الذى لم يجدوه من الفرس أو البيزنطيين(٨) .

ومن أمثلة ذلك :

كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسـطونا حـين دخـل الفرات وأوغل فيه.. هذا كتاب من خالد ابن الوليد لصلوبا بـن نسطونا وقومه. إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمـة

---

(١) أن ما جاء فى كتب التفسير، وما نسب بعضـه إلـى عمـر بـن الخطاب أو الصحابة هو محض هراء – ومما دس على الإسلام فـى تلك الفترة المظلمة التى هبطت فيها قيمة الإنسان – مسلم أو غير مسلم – إلى الحضيض وتعرضت الشعوب لإذلال الحكام .



والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا. كتب سـنة أثنتـى عشرة فى صفر .

وكتب أهل ذمة العراق لأمراء المسلمين: "إنا قد أدينـا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم" .

ولما بلغ أبا عبيدة أن الروم قد جمعوا جمـوعهم، ورأى أن ينسحب من بعض البلاد التى أخذت منها الجزية كتب إلـى عماله بالشام أن يردوا على أهلها ما أخذوه منهم، وكتب إلـيهم أن يقولوا: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر علـى ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشـرط، وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا ا   عليهم. فلما قالوا لهم ذلـك وردوا عليهم الأموال التى جبوها منهم قالوا: "ردكم ا   علينـا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كـل شىء بقى حتى لا يدعوا شيئاً" .

وكتب عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب "هـذا مـا أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أميـر المـؤمنين أهل أذربيجان: سهلها وجبلها وحواشيها وشغارها وأهل مللهـا

كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، علـى أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ومن حشر منهم فى سـنة (أى جند) وضع عنه جزاء السنة ومن أقام فله مثل من أقـام مـن ذلك" ..

فهذه الوقائع التاريخية فـى عهـد الرسـول والخلفـاء الراشدين تستبعد تماماً إلحاق أى صغار بالذميين عنـد آخـذ الجزية. وفيما نرى فإن الآية لا تشير إلى فئة معينة وجدت أيام الرسول، ولكنها تتحدث عن فئة ستظهر فى المستقبل من تلـك الفئات الشاذة عن الأديان السماوية، كالقرابطة وغيـرهم مـن حفلت بهم كتب الملل والنحل وأقترف الكثير منها المنكـرات والفظائع بحيث يكون دفعهم الجزية عن يـدوهم صـاغرون عقاباً عادلاً. ومعروف بالطبع أن القرآن هو للمستقبل كما هو عن الماضى.. وقد لا يقتصر ذلك على هذه الآية وحـدها، لأن سورة التوبة كما سنذكر استشرقت عالم الإسلام بعد أن يمضى الرسول إلى ربه وتبدأ الفتن ..

وتمضى الآيات بالسياق القوى للسورة.. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وهو ما يصدقه انتشار الإسلام رغم كل المعوقات حتـى فـى

الدول الأوربية والأمريكية والتى لو أحسن المسلمون عرضـه لآمن به الكثيرون" وتقرع الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. {٣٩}.. وتذكر الآيات للمسلمين كيف نصر ا رسوله ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٤٠} ..

وتعاتب الآية الرسول لأنه عفا عن المتخلفـين قبـل أن يتبين أمرهم وتتضح سريرتهم وتنكشف مؤامراتهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ

يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ . {٥٠} ..

وحددت الآيات فصائل هؤلاء المنافقين فمنهم من يقـول "إئذن لى ولا تفتنى" ومنهم من يهمز الرسول فـى الصـدقات، ومنهم من يقول هو أذن ويزعمون مع هذا أنهم من المـؤمنين.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ . {٦٦} ..

لا عجب أن تأتى الآيات ...

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . {٧٤} ..

ومع شدة نبرة الآيات، فإنها استخدمت "تعبير جاهد، وليس قاتل، وكذلك "أغلظ عليهم فإن الإغلاظ له بالطبع حدوده .

ونهت آيات النبى عن الاستغفار للمشركين أو أن يصلى عليهم أو أن يقف على قبورهم لأن المقام ليس مقام صلح ومغفرة، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. {١١٤} ..

وتلاحق السورة المنافقين حتى الآية التى تسبق الأخيرة منها. ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ

مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾. {١٢٧} ..

حتى تنتهى السورة نهاية وادعة. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِي اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. {١٢٩} ..

* * *

كان بعض الصحابة يطلق على سورة التوبة "الفاضحة" لأنها فضحت فضائل ومعسكرات المنافقين وكشفت ما يسرون وبينت ما يضمرون من عداوة للإسلام ولما كانت من السور الأخيرة فكأنها أرادت تأمين مستقبل الأمة وتبصيرها بأعدائها الداخليين الذين قد يكونون أشد خطراً عليها من الأعداء الخارجيين.. والسورة دراسة نفسية عميقة قدر ما هى استعراض اجتماعى دقيق للمجتمع الإسلامى وقتئذ وما اصطحب نجاحه من مخاطر مضمرة لابد أن تعالج بكل حسم وقوة. ومن يستعرض التاريخ الإسلامى ما تعرض له الإسلام فى أعقاب وفاة الرسول

عندما ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض نار، وارتـدت كل قبيلة عامة أو خاصة" وكاد أهل مكة أن يرتدوا ولم تبـق فئة مؤمنة صامدة إلا بالمدينة، وأن لولا عزم وحسم أبى بكر وسياسته التى كانت تطبيقاً لآيات الشدة فى سورة التوبة، لما قامت للإسلام قائمـة. ولاسـتطاع المشـركون أن يعـودوا بالعرب إلى جاهليتهم مرة أخرى .

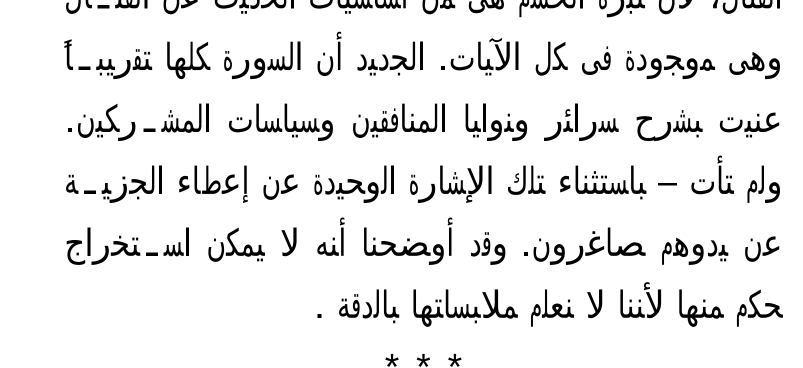
فى ضوء تلك السنوات الحرجة الفاصلة مـن نـزول السورة فى حجة الوداع حتى وفاة الرسول ومداهمـة الـردة بأحداثها الرهيبة. يمكن تفهم شدة آيـات السـورة والطـابع الخاص الذى شملها كلها تقريبت بل ويمكن القول أن لسـورة التوبة أثر فى حسم أبى بكر والمسلمين الذين وقفوا معه أمام طوفان المرتدين وسلكوا إزاءهم مسلك الشدة التـى تطلبتهـا تلك الأزمة الحالقة التى هددت بزوال الإسلام .

بل يمكن أكثر من هذا القول أن سورة التوبة تعبر عن فترات الشدة أو المحن التى تحيق بالمجتمع الإسلامى فى بلد ما فى تاريخ ما. وهى ترسم السياسة التى يجب أن تتم فـى هذا الحال المتربح بشكل عامة فإنها وتوجـب الحسـم، لأن الموقف يتطلبه، وهو السر فى أن الآيـة رفضـت اجتهـاد

الرسول فى الصفح والسماحة مع المنافقين لأنهم قد يفهمـون هذا على أنه ضعف .

باختصار إنها تقدم دروساً يجب أن تتبع عندما تهـب العواصف وتتقلب القلوب وتتداولها الأحن والمحـن وتمـر بأزمات متلاحقة.. تتطلب سياقاً وحسماً أعلى وأشد مما يتبع عادة .

ومع هذا فإن السورة لم تجاوز الخطوط العامة لآيـات القتال، لأن نبرة الحسم هى من أساسيات الحديث عن القتـال



وهى موجودة فى كل الآيات. الجديد أن السورة كلها تقريبـاً عنيت بشرح سرائر ونوايا المنافقين وسياسات المشـركين. ولم تأت – باستثناء تلك الإشارة الوحيدة عن إعطاء الجزيـة عن يدوهم صاغرون. وقد أوضحنا أنه لا يمكن اسـتخراج حكم منها لأننا لا نعلم ملابساتها بالدقة .

* * *

بعد سورة التوبة تترى السور المكية يونس، وهـود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنمـل، والإسـراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء.. وكلها سور طويلة رائعة، صادعة، ولكنها لا تتضمن قتالاً حتى تـأتى سـوره الحـج

المدنية وهى السورة التى نزلت فيها أول آية سمحت بالقتـال وأذنت للمسلمين به .

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ . {الحج ٤١} ..

هذه هى أولى الآيات إذنا بالقتال. وقد بنت هـذا الأذن على أن ظلم المشركين قد بلـغ مـداه، وأن ا   قـد مكـن للمسلمين بما يكفل النصرة، كما تبنى الآية هذا القتـل علـى أساس المبدأ الأصولى فى المجتمع البشرى، مبدأ التدافع وأنه لولا هذا المبدأ لهدمت دور العبادة لكل الأديان وختمت الآية أجمل ختام عندما صورت المنتصرين. ﴿الذِين إِن مكناهم فِي الأَرض َأقَاموا الصلاةَ وآتَوا الزكَاةَ وأَمروا ِبالْمعروفِ ونَهوا عن الْمنْكَرِ وِللهِ عاِقبةُ الأمورِ﴾. {٤١ الحج} ..

وتتوالى السور المكية مرة أخرى: المؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، حتى تأتى سورة الأحزاب التى نزلت بمناسبة إحدى المجابهات العسكرية بين المسلمين والمشركين عند تحالف هؤلاء مع بقية مشركى العرب واليهود.. فتحدثت عن المنافقين الذين تملكهم الروع، كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد. وفى الوقت نفسه فإن السورة قلدت المؤمنين الصادقين إحدى قلائدها. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(٢٢) مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً(٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ

وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾. {٢٧ الأحزاب} ..

باستثناء هذه السورة، تترى السور المكية فاطر، ويس، والصافات، وص، والزمر، وغافر، وفصـلت، والشـورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف دون إشـارة إلـى قتال .

فى سورة محمد نجد نصاً تضمن حكماً هاماً من أحكام القرآن يحدد مصير الأسرى ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. {٤ محمد} ..

وهذه الآية تمثل نظرية الإسلام عن القتال وخصائصها المميزة مثل الدخول فيه بجدية وعزيمـة، فإنهـا الحـرب.. "فضرب الرقاب" حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. هنا حكم الرحمة بعد القسوة الأولى. ثم يأتى تحديد مصير هؤلاء الذين أنقذوا من القتل ليصبحوا فى الأسر" فأما منـا بعـد. وأمـا فداء"..

هذا حكم طبقه الرسول فى غزواته، ولكنه كان أكثـر "تقدمية" مما تسمح به ظـروف المجتمـع، فلـم يسـتطعه المسلمون ولم يحتفظوا بهذه القاعدة الإنسانية ما بين "المن أو الفداء" فإذا لم يمكن المن فالفداء... **وحتى الآن تظـل الآيـة ذات طابع مثالى لأن قصارى ما وصل إليه العصر الحـديث هو "تبادل الأسرى" أما المن فهذا ما لا نجده فـى قـوانين البشر .**

كذلك تضمنت سورة الحجرات نصاً عـن التصـرف عندما تشتجر العداوة والحرب بين فئتين من المؤمنين. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. {١٠ الحجرات} ..

يلحظ أولاً أن الآية لم تستبعد أن يحـدث قتـال بـين طائفتين من المؤمنين وقد كان يرجى أن لا تصل العداوة بين طائفتين من المؤمنين حد القتال. ولكن "ما كـل مـا يتمنـى المرء يدركه" وما دام القرآن يعالج المجتمع البشرى بما فيـه

من قصور، فلابد من التسليم بإمكانية حدوث هذا. وحـددت الآية الإجراءات فأوجبت الصلح بينهما فإذا بغـت إحـداهما على الأخرى، وجب قتال الباغية فإذا فاءت إلـى أمـر ا فيصلح بينهما بالعدل، لا بالانتقام أو الثأر، ووجهـت الآيـة النظر إلى أن المؤمنين رغم تقاتلهم أخـوة "فأصـلحوا بـين أخويكم" ..

لقد شرحنا الآية فى إحدى الكتيبـات التـى أصـدرها الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل تحت عنوان "محكمة العـدل الإسلامية الدولية" محكمة الآية ٩ من سورة الحجرات .

تعود الآيات المكية مع سورة ق الرائعة، والـذاريات، والطور، والنجم، والواقعة، حتى نجد أخيراً "سورة الحشـر المدنية" التى نزلت بعد الأحزاب وتضـمنت قواعـد تقسـيم الغنائم، وهذا الحديث الرائع عن الأنصار.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ . {٩ الحشر} ..

كما تضمنت السورة وصفاً لليهود لعله لا يزال عالقـا بهم .

﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ . {١٤ الحشر} ..

بعد سورة الحشر تأتى سورة الممتحنة ذات الأهمية الخاصة لأنها تضمنت تحديداً للعلاقات مع الآخرين. وهؤلاء الآخرين إما أن يكونوا من المتآمرين على الإسلام أو من الذين وقفوا موقفاً سلبياً، فلم يشتركوا فى تآمر أو إيذاء أو فتنة أو إخراج من بلادهم مما يجعل السورة "امتحاناً" لا للمهاجرات، كما هو الشائع – ولكن بالنسبة لهاتين الفئتين الكبيرتين لقد نهت السورة عن موالاه أعداء للرسول يضمرون العداوة للإسلام .

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ

أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. {٦ الممتحنة} ..

والآيات على صرامتها تمثل المسلك الأمثل مع هؤلاء الأعداء.. وأى مسلك آخر لابد وأن يتضـمن نفاقـاً وريـاء ومداهنة واختياناً لحق العقيدة. والأمر بعد هذا سلبى. فهو لا يرتب فعلاً إيجابياً، ولكن عدم موالاة .

ومع هذا كله فقد تحفظـت الآيـة ٧ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فلا يفترض أن يتضمن عدم الموالاة شنآنا من العداوة .

ثم تحدد الآية الثامنة الموقف من الآخرين المسـالمين وتضع المبدأ الحاكم .

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

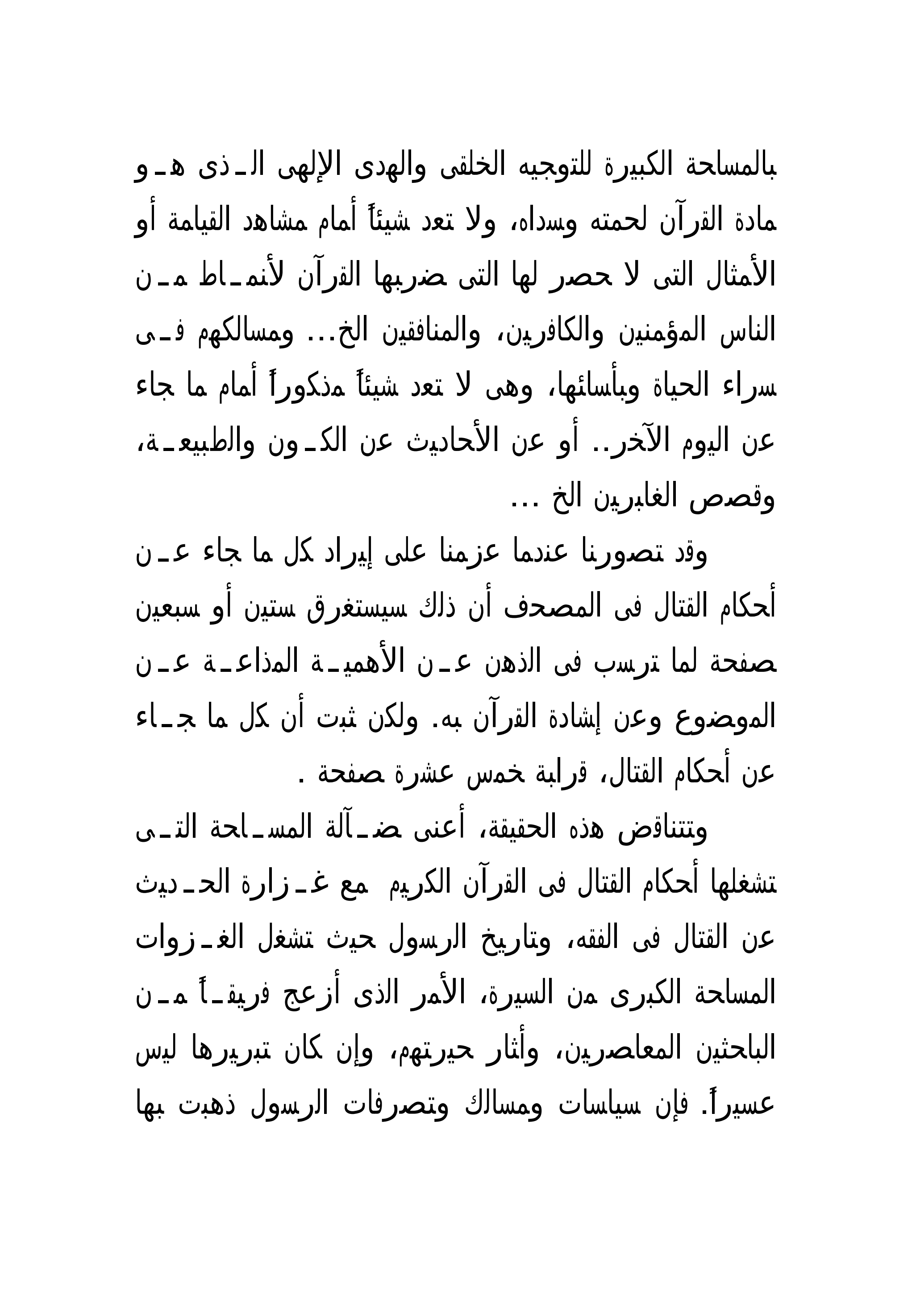
تضمنت سورة التحريم المدنية نصاً يأمر بأن النبى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. {٩ التحريم} ..

ويلحظ أن القرآن استخدم تعبير "جاهد" وليس قاتـل.. ولذلك جاء "وأغلظ عليهم" مما يوحى أن هـذا الجهـاد وأن تضمن الشدة والغلاظة فإنه لا يتضمن قتالاً ولابـد أن هنـاك أسباباً خاصة تطلبت ذلك، لأن المعروف عن الرسـول هـو اللين والدعة والبعد عن الغلاظة والشدة .

والسور بعد هذا مكية لا أثر فيها لقتال باستثناء نبوءة فى سورة المزمل وهى من أولى سور القرآن الكـريم بمـا سيحدث فى المستقبل من قتال ﴿.. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {آية ٢٠} .

* * *

يتضح من هذا الاستقصاء للآيات التى جـاءت عـن القتال بين دفتى المصحف. ومن سورة البقرة حتـى سـورة الناس أنها محدودة العدد لا تشغل سوى حيز ضئيل إذا قيس

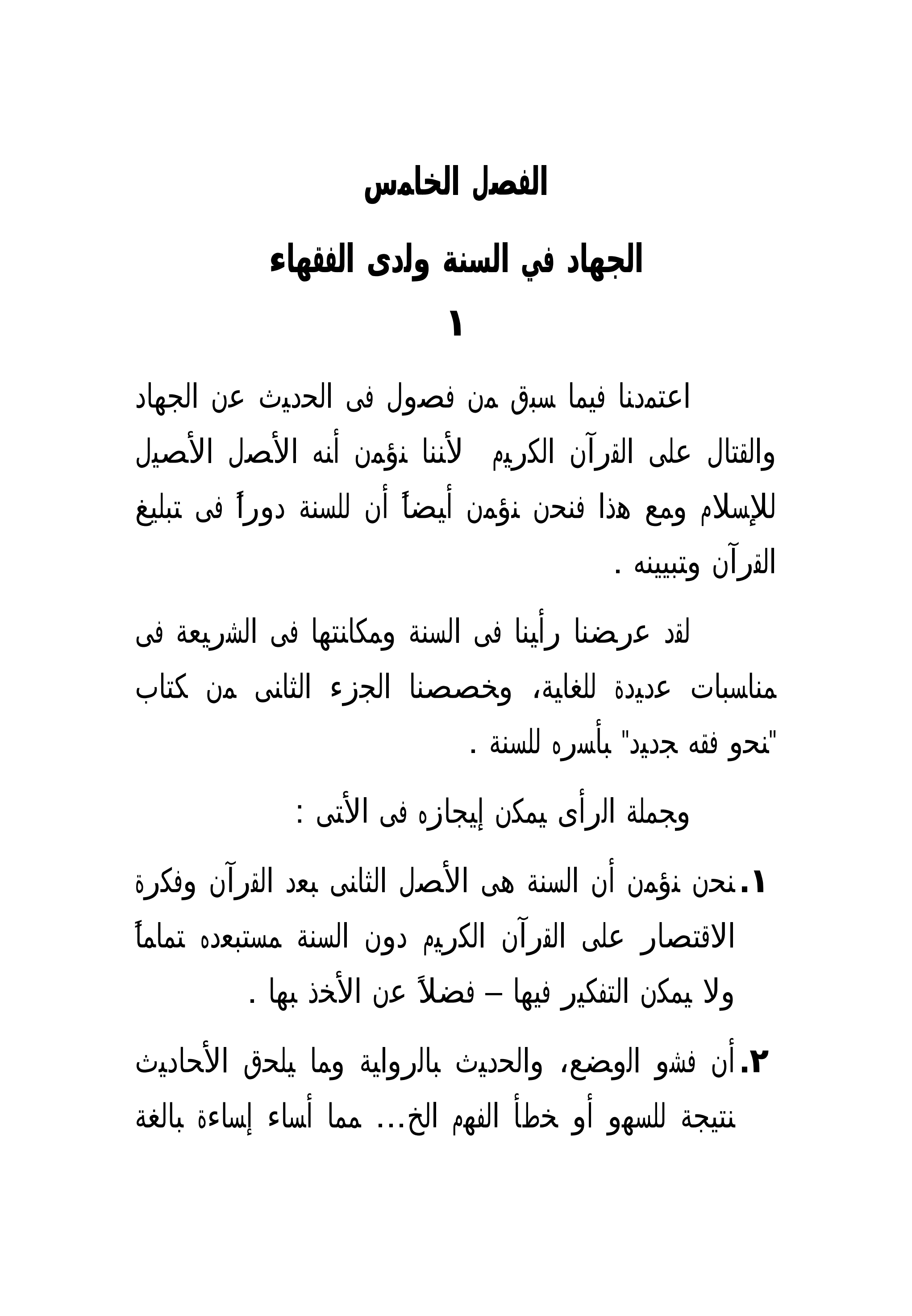


بالمساحة الكبيرة للتوجيه الخلقى والهدى الإلهى الـذى هـو مادة القرآن لحمته وسداه، ولا تعد شيئاً أمام مشاهد القيامة أو الأمثال التى لا حصر لها التى ضربها القرآن لأنمـاط مـن الناس المؤمنين والكافرين، والمنافقين الخ... ومسالكهم فـى سراء الحياة وبأسائها، وهى لا تعد شيئاً مذكوراً أمام ما جاء عن اليوم الآخر.. أو عن الأحاديث عن الكـون والطبيعـة، وقصص الغابرين الخ ...

وقد تصورنا عندما عزمنا على إيراد كل ما جاء عـن أحكام القتال فى المصحف أن ذلك سيستغرق ستين أو سبعين صفحة لما ترسب فى الذهن عـن الأهميـة المذاعـة عـن الموضوع وعن إشادة القرآن به. ولكن ثبت أن كل ما جـاء عن أحكام القتال، قرابة خمس عشرة صفحة .

وتتناقض هذه الحقيقة، أعنى ضـآلة المسـاحة التـى تشغلها أحكام القتال فى القرآن الكريم مع غـزارة الحـديث عن القتال فى الفقه، وتاريخ الرسول حيث تشغل الغـزوات المساحة الكبرى من السيرة، الأمر الذى أزعج فريقـاً مـن الباحثين المعاصرين، وأثار حيرتهم، وإن كان تبريرها ليس عسيراً. فإن سياسات ومسالك وتصرفات الرسول ذهبت بها

كتب الفقه التى اعتبرت أنه يدخل فى السنة كـل فعـل، أو قول، أو تقرير، من الرسول، فلم يعـد لكتـب التـاريخ إلا الجانب السياسى الذى تمثل الغزوات أبرز قطعة فيه، وعلى هذا فالذى يريد أقضية وأفعال وأقوال الرسول ﷺ فإن عليـه أن يرجع إلى كتب الحديث والفقه وليس إلى السيرة .



الفصل الخامس

الجهاد في السنة ولدى الفقهاء

١

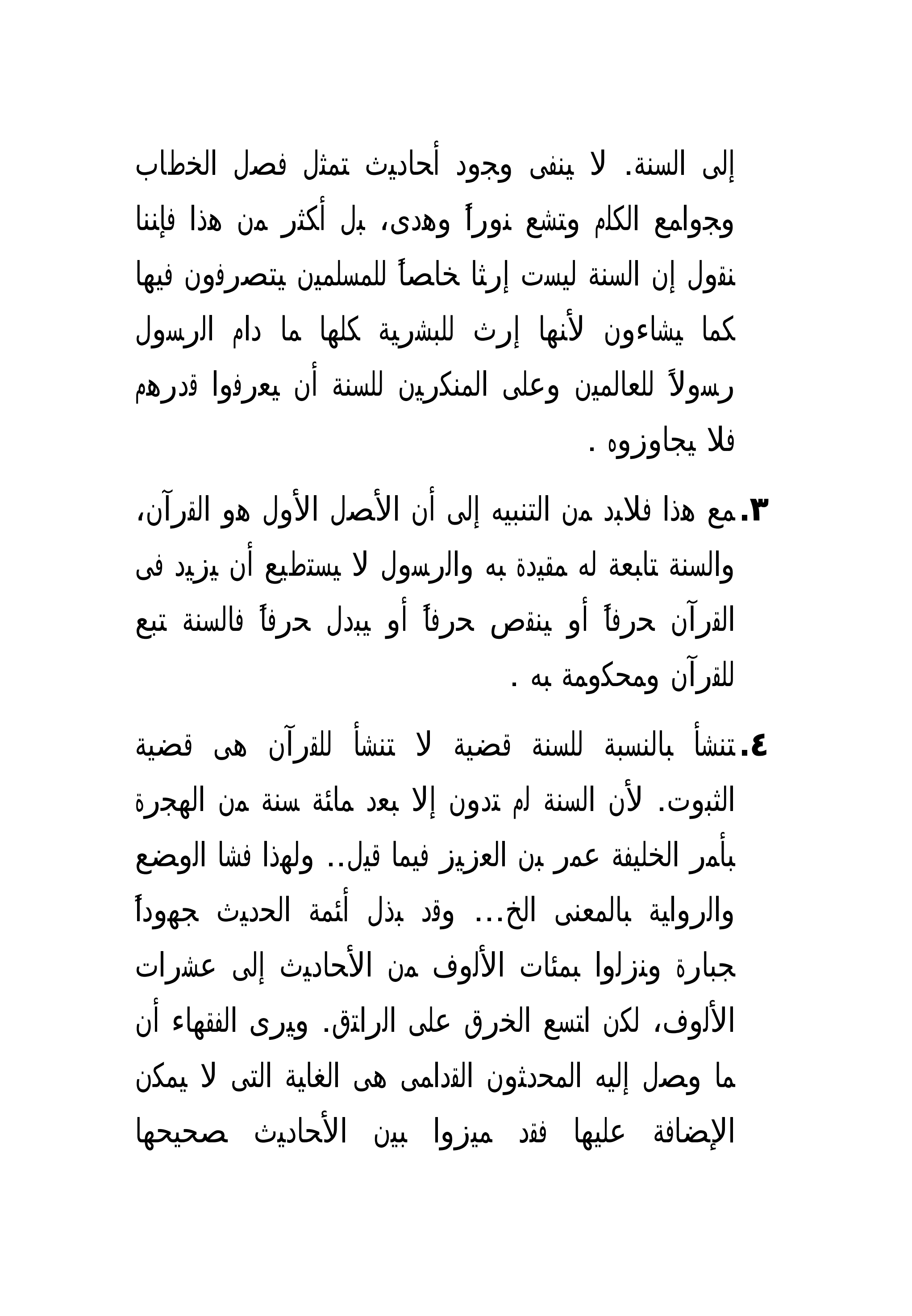
اعتمدنا فيما سبق من فصول فى الحديث عن الجهاد والقتال على القرآن الكريم لأننا نؤمن أنه الأصل الأصيل للإسلام ومع هذا فنحن نؤمن أيضاً أن للسنة دوراً فى تبليغ القرآن وتبيينه .

لقد عرضنا رأينا فى السنة ومكانتها فى الشريعة فى مناسبات عديدة للغاية، وخصصنا الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" بأسره للسنة .

وجملة الرأى يمكن إيجازه فى الأتى :

١. نحن نؤمن أن السنة هى الأصل الثانى بعد القرآن وفكرة الاقتصار على القرآن الكريم دون السنة مستبعده تماماً ولا يمكن التفكير فيها – فضلاً عن الأخذ بها .

٢. أن فشو الوضع، والحديث بالرواية وما يلحق الأحاديث نتيجة للسهو أو خطأ الفهم الخ... مما أساء إساءة بالغة


إلى السنة. لا ينفى وجود أحاديث تمثل فصل الخطاب وجوامع الكلم وتشع نوراً وهدى، بل أكثر من هذا فإننا نقول إن السنة ليست إرثا خاصاً للمسلمين يتصرفون فيها كما يشاءون لأنها إرث للبشرية كلها ما دام الرسول رسولاً للعالمين وعلى المنكرين للسنة أن يعرفوا قدرهم فلا يجاوزوه .

٣. مع هذا فلابد من التنبيه إلى أن الأصل الأول هو القرآن، والسنة تابعة له مقيدة به والرسول لا يستطيع أن يزيد فى القرآن حرفاً أو ينقص حرفاً أو يبدل حرفاً فالسنة تبع للقرآن ومحكومة به .

٤. تنشأ بالنسبة للسنة قضية لا تنشأ للقرآن هى قضية الثبوت. لأن السنة لم تدون إلا بعد مائة سنة من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن العزيز فيما قيل.. ولهذا فشا الوضع والرواية بالمعنى الخ... وقد بذل أئمة الحديث جهوداً جبارة ونزلوا بمئات الألوف من الأحاديث إلى عشرات الألوف، لكن اتسع الخرق على الراتق. ويرى الفقهاء أن ما وصل إليه المحدثون القدامى هى الغاية التى لا يمكن الإضافة عليها فقد ميزوا بين الأحاديث صحيحها

وسقيمها وأنزلوا الرواة منازلهم ما بين ثقات ووضاع.. الخ... وحسما للخلاف فإننا نقول إن القضية ليست قضية آحاد أو تواتر، حسن أو ضعيف ولكنها أولاً وقبل كل شىء الاتفاق مع القرآن الكريم إذ يفترض أن تتفق الأحاديث معه فإذا شذ حديث فعندئذ يكون الخيار هو ما بين القرآن والسنة ونحن لا نتردد فى الأخذ بالقرآن .

وقد وضعنا فى كتابنا عن السنة أثنى عشر معياراً من القرآن الكريم يفترض تجاوب السنة معها .

٥. بالإضافة فنحن نرى أن السنة ليس لها تأييد القرآن لأن القرآن الكريم عندما لم يذكر إلا الكليات فإنما كان ذلك لأنه لا يريد التأبيد إلا لهذه الكليات ولو أراده للتفاصيل والجزئيات لذكرها. وعندما وكل للرسول إيضاح التفاصيل والجزئيات فإنه أراد لها أن تستمر ما ظلت صالحة، متوائمه مع التطور. أما إذا جاوزها التطور فعندئذ نعود للقرآن لنستلهم منه الحكم المطلوب لأن ما جاء به الرسول من سنة إنما كان عن طريقة "وحى سنى" يختلف عن الوحى القرآنى. ولأن ا تعالى لم يرد للرسول أن يكون مشرعاً كا ، وإنما يمكن أن يضع

أحكاماً لابد أن تلحظ الظروف الزمانية والمكانية لها. ولا يكون لها إطلاق أو تأبيد القرآن .

ومعلوم أن الفقهاء ذهبوا إلى أن جزءاً كبيراً من أحكام الرسول لا تعد تشريعاً ..

* * *

هذه هى آراؤنا فى السنة. وقد تتضح وجاهتها عند مقارنة الآيات التى استشهدنا بها فى الفصول السابقة بالأحاديث عن الجهاد – سواء كان جهاداً أو قتالاً. ففى حين جاءت كل الآيات عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مقصورة على الأمر. جاء الحديث المشهور ليضيف التغيير باليد، أو باللسان أو بالقلب، وعلى حين جاءت كل الآيات عن القتال على أساس درأ الفتنة أو صد العدوان أو الانتصاف من الإخراج من الأرض الخ... وعلى عدم المساس "بالذين لم يخرجوكم من دياركم" فإن الأحاديث التى سترد يوحى بعضها بالقتال لنشر الإسلام ولحمل الناس على الإيمان.. حقيقة أن هناك آية أو إثنتين لهما طابع الإطلاق ولكن لابد أن لهما حكما خاصاً لأن كل الآيات الأخرى تقيد القتال بما أشرنا إليه من دواعى وتجعلها دفاعية ..

كما يلحظ ذلك فى الأحاديث عن المرأة، فإنها تأثرت بواقع المرأة، وظروف المجتمع العربى وفى الحقيقة فإن الأصل فى السنة – خاصة ما يمس قضايا المجتمع – هو التلاؤم مع أوضاع المجتمع، لا بمعنى التسليم لها، لأن الإسلام جاء لتغيير وإنهاض، ولكن أن تتم عملية التغيير والنهضة فى الأطر وبالمدى الذى تسمح به حالة المجتمع .

وفى حرية العقيدة يكرر القرآن أن لا إكراه فى الدين، وأن لا عقوبة دنيوية على من يرتد عن دينه فى حين نص حديث بطريقة حاسمة "من بدل دينه فاقتلوه" وهو فى صحيح البخارى .

من هنا فليس من العجيب أن يكون تركيز معظم الأحاديث عن الجهاد هى عن القتال. **لأن الأحاديث عن المعانى الجهادية العامة توزعت على مختلف أبواب الفضائل.** وأصبح المقصود بالجهاد هو القتال وهو تطور لم يكن منه مناص بعد أن شغل القتال مساحة كبيرة فى الحقبة المدنية .



في ضوء هذه التحفظات نورد ما جاء من الأحاديث عن القتال نقلاً عن الإمام الشهيد حسن البنا في رسالته "الجهاد" .

١. عن أبي هريرة رضي ا عنه قال سمعت رسول ا ﷺ يقول: "والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المـؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل ا ، والذي نفسي بيـده لوددت أني أقتل في سبيل ا ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثـم أقتل" رواه البخاري ومسلم .

السرية: القطعة من الجيش لا يكون فيها القائد العام .

٢. عن أبي هريرة رضي ا عنه أن رسول ا ﷺ قـال: "والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل ا وا أعلم من يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم والريح ريح المسك" .

الكلم: الجرح. ويكلم: يجرح .

٣. وعن أنس رضي ا عنه قال: غاب عمـي أنـس بـن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول ا ، غبت عـن أول قتال قاتلت المشركين، لئن ا أشهدني قتال المشـركين

ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد فقال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ...﴾. إلى آخر الآية رواه البخارى .

من دون أحد: أى من جهة جبل أحد .

٤. وعن أم حارثة بنت سراقة، أنها أتت النبى ﷺ فقالت: "يا نبى الله ألا تحدثنى عن حارثة – وكان قبل يوم بدر أصابه سهم غرب – فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء. قال: يا أم حارثة إنها

جنان فى الجنة، وإن أبنك أصـاب الفـردوس الأعلـى" أخرجه البخارى .

السهم الغرب: الذى لا يعرف راميه .

اجتهدت عليه فى البكاء: بكيت بكاء شديداً .

فأنظر يا أخى كيف كانت الجنـة تنسـيهم المصـائب وتحملهم على الصبر عند المكاره .

٥. وعن عبد ا بن أبى أوفى رضى ا عنه أن رسول ا ﷺ قال: "إعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" أخرجـه الشيخان وأبو داود.

٦. وعن زيد بن خالد الجهنى رضى ا عنه أن رسول ا ﷺ قال: "من جهز غازيا فى سبيل ا تعالى فقد غـزا، ومن خلف غازيا فى سبيل ا بخيـر فقـد غـزا" رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

أى: له أجره .

٧. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قال: قال رسول ا ﷺ: "من احتبس فرساً فى سبيل ا إيمانـاً بـا وتصـديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه فى ميزانه يـوم القيامـة" رواه البخارى .

ومثل الفرس كل عدة فى سبيل ا .

٨. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قيل: يا رسول ا مـا يعدل الجهاد فى سبيل ا ؟ قال: لا تستطيعونه، فأعـادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: لا تسـتطيعونه. ثـم قال: "مثل المجاهد فى سبيل ا كمثـل الصـائم القـائم القانت بآيات ا لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد" الستة[1] إلا أبو داود .

٩. وعن أبى سعيد الخدرى رضى ا عنه قال: قال رسول ا ﷺ "ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل ا على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدمه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب ا تعالى لا يرعوى بشىء منـه" رواه النسائى .

لا يرعوى: أى لا ينكف ولا يتعظ ولا ينزجر .

١٠. وعن ابن عباس رضى ا عنه قال: سمعت رسـول ا ﷺ يقول "عينان لا تمسهما النار: عين بكت مـن

---

(١) كتب الحديث الستة هى: البخارى ومسلم والنسائى وابـن ماجـه والترمذى وأبو داود .

خشية ا وعين باتت تحرس فى سـبيل ا تعـالى"
الترمذى .

11. وعن أبى عميرة رضى ا عنه قال: قال رسـول ا ﷺ: "لأن أقتل فى سبيل ا أحب إلى من أن يكون لى أهل المدر والوبر" أخرجه النسائى .

أهل المدر والوبر: أى أهل الحواضر والبوادى .

12. وعن راشد بن سعد رضى ا عنه عن رجـل مـن الصحابة أن رجلاً قال: يا رسول ا ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال: "كفـاه ببارقـة السيوف على رأسه فتنة" أخرجه النسائى .

وهذه امتيازات الشهيد فى الموقعـة، وكـم لـه مـن امتيازات كهذه ستأتى بعد ..

13. وعن أبى هريرة رضى ا عنـه أن رسـول ا ﷺ قال: "ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة" الترمذى والدارمى، وقال الترمـذى حسن غريب .

14. وهذا امتياز آخر للشهيد ..

١٥. وعن ابن مسعود رضى ا عنه قال: قال رسول ا ﷺ: "عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غـزا فـى سبيل ا فانهزم أصحابه، فعلم ما عليه فرجع حتـى أريق دمه، فيقول ا للملائكة: انظروا إلـى عبـدى رجع رغبة فيما عندى وشفقاً مما عندى حتى أريـق دمه، أشهدكم أنى قد غفرت له" .

شفقاً: خوفاً. وأريق دمه: سال دمه .

١٦. وعن عبد الخير بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه عن جده قال: جاءت امرأة إلى رسول ا ﷺ يقال لها أم خلاد وهى متنقبة تسأل عن ابن لها قتل فى سـبيل ا تعالى، فقال لها بعض أصحابه. جئت تسألين عن ابنك وأنت متنقبة. فقالت: إن أرزأ ابنـى فلـن أرزأ حيائى. فقال لها النبى ﷺ: "إن أبنك له أجر شـهيدين" قالت ولم؟ قال: "لأنه قتله أهل الكتاب" أخرجهما أبـو داود .

أرزأ ابنى: أفقده وأصاب فيه .

وفى هذا الحديث إشارة إلى وجوب قتال أهل الكتاب، وأن ا يضاعف أجر من قاتلهم، فليس الجهاد للمشركين فقط ولكنه لكل من لم يسلم .

١٧. وعن سهل بن حنيف رضى ا عنه أن رسول ا ﷺ قال: "من سأل ا تعالى الشـهادة بصـدق بلغـه ا منازل الشهداء وإن مات على فراشه" أخرجه الخمسة إلا البخارى

١٨. وعن خريم بن فاتك قال: قال رسول ا ﷺ: "من أنفق نفقة فى سبيل ا تعالى كتبت له بسـبعمائة ضـعف" رواه الترمذى وحسنه، النسائى .

١٩. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قال: مر رجل مـن أصحاب رسول ا ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمـت فـى هـذا الشعب. فذكر ذلك لرسول ا ﷺ فقال: "لا تفعل فـإن مقام أحدكم فى سبيل ا أفضل من صلاته فى بيتـه سبعين عاماً. ألا تحبون أن يغفر ا لكـم ويـدخلكم الجنة، أغزوا فى سبيل ا ، من قاتل فـى سـبيل ا فواق ناقة وجبت له الجنة" رواه الترمذى .

٢٠. عيينة: عين صغيرة تفيض بالماء .

٢١. وعن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسـول ا ﷺ: "للشهيد عند ا ست خصال: يغفر له فى أول دفعـه، ويرى مقعده فى الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تـاج الوقـار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتـين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سـبعين من أقربائه" رواه الترمذى وابن ماجه .

٢٢. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قال: قال رسول ا ﷺ: "من لقى ا بغير أثر من جهاد لقى ا وفيه ثلمة" رواه الترمذى وابن ماجه .

٢٣. وعن أنس رضى ا عنه قال: قـال رسـول ا ﷺ: "من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه" رواه مسلم .

٢٤. وعن عثمان بن عفان رضى ا عنه عن النبـى ﷺ قال: "من رابط ليلة فى سبيل ا سبحانه وتعالى كانت كألف ليلة صيامها وقيامها" رواه ابن ماجه .

٢٥. وعن أبى الدرداء رضى ا عنـه أن رسـول ا ﷺ قال: "غزوة فى البحر مثل عشر غزوات فـى البـر، والذى يسدر فى البحر كالمتشحط فى دمه فى سـبيل ا سبحانه" رواه ابن ماجه .

٢٦. يسدر: يميل ويهتز وترتج به السفينة. وفيه الإشـارة لغزو البحر ولفت نظر الأمة إلى وجوب العناية بحفظ سواحلها وتقوية أسطولها، ويقاس عليه الجو فيضاعف ا للغزاة فى الجو فى سبيله أضعافاً مضاعفة .

٢٧. وعن جابر بن عبد ا رضى ا تعالى عنه يقول: لما قتل عبد ا بن عمرو بن حزام يوم أحد قال رسـول ا ﷺ: "يا جابر ألا أخبرك ما قـال ا عـز وجـل لأبيك؟ قلت: بلى، قال: ما كلم ا أحداً إلا مـن وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً فقال: يا عبدى تمـن علـى أعطك. قال يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية. قال: إنـه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فـأبلغ من ورائى. فأنزل ا عز وجـل هـذه الآيـة: ﴿ولا تَحسبن الذِين قُتِلُوا فِي سبِيل اللهِ أَمواتًا بلْ أَحياء عِنْد ربهم يرزقُون﴾. رواه ابن ماجه .

٢٨. وعن أنس عن أبيه رضى ا عنهما عـن النبـى ﷺ قال: "لأن أشيع مجاهداً فى سبيل ا فأكففه على رحله غدوة أو روحه أحب إلى من الدنيا وما فيها" رواه ابن ماجه .

٢٩. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قال: قال رسول ا ﷺ: "وفد ا ثلاثة: الغازى والحاج والمعتمـر" رواه مسلم .

٣٠. عن أبى الدرداء قال: قال رسول ا ﷺ: "يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته" رواه أبو الدرداء .

٣١. عن عبد ا بن عمر قال: قـال رسـول ا ﷺ: "إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بـالزرع وتركتم الجهاد سلط ا عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم" رواه أحمد وأبـو داود وصـححه الحاكم .

٣٢. وعن أبى هريرة رضى ا عنه قال: "أنطلق رسـول ا ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول ا ﷺ: "قومـوا إلـى جنـة عرضها السموات والأرض" قال عمير بن الحمام: بخ

بخ، فقال رسول ا : "ما يحملك على قولك بـخ بـخ"

قال: لا وا يا رسول ا إلا رجاء أن أكـون مـن أهلها، قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتـى قتل" رواه مسلم .

٣٣. عن أبى عمران قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينـا صفاً عظيماً من الروم. فخرج إليهم مـن المسـلمين مثلهم وأكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسـلمين على صف الروم حتى دخل بينهم فصاح الناس وقالوا سبحان ا يلقى بيده إلى التهلكة، فقـام أبـو أيـوب الأنصارى فقال: أيها الناس أنتم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار لما أعـز ا الإسلام وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سـراً دون رسول ا ﷺ، إن أموالنا قد ضاعت وإن ا تعـالى أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنـا فـى أموالنـا وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل ا تعالى على نبيه ما يرد علينا ما قلناه ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيدِيكُم إِلَـى التهلُكَـةِ﴾.

وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً فى سبيل ا حتى دفن بأرض الروم. رواه الترمذى .

٣٤. وعن أبى هريرة رضى ا عنه عن رسول ا ﷺ أنه قال: "من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق" رواه مسلم وأبو داود ونظائره كثيرة .

والأحاديث الشريفة فى ذلك وأمثاله، وفى غزو البحر وتفضيله على غزو البر بمرات وفى غزو أهل الكتاب" انتهى الاستشهاد من رسالة الجهاد .

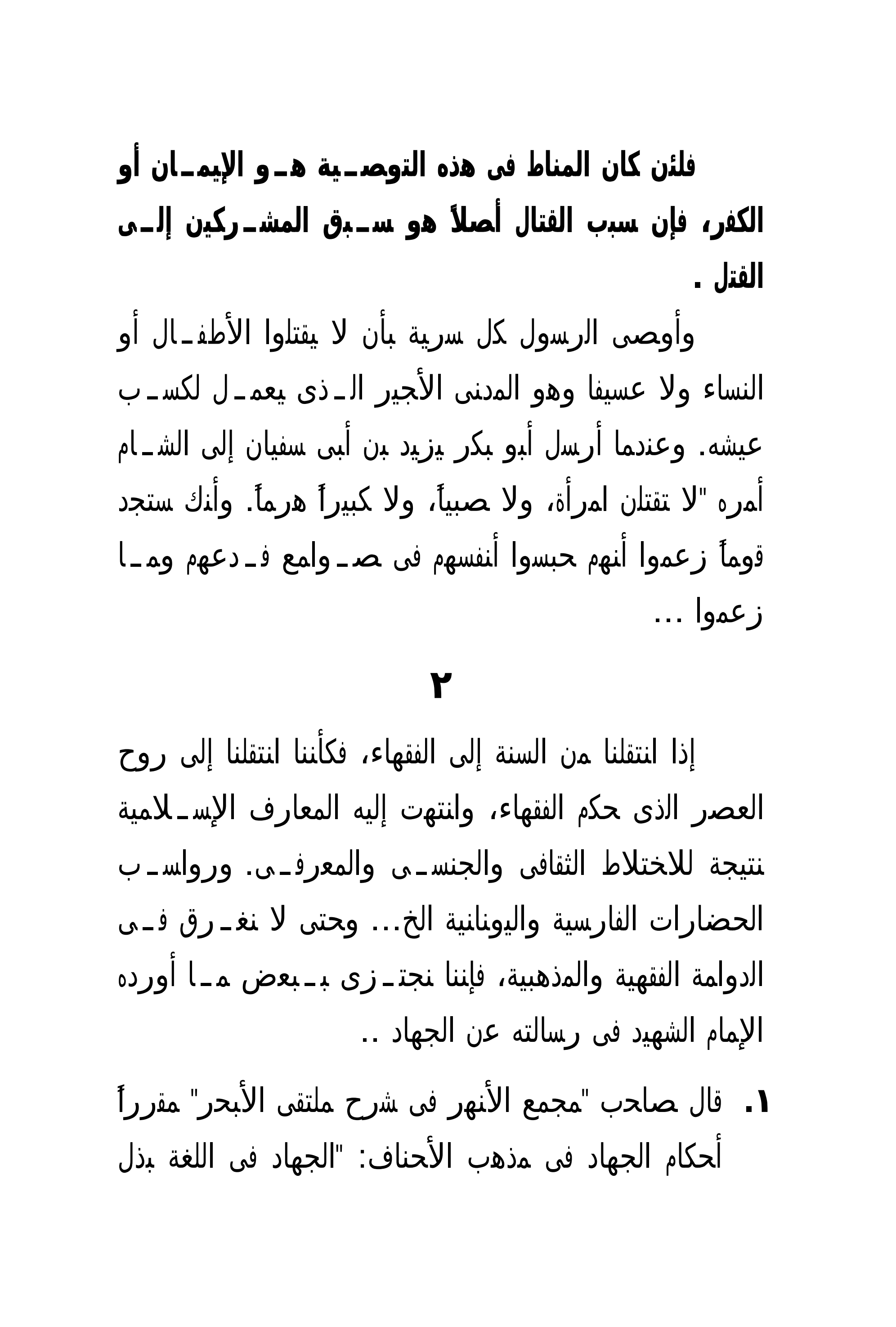
وكما قلنا فإن هذه الأحاديث يجب أن توضع فى الإطار القرآنى الواسع الذى يقر التعددية، ويفترض وجود الاختلاف، ويفرض حمايته ورعايته على الأديان الأخرى... مما يكون ضابطاً لبعض الأحاديث وقاضيا على البعض الآخر خاصة وأن فيها ما لا يرقى لمستوى الصحيح ..

ومن الخير أن نضيف إلى ما أورده الإمام البنا إشارة عن توصية الرسول لمعاذ بن جبل ولعلى بن أبى طالب وهما بمعنى واحد وأن اختلفت بعض الألفاظ ففى الوصية لمعاذ بن

جبل قال "لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبو فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم فإن بدءؤكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتـيلاً ثـم أرهم هذا القتيل وقولوا لهم هل إلى خير من هذا؟ فلأن يهدى ا على يديك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس .

وفى وصيته لعلى بن أبى طالب "إذا نزلت بسـاحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلـوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تريهم إياه فتقـول لهم هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا ا ولأن يهدى ا بـك رجلاً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت" .

ويبدو أن الإمام على بن أبى طالب تأثر بهذه الدعوة، فهو لم يحارب الخوارج الذين أسمعوه قوارص الكلـم بـل وتهددوه بالقتل ثم انحازوا بقضهم وقضيضهم إلى حروراء، فلم يحاربهم، بل ولم يمنعهم الفىء أو يحرم علـيهم دخـول المساجد، ولم يشرع فى حرب إلا بعـد أن قتلـوا بريئـاً.. وأرسل إليهم بطلب قاتله قالوا "كلنا قتله" وعندئذ سار إلـيهم ولكن قبل القتال وعظهم فتفرق كثير منهم، ولم يبق إلا قلـه أصرت على القتال. وهؤلاء هم الذين قتلوا فى حروراء .



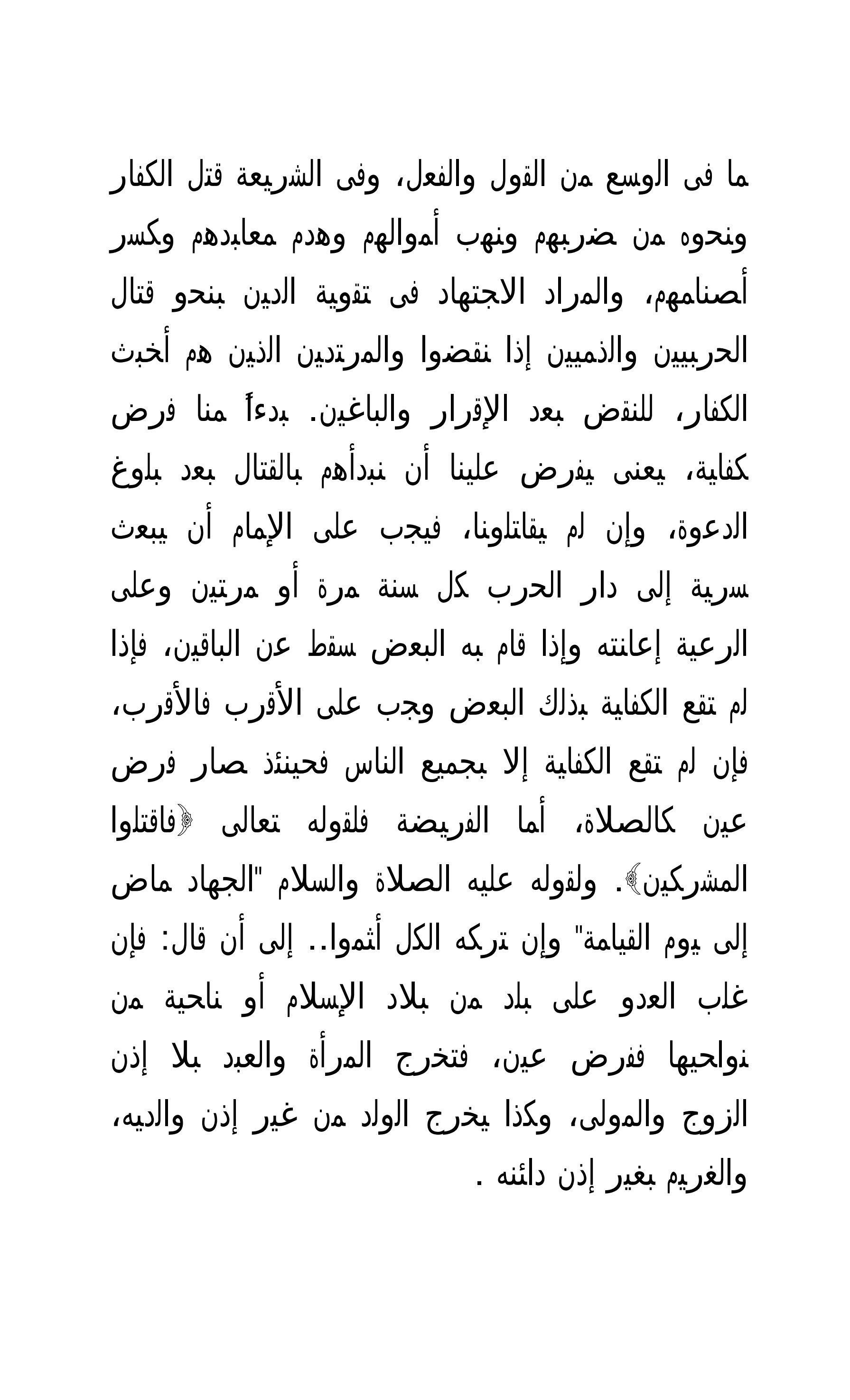
فلئن كان المناط فى هذه التوصية هو الإيمان أو الكفر، فإن سبب القتال أصلاً هو سبق المشركين إلى القتل .

وأوصى الرسول كل سرية بأن لا يقتلوا الأطفال أو النساء ولا عسيفا وهو المدنى الأجير الذى يعمل لكسب عيشه. وعندما أرسل أبو بكر يزيد بن أبى سفيان إلى الشام أمره "لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً. وأنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى صوامع فدعهم وما زعموا ...

٢

إذا انتقلنا من السنة إلى الفقهاء، فكأننا انتقلنا إلى روح العصر الذى حكم الفقهاء، وانتهت إليه المعارف الإسلامية نتيجة للاختلاط الثقافى والجنسى والمعرفى. ورواسب الحضارات الفارسية واليونانية الخ... وحتى لا نغرق فى الدوامة الفقهية والمذهبية، فإننا نجتزى ببعض ما أورده الإمام الشهيد فى رسالته عن الجهاد ..

١. قال صاحب "مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر" مقرراً أحكام الجهاد فى مذهب الأحناف: "الجهاد فى اللغة بذل



ما فى الوسع من القول والفعل، وفى الشريعة قتل الكفار ونحوه من ضربهم ونهب أموالهم وهدم معابدهم وكسر أصنامهم، والمراد الاجتهاد فى تقوية الدين بنحو قتال الحربيين والذميين إذا نقضوا والمرتدين الذين هم أخبث الكفار، للنقض بعد الإقرار والباغين. بدءاً منا فرض كفاية، يعنى يفرض علينا أن نبدأهم بالقتال بعد بلوغ الدعوة، وإن لم يقاتلونا، فيجب على الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين وعلى الرعية إعانته وإذا قام به البعض سقط عن الباقين، فإذا لم تقع الكفاية بذلك البعض وجب على الأقرب فالأقرب، فإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فحينئذ صار فرض عين كالصلاة، أما الفريضة فلقوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين﴾. ولقوله عليه الصلاة والسلام "الجهاد ماض إلى يوم القيامة" وإن تركه الكل أثموا.. إلى أن قال: فإن غلب العدو على بلد من بلاد الإسلام أو ناحية من نواحيها ففرض عين، فتخرج المرأة والعبد بلا إذن الزوج والمولى، وكذا يخرج الولد من غير إذن والديه، والغريم بغير إذن دائنه .

وفى كتاب البحر: "امرأة مسلمة سبيت بالشرق وجـب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم" أ. هـ .

٢. وقال صاحب "بلغة السالك لأقرب المسالك فى مذهب الإمام مالك": الجهاد فى سبيل ا لإعلاء كلمة ا تعالى كل سنة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقى، ويتعين (أى يصير فرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام وبهجوم العدو على محلة قوم، فيتعين عليهم وعلى من يقربهم إن عجزوا، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ولو منعهم الولى والزوج والسيد ورب الدين إن كان مديناً، ويتعين أيضاً بالنذر، وللوالدين المنع فى فرض الكفاية فقط، وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية وإن أتى على جميع أموال المسلمين . أ. هـ .

٣. وفى متن المنهاج للإمام النووى الشافعى: كان الجهاد فى عهد رسول ا ﷺ فرض كفاية وقيل عين، وأما بعده فللكفار حالان :

أحدهما – يكونون ببلادهم ففرض كفاية، إذا فعله مـن فيهم الكفاية من المسلمين سقط الحرج عن الباقين .

والثانى – يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بـالممكن وإن أمكن تأهب لقتال وجب على الممكن حتى علـى فقيـر وولد ومدين وعبد بلا إذن .

٤. وفى "المغنى" لأبن قدامه الحنبلى قال: مسألة – والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين، ويتعين فى ثلاثة مواضع :

أ- إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام .

ب- إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

ج- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم معه ..

وأقل ما يفعل مرة كل عام[١٠] .

---

(١) اعتمدنا فى الأحاديث وأقوال الفقهاء على ما أورده الإمام الشـهيد حسن البنا فى رسالة الجهاد – أنظر مجموعة رسائل الإمـام الشـهيد ص٢٤٦ وما بعدها (طبع دار النشر والتوزيع الإسلامى) .

* * *

وهناك حكم للجهاد لابن القيم أورده فـى زاد المعـاد وأعجب به الشهيد سيد قطب وجعله أساس فكرته عن الجهاد وأورده فى "معالم الطريق" وفى الظلال وهو "نقلاً عن معالم الطريق" .

"لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فـى "زاد المعاد" فى الفصل الذى عقده باسم: "فصل فى ترتيـب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حـين لقـى ا عز وجل" أول ما أوحى به ا تبارك وتعالى، أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، وذلك أولى نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسـه "فأنذر" فنبأه بقوله: "اقرأ" وأرسله بـ: "يا أيها المـدثر"، ثـم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر مـن حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العـالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح. ثم أذن له فى الهجرة وأذن له فى القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمـن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسـام:

أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فأمر بـأن يـتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به ما اسـتقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهـده.. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلهـا: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية. أو يدخلوا فى الإسلام، وأمره فيها بجهـاد الكفـار والمنـافقين والغلاظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسـنان، والمنـافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبـذ عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام: قسما أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولـم يسـتقيموا لـه، فحاربهم وظهر عليهم. وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قـاتلهم.. فقتـل النـاقض لعهده، وأجل من لا عهد له أو عهد مطلق، أربعـة أشـهر. وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته، فأسـلم هـؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهـل

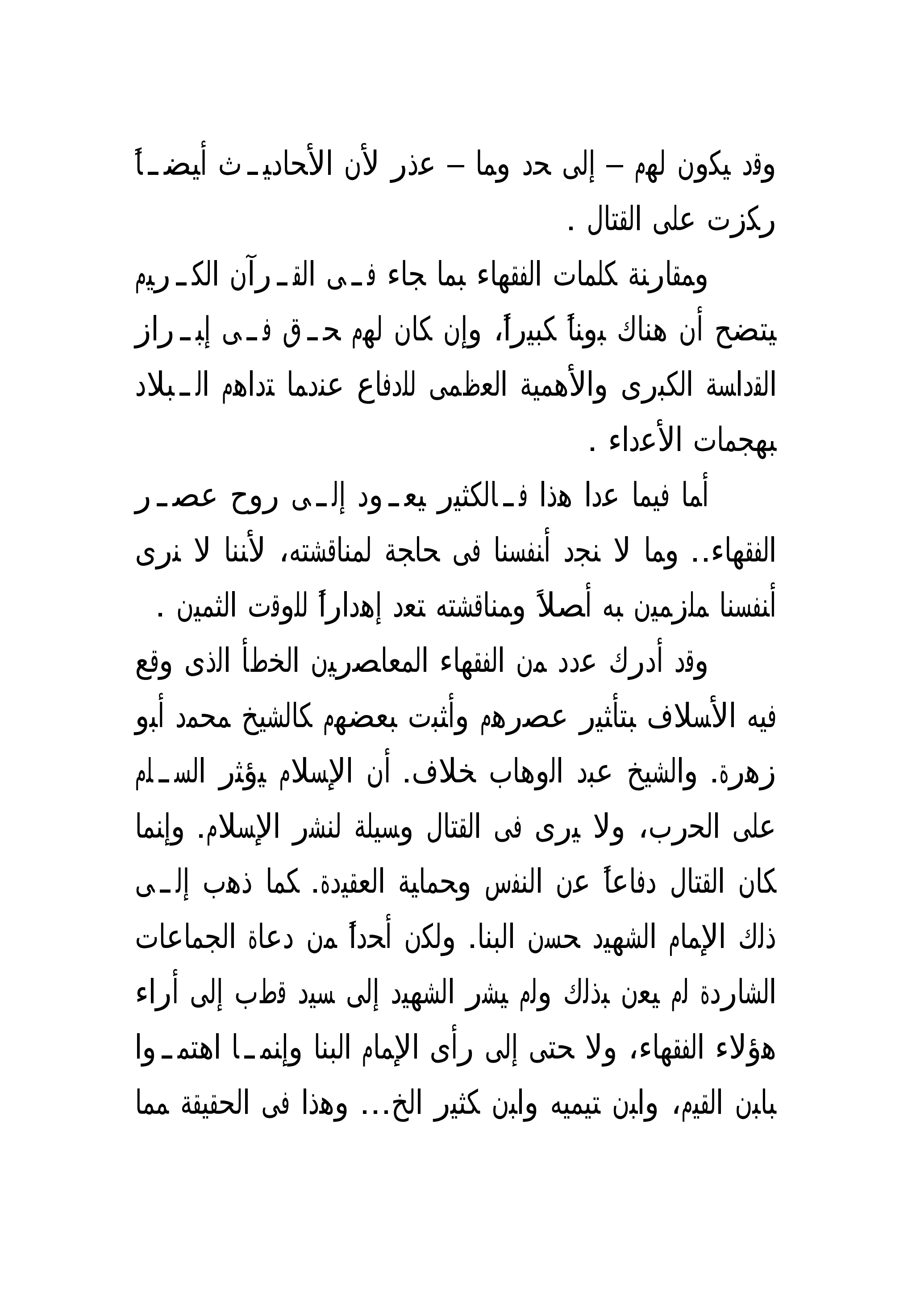
الذمة الجزية.. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.. ثم آلـت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسـمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمـن، وخائف محارب.. وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى ا ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ علـيهم، وأن يبلـغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهى أن يصلى عليهم، وأن يقـوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر ا لهـم.. فهذه سيرته فى أعدائـه مـن الكفـار والمنـافقين" أنتهـى الاقتباس[(١)] .

* * *

وهذا العرض لأقوال الفقهاء عن الجهاد يوضح أنهـم فهموا من الجهاد القتال وأقاموا كل أحكام الجهاد على هـذا الأساس، وانهم قد يكونون المسئولين بالدرجة الأولـى عـن إشاعة ذلك وقد ترتب عليه من نتائج أشرنا إليها فيما سـبق.

---

(١) معالم فى الطريق سيد قطب – طبعة الاتحاد الإسـلامى العـالمى للمنظمات الطلابية (سنة ١٩٧٨) ص٥٥ .


وقد يكون لهم – إلى حد وما – عذر لأن الأحاديـث أيضـاً ركزت على القتال .

ومقارنة كلمات الفقهاء بما جاء فـى القـرآن الكـريم يتضح أن هناك بوناً كبيراً، وإن كان لهم حـق فـى إبـراز القداسة الكبرى والأهمية العظمى للدفاع عندما تداهم الـبلاد بهجمات الأعداء .

أما فيما عدا هذا فـالكثير يعـود إلـى روح عصـر الفقهاء.. وما لا نجد أنفسنا فى حاجة لمناقشته، لأننا لا نرى أنفسنا ملزمين به أصلاً ومناقشته تعد إهداراً للوقت الثمين .

وقد أدرك عدد من الفقهاء المعاصرين الخطأ الذى وقع فيه الأسلاف بتأثير عصرهم وأثبت بعضهم كالشيخ محمد أبو زهرة. والشيخ عبد الوهاب خلاف. أن الإسلام يؤثر السـلم على الحرب، ولا يرى فى القتال وسيلة لنشر الإسلام. وإنما كان القتال دفاعاً عن النفس وحماية العقيدة. كما ذهب إلـى ذلك الإمام الشهيد حسن البنا. ولكن أحداً من دعاة الجماعات الشاردة لم يعن بذلك ولم يشر الشهيد إلى سيد قطب إلى أراء هؤلاء الفقهاء، ولا حتى إلى رأى الإمام البنا وإنمـا اهتمـوا بابن القيم، وابن تيميه وابن كثير الخ... وهذا فى الحقيقة مما

يضاعف من مسئوليتهم ويظهر أنهم فى اتجاههم هذا كـانوا يخضعون لمؤثرات نفسية أكثر مما هى مبررات عقيدية .

الفصل السادس

القتال فى سبيل مثل أعلى

مع أن معظم الآيات القرآنية عن القتال إنما تنصب على الحرب الدفاعية، وأن حروب النبى ﷺ كانت أصلاً حربا دفاعية، أو لتأمين العقيدة أو نتيجة لنقض العهود.. إلا أن ثمة علاقة خفية بين الإسلام وبين نوع من القتال، وجاذبية خاصة تجذب الإسلام لفكرة القوة. ويمكن للإنسان أن يستشف ذلك – استشفافاً من سياق بعض الآيات أو من نصوص صريحة – وإن كانت قليلة – كما يجده بكثرة وبغزارة فى السنة النبوية، وكانت هذه النزعة مسئولة إلى حد كبير عن ظاهرة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين، تلك الفتوح التى كونت دولة الإسلام، والتى حارب فيها المسلمون بروح "جهادية" عالية وعمقوا فيها مبدء كسب إحدى الحسنيين الشهادة أو الانتصار وأظهروا فيها البطولات التى يفخر بها المسلمون حتى اليوم .

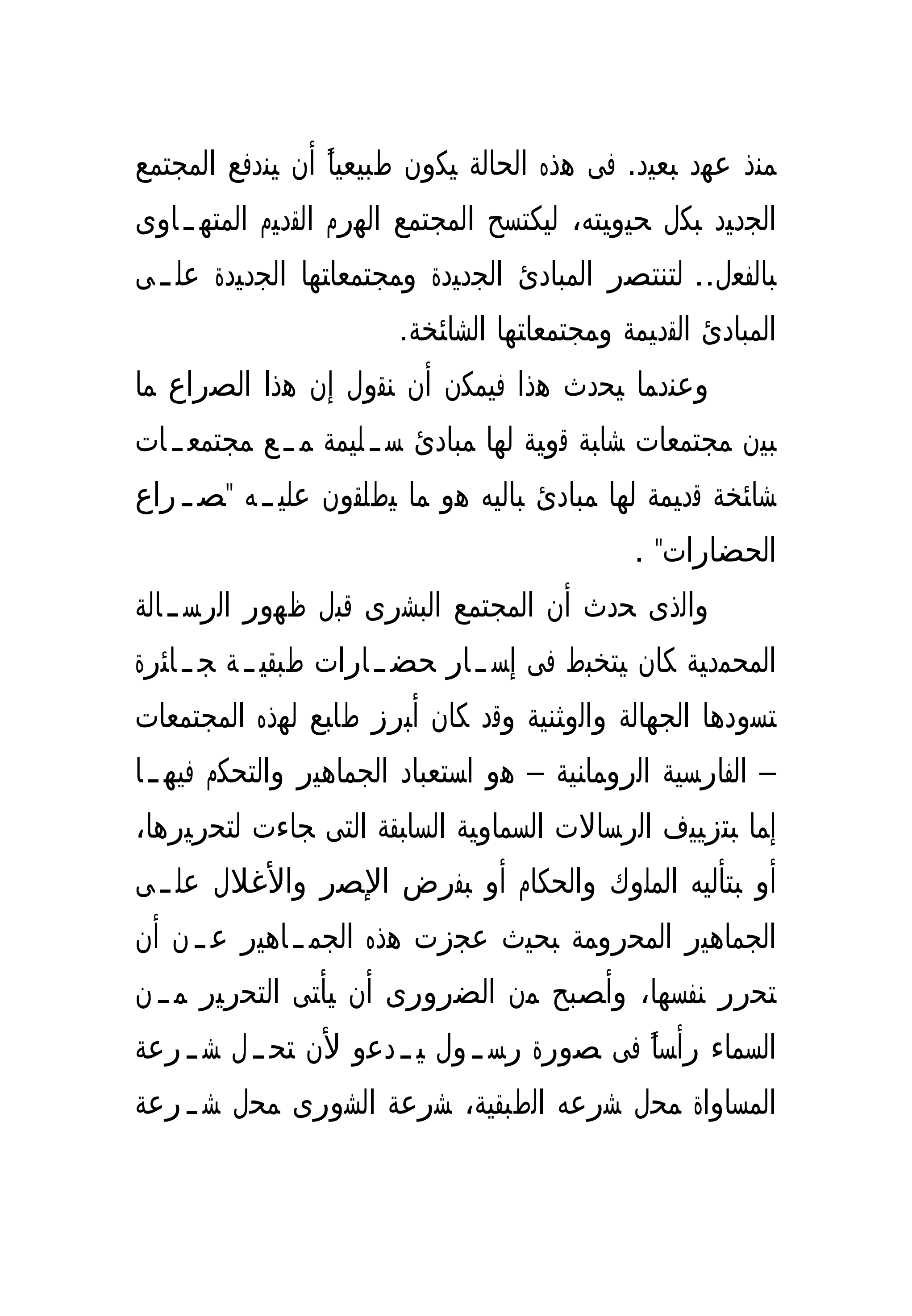
فكيف نعلل هذا، وكيف نجمع بينه وبين حرية العقيدة؟ .

يمكن القول إنها أثر من آثار الطبيعة الجهادية للإسلام عندما عرض الحياة نزالاً ما بين الخير والشر. هداية الأنبياء وغواية الشياطين واختباراً وابتلاء بالسراء والضراء ..

ويمكن أن نقول إنها نتيجة لنزعة تغليب القتال علـى الجهاد لدى الفقهاء ..

ويمكن أن نقول إن هذه الظاهرة تعرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ والمثـل الأعلـى بالمثـل الأعلى فمبدأ حرية الاعتقاد هو الأصل والقاعدة، ولكن يحدث فى بعض الحالات أن يظهر مبدأ يتطلبـه التطـور بالنسـبة للظروف الخاصة أو الآنية مثل تحقيق العدل فيجعل التطور الأولوية لمبدأ تحقيق العدل ومقاومة الظلم. ومع أنـه قـد لا يكون هناك تعارض، ولكن هناك مناطق تماس كما قد يسمح بوجود تعارض مؤقت حتى تنتهى الضرورة التى فرضـته، وهذه كلها ظواهر يفرضها فرضاً التعقيد الاجتماعى .

بالإضافة إلى تلاقى المبادئ، فيغلب أن يقتـرن هـذا بتلاقى المجتمعات. فيظهر مجتمع شاب فيه كل عناصر القوة والحيوية والفعالية، أشبه بحصان جامح يريد أن ينطلق بينما تظهر بجانبه مجتمعات شائخة، طبقية، تقليدية، فقدت حيويتها



منذ عهد بعيد. فى هذه الحالة يكون طبيعياً أن يندفع المجتمع الجديد بكل حيويته، ليكتسح المجتمع الهرم القديم المتهـاوى بالفعل.. لتنتصر المبادئ الجديدة ومجتمعاتها الجديدة علـى المبادئ القديمة ومجتمعاتها الشائخة.

وعندما يحدث هذا فيمكن أن نقول إن هذا الصراع ما بين مجتمعات شابة قوية لها مبادئ سـليمة مـع مجتمعـات شائخة قديمة لها مبادئ باليه هو ما يطلقون عليـه "صـراع الحضارات" .

والذى حدث أن المجتمع البشرى قبل ظهور الرسـالة المحمدية كان يتخبط فى إسـار حضـارات طبقيـة جـائرة تسودها الجهالة والوثنية وقد كان أبرز طابع لهذه المجتمعات – الفارسية الرومانية – هو استعباد الجماهير والتحكم فيهـا إما بتزييف الرسالات السماوية السابقة التى جاءت لتحريرها، أو بتأليه الملوك والحكام أو بفرض الإصر والأغلال علـى الجماهير المحرومة بحيث عجزت هذه الجمـاهير عـن أن تحرر نفسها، وأصبح من الضرورى أن يأتى التحرير مـن السماء رأساً فى صورة رسـول يـدعو لأن تحـل شـرعة المساواة محل شرعه الطبقية، شرعة الشورى محل شـرعة

الاستبداد، شرعة العدالة محل شرعة الظلم، شـرعة العلـم محل شرعة الجهل.. وأهم من هذا كلـه شـرعة ا محـل شرعة الطاغوت، لأنه فى هذه الصـيغة **"ا لا الطـاغوت"** تتبلور رسالة الإسلام .

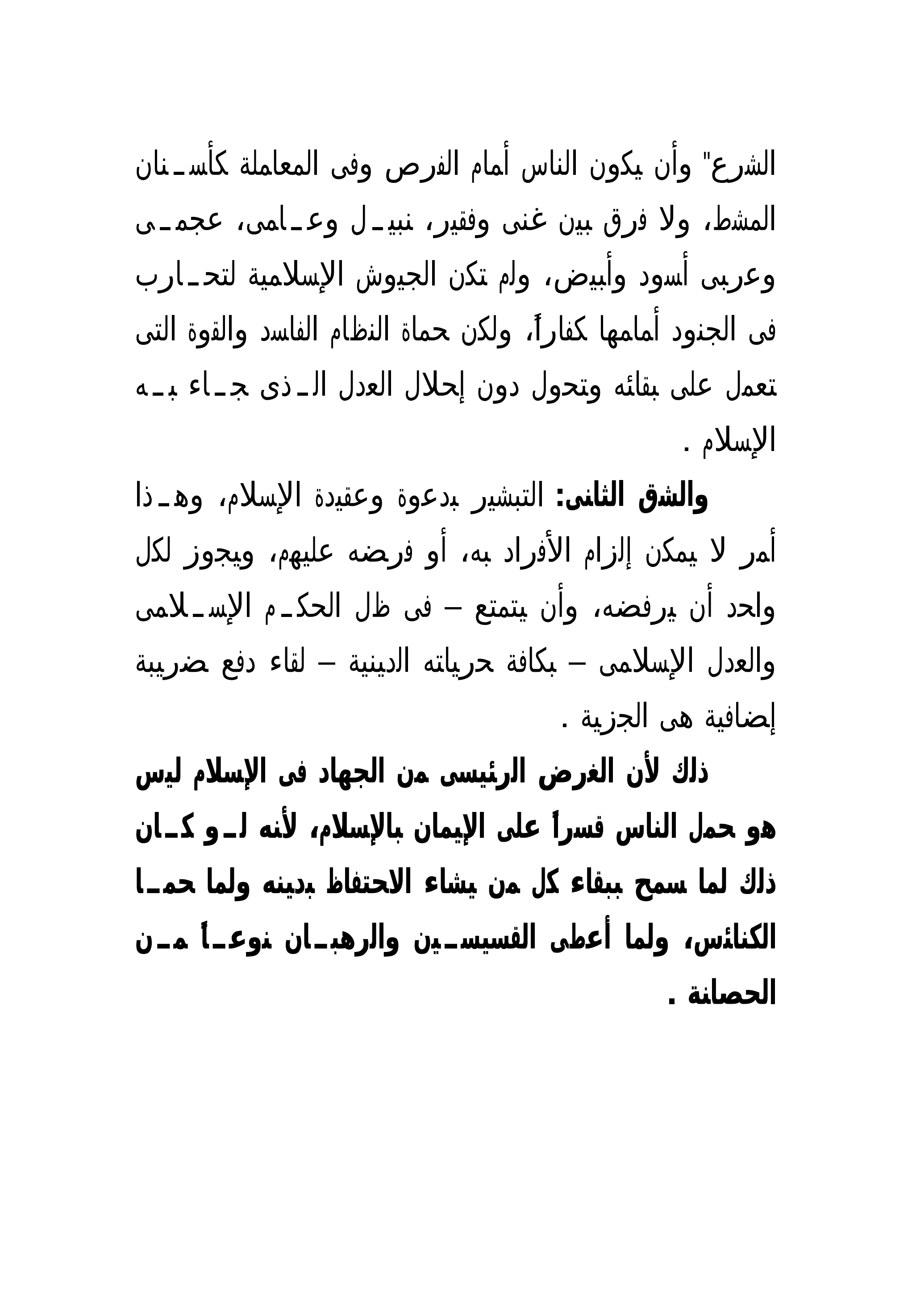
لم يكن إلا العرب فى هذا الوقت ليقوموا بهذه الرسالة ولم يكن إلا الإسلام لتتمثل فيه هذه الرسالة.. وكان لابد مـن تقويض أسس وهيكل النظام الجائر الفاسد الذى يستعبد الناس وإحلال نظام العدالة.. والشورى .

وقد أرسل الرسول خطاباته المشهورة إلـى كسـرى وقيصر ورفضها هذان بأباء وشمم فلم يكن من الممكـن أن يتم هذا إلا بالحرب.. والقتال ..

وهكذا ظهر "الجهاد فى سبيل ا " .

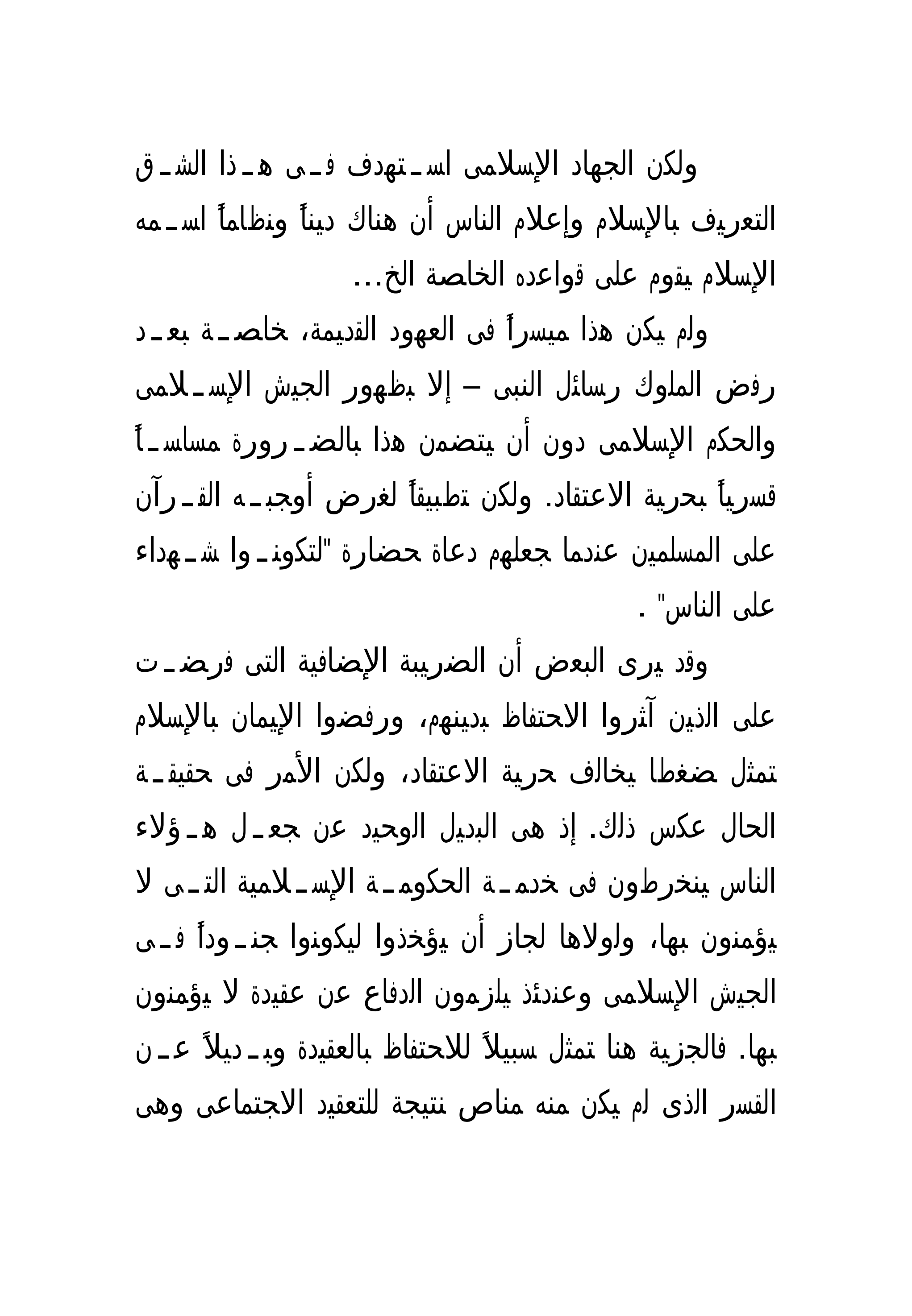
والجهاد فى سبيل ا قتال فى سـبيل مثـل أعلـى يستهدف أمرين :

الأول: إحلال نظام اجتمـاعى واقتصـادى وسياسـى صالح محل نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى فاسد.. وهذا ما يتم بإسقاط النظم الفاسدة وإحلال نظم جديدة تقـوم علـى العدل، والمنهجية وحكم القانون "أو كما يسـميه الإسـلام –


الشرع" وأن يكون الناس أمام الفرص وفى المعاملة كأسنان المشط، ولا فرق بين غنى وفقير، نبيل وعامى، عجمى وعربى أسود وأبيض، ولم تكن الجيوش الإسلامية لتحارب فى الجنود أمامها كفاراً، ولكن حماة النظام الفاسد والقوة التى تعمل على بقائه وتحول دون إحلال العدل الذى جاء به الإسلام .

والشق الثانى: التبشير بدعوة وعقيدة الإسلام، وهذا أمر لا يمكن إلزام الأفراد به، أو فرضه عليهم، ويجوز لكل واحد أن يرفضه، وأن يتمتع – فى ظل الحكم الإسلامى والعدل الإسلامى – بكافة حرياته الدينية – لقاء دفع ضريبة إضافية هى الجزية .

ذلك لأن الغرض الرئيسى من الجهاد فى الإسلام ليس هو حمل الناس قسراً على الإيمان بالإسلام، لأنه لو كان ذلك لما سمح ببقاء كل من يشاء الاحتفاظ بدينه ولما حما الكنائس، ولما أعطى القسيسين والرهبان نوعاً من الحصانة .



ولكن الجهاد الإسلامى استهدف فى هذا الشق التعريف بالإسلام وإعلام الناس أن هناك ديناً ونظاماً اسمه الإسلام يقوم على قواعده الخاصة الخ...

ولم يكن هذا ميسراً فى العهود القديمة، خاصة بعد رفض الملوك رسائل النبى – إلا بظهور الجيش الإسلامى والحكم الإسلامى دون أن يتضمن هذا بالضرورة مساساً قسرياً بحرية الاعتقاد. ولكن تطبيقاً لغرض أوجبه القرآن على المسلمين عندما جعلهم دعاة حضارة "لتكونوا شهداء على الناس" .

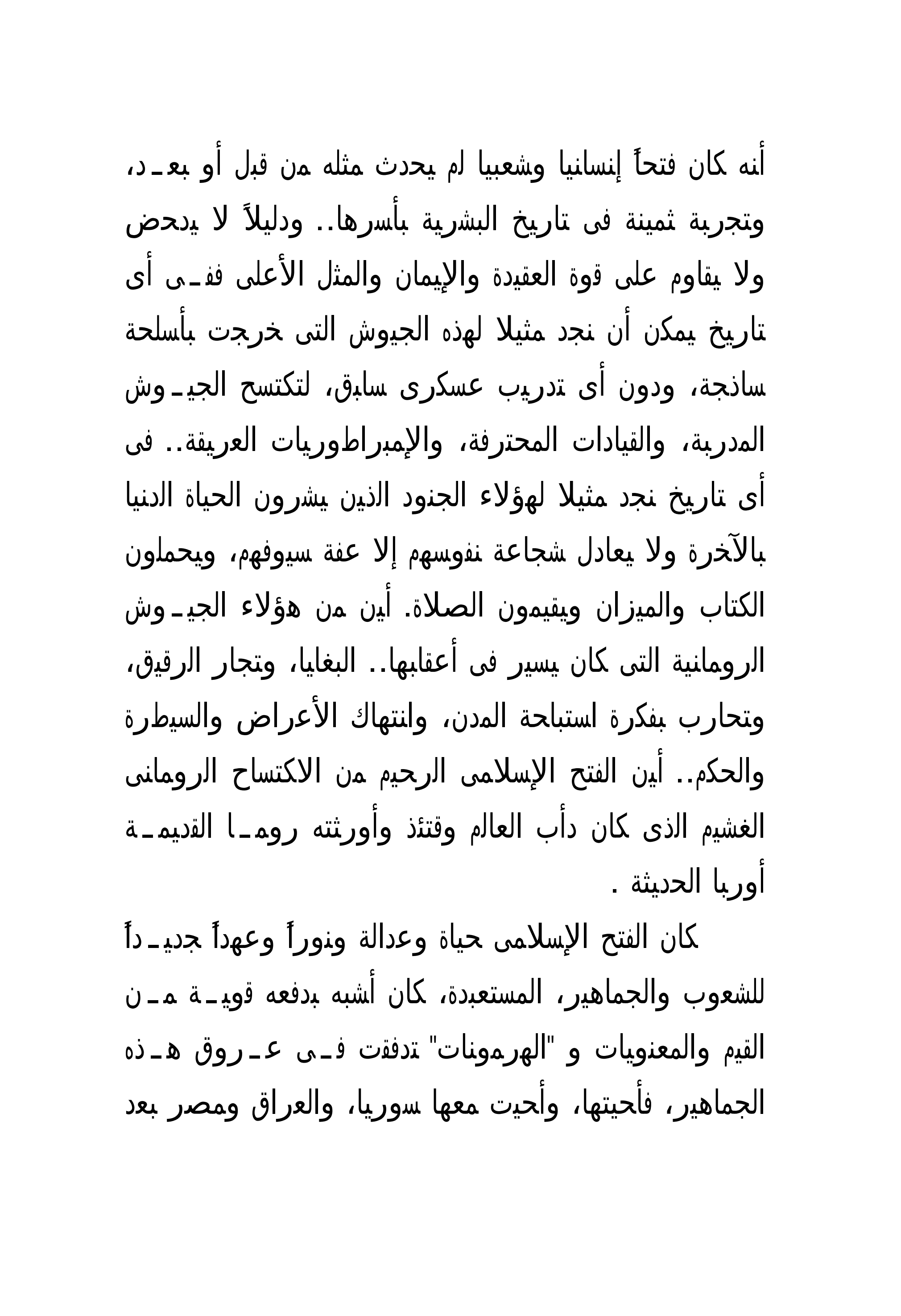
وقد يرى البعض أن الضريبة الإضافية التى فرضت على الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، ورفضوا الإيمان بالإسلام تمثل ضغطا يخالف حرية الاعتقاد، ولكن الأمر فى حقيقة الحال عكس ذلك. إذ هى البديل الوحيد عن جعل هؤلاء الناس ينخرطون فى خدمة الحكومة الإسلامية التى لا يؤمنون بها، ولولاها لجاز أن يؤخذوا ليكونوا جنوداً فى الجيش الإسلامى وعندئذ يلزمون الدفاع عن عقيدة لا يؤمنون بها. فالجزية هنا تمثل سبيلاً للاحتفاظ بالعقيدة وبديلاً عن القسر الذى لم يكن منه مناص نتيجة للتعقيد الاجتماعى وهى

ليست ثمنا للحرية، ولكنها ثمن العدالة والحماية، وكانت هذه الصفقة رابحة للذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أكثر مما كانـت رابحة للمسلمين. وقد سعد بها أصحابها على حساب المجتمع الإسلامى إلى درجة ساعدت – فيما بعـد – علـى ظهـور "الامتيازات" الأجنبية، وظهور مجتمعـات منفصـلة وشـبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامى .

وقد كان نظام الجزية من النظم المقررة. وقـد دفـع المسيح نفسه الجزية، وكانت لدى الرومان وغيـرهم ثقيلـة وباهظة .

وفى الحقيقة، فإنه لم يكون هناك حل لهـذه المعادلـة الصعبة سوى ذلك، وقد نجد مثيلاً لها فى حالة رفض بعض العمال الانضمام إلى النقابة، مع تمتعهم فى الوقـت نفسـه، بالمزايا التى تكتسبها النقابة وتسرى على كل العمال، فى هذه الحالة يفرض على العمال الذين لا يريدون الانضـمام إلـى النقابة دفع "رسم انتفاع" ويسمى هذا النظـام **Agency Shop** والجزية الإسلامية هى بدل الانتفاع هذا ..

وقد كان الجهاد الإسلامى الأول بكافة المعايير، وعلى امتداد العصور، مما لا يمكن للمؤرخ النزيه إلا أن يعتـرف



أنه كان فتحاً إنسانيا وشعبيا لم يحدث مثله من قبل أو بعـد، وتجربة ثمينة فى تاريخ البشرية بأسرها.. ودليلاً لا يدحض ولا يقاوم على قوة العقيدة والإيمان والمثل الأعلى ففـى أى تاريخ يمكن أن نجد مثيلا لهذه الجيوش التى خرجت بأسلحة ساذجة، ودون أى تدريب عسكرى سابق، لتكتسح الجيـوش المدربة، والقيادات المحترفة، والإمبراطوريات العريقة.. فى أى تاريخ نجد مثيلا لهؤلاء الجنود الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يعادل شجاعة نفوسهم إلا عفة سيوفهم، ويحملون الكتاب والميزان ويقيمون الصلاة. أين من هؤلاء الجيـوش الرومانية التى كان يسير فى أعقابها.. البغايا، وتجار الرقيق، وتحارب بفكرة استباحة المدن، وانتهاك الأعراض والسيطرة والحكم.. أين الفتح الإسلامى الرحيم من الاكتساح الرومانى الغشيم الذى كان دأب العالم وقتئذ وأورثته رومـا القديمـة أوربا الحديثة .

كان الفتح الإسلامى حياة وعدالة ونوراً وعهداً جديـداً للشعوب والجماهير، المستعبدة، كان أشبه بدفعه قويـة مـن القيم والمعنويات و "الهرمونات" تدفقت فـى عـروق هـذه الجماهير، فأحيتها، وأحيت معها سوريا، والعراق ومصر بعد

أن كان الاستبداد الرومانى قد أماتهـا، وأعطتهـا فرصـتها لتكون قوى مؤثرة فى تاريخ البشرية .

لقد كان من الممكن أن يتكرر هذا بالنسبة للشـعوب الأوربية، وكان من الممكن أن ينتشر نور الإسـلام ويبـدد ظلمات الجهالة الأوربية لو لم ينحسر الفتح الإسلامى عنـد "بواتيه" الأمر الذى جعل المؤرخ البريطانى الأشهر "جيبون" يرى فى هذا الانحسار، وانتصار شارل مارتل علـى عبـد الرحمن الغافقى كارثة أصابت أوربا.. وأخرت تقدمها .

مع هذا – أو بمعنى أصح لهذا – فـنحن نقـول إن تجربة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشـدين كانـت تجربة فريدة، شأنها شأن "دولة المدينة" لا يمكن أن تتكـرر ولا يمكن القياس عليها. وقد كانت هزيمة الجيش الإسـلامى عند بواتيه دليلاً على أن التجربة فقدت جدتها ومبرراتها لأن الهزيمة جاءت لحرص البربر الذين كانوا أغلبية الجيش على الغنائم التى أثقلوا أنفسهم بها طوال فتحهم، فدل ذلـك علـى أنهم فقدوا طبيعة الجنود الإسلاميين الذين "يعفون عند المغنم" وأنهم أصبحوا جيوشاً عادية كبقية الجيوش التـى تحـارب عصبية وطاعة، أو احترافاً واغتناماً الخ ...

ولم يعد هذا الأسلوب – أسلوب الحرب فـى سـبيل مثل أعلاً – متاحاً الآن لأن هناك بـدائل عديـدة للتعريـف بالمثل الأعلى لم تكن متاحة فى العهـد القـديم كالصـحافة والإذاعة والقنوات التليفزيونية المفتوحة على العالم أجمـع. ولأن تجربة التاريخ أثبتت أنه ليس المهم الفـتح العسـكرى بالجيوش ولكن غرس القيم الإسلامية. **ولـو أن المسـلمين عندما فتحوا أسبانيا وفتحوا الهند مارسوا أساليب الإسـلام الحقه فى الحكم، أو حتى بذلوا جهداً حقيقياً لغرس الإسـلام نفسه فى هذه البلاد لكانت شبه القارة الهندية أمة إسلامية** ولكانت أسبانيا دولة إسلامية، ولكن الملوك والأباطرة والقادة فى الهند – أباطرة المغول عكفوا على اللـذات والشـهوات وأنفقوا أموال الشعب على قصـورهم الـخ... كمـا شـغل المسلمون فى أسبانيا بحرب بعضهم بعض، وقل مثـل ذلـك سلاطين الترك ومماليك مصر والكياسره الصـفويين الـذين جعلوا شغلهم حرب بعضهم بعضاً، وكلهم مسلمون وحكمـوا البلاد فأكثروا فيها الفسـاد ﴿فَصـب علَـيهم ربـك سـوطَ عذَابٍ **(١٣)** إِن ربك لَبِالْمِرصادِ﴾. {١٤ الفجر} .

أضاع الحكام المسلمون بابتعادهم عن مثل الإسـلام الهند وأسبانيا. وكان نهر الفولجا فى أعماق روسيا يوماً مـا نهراً إسلاميا، كما كان اللوار فى عمق فرنسا كذلك. ولكـن المسلمين أضاعوا هذا كله. فلنأمل أن يتعلموا الدرس حتى لا تتكرر فى المستقبل تلـك الأخطـاء الفاحشـة التـى أودت بالماضى، لأنه وإن كـان المسـلمون قـد خسـروا القـوة العسكرية، فلا يزال لديهم القرآن ولو بشروا به (وليس بكلام فقهائهم) لفتحوا به ما خسروه بالسيوف. فليس المهم الفـتح، ولكن الفهم ...

الفصل السابع

الحلم المستحيل

الجهاد لإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة ا

تحدث الإمام الشهيد حسن البنا رحمه ا عن مقاصـد القتال فى الإسلام فأجملها فى :

١. رد العدوان والدفاع عن الـنفس والأهـل والمـال والوطن والدين .
٢. تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحـاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم
٣. حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعـاً ويتحـدد موقفهم منها .
٤. تأديب ناكثى العهد .
٥. إغاثة المظلومين من المؤمنين[١٢] .

---

(١) جاء ذلك فى مقال بمجلة الشهاب العددين الرابع والخامس فبرايـر – مارس سنة ١٩٤٨ ويمكن الرجوع إليها فى رسـالة السـلام فـى الإسلام وبحوث أخرى. التى أجملنا فيها كتابات الإمام الشهيد فى مجلة الشهاب ونشرناها تحت هذا الاسم. وقد أعيد نشرها بعد ذلك متفرقة .

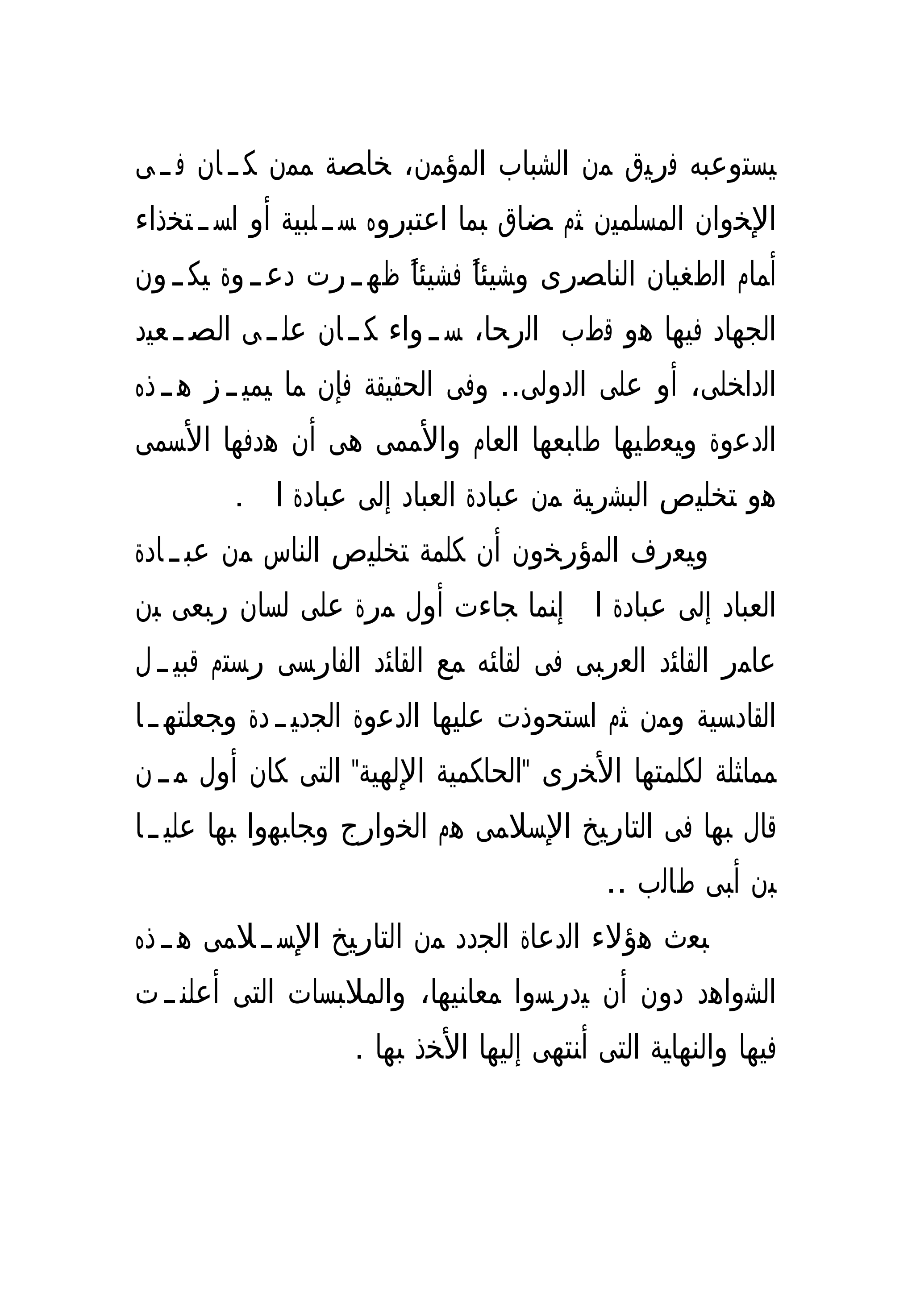
وقد أورد الإمام الشهيد هذا فى كتاباته الأخيرة التـى كان يحررها فى مجلة الشهاب سنتى ٤٧ و٤٨ أى أنها تمثل آخر الأقوال لديه حتى وإن لاحظنا أنهـا عاصـرت الأيـام العصيبة، أيام جهـاد متطـوعى الإخـوان المسـلمين فـى فلسطين .

ولكن التطورات السياسية المأساوية والعنيفة خاصـة حرب عبد الناصر على الإخوان المسلمين، ومأساة التعـذيب أدت إلى ظهور رأى آخر فى الجهاد، كجزء من نظرية فـى الدعوة الإسلامية أمن بها الذين اصطلوا بنار هذه العـداوات وتعرضوا للتعذيب، وكانت هذه النظرية تتفق مع الظـروف الشاذة التى مرت بها الدعوة الإسلامية من ناحيـة. وتخـبط التجربة الناصرية المشئومة من ناحية أخرى ووجدت داعيتها فى الكاتب الموهوب الأستاذ سيد قطب الذى صـاغها فـى كتاب "معالم على الطريق" فى سطور ملتهبة تنضح بالإيمان وبكل ما يوجده الإيمان من تأكيد وثقة[١٣] .

ولم تنتبه السلطات المسئولة لخطورة "معالم الطريـق" ولهذا نشر الكتاب أكثر من مرة ووجد فرصته كاملـة لكـى

---

(١) لقد شرحنا ملابسات ذلك بإفاضة فى كتابنا "رسالة إلى الـدعوات المعاصرة" دار الفكر الإسلامى الصفحات ٩٩ – ١٠٦ .



يستوعبه فريق من الشباب المؤمن، خاصة ممن كـان فـى الإخوان المسلمين ثم ضاق بما اعتبروه سـلبية أو اسـتخذاء أمام الطغيان الناصرى وشيئاً فشيئاً ظهـرت دعـوة يكـون الجهاد فيها هو قطب الرحا، سـواء كـان علـى الصـعيد الداخلى، أو على الدولى.. وفى الحقيقة فإن ما يميـز هـذه الدعوة ويعطيها طابعها العام والأممى هى أن هدفها الأسمى هو تخليص البشرية من عبادة العباد إلى عبادة ا .

ويعرف المؤرخون أن كلمة تخليص الناس من عبـادة العباد إلى عبادة ا إنما جاءت أول مرة على لسان ربعى بن عامر القائد العربى فى لقائه مع القائد الفارسى رستم قبيـل القادسية ومن ثم استحوذت عليها الدعوة الجديـدة وجعلتهـا مماثلة لكلمتها الأخرى "الحاكمية الإلهية" التى كان أول مـن قال بها فى التاريخ الإسلامى هم الخوارج وجابهوا بها عليـا بن أبى طالب ..

بعث هؤلاء الدعاة الجدد من التاريخ الإسـلامى هـذه الشواهد دون أن يدرسوا معانيها، والملابسات التى أعلنـت فيها والنهاية التى أنتهى إليها الأخذ بها .

وحمل سيد قطب رحمه ا وعفا عنه، على الذين يذهبون إلى أن الجهاد فى الإسلام له طابع دفاعى وأطلق عليهم "المهزومين" وذهب إلى أنهم فى اتجاههم هذا يسايرون المستشرقين الذين يكيدون للإسلام .

وأخص انتقاداته لهؤلاء "المهزومين أنهم بألفاظه". [يخلطون ما بين منهج الإسلام فى استنكار الإكراه فى الدين ومنهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه، والتى تعبد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية .. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هذا التخليط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! – يحاولون أن يحصروا الجهاد فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية".. والجهاد فى الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا ببواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة "الإسلام" ذاته ودوره فى هذه الأرض، وأهدافه العليا التى قررها ا ، وذكر ا أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات .

إن هذا الدين إعلان عـام لتحريـر "الإنسـان" فـى "الأرض" من العبودية للعباد – ومن العبودية لهـواه أيضـا وهى من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهيـة الله وحـده سبحانه – وربوبيته للعالمين. إن إعلان ربوبيـة الله وحـده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كـل صورها وإشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة مـن الصور.. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشـر فـى صورة من الصور.. ذلك أن الحكم الذى مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليـه للبشـر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هـذا الإعـلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلـى الله، وطـرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد.. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فـى الأرض، أو بالتعبير القرآنى الكريم :

- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ .
- ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ .

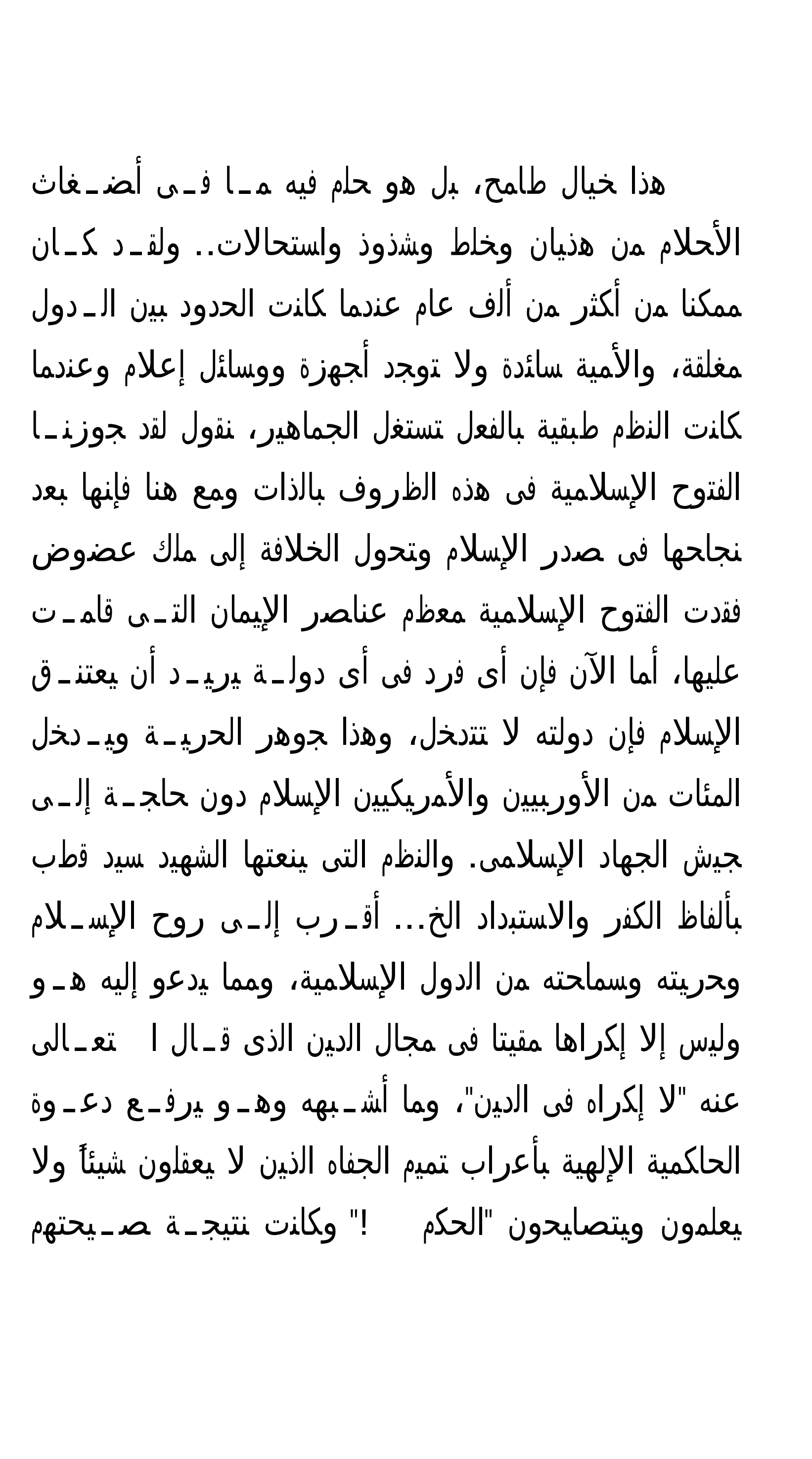
- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

وقيام مملكة ا فى الأرض، وإزالة مملكـة البشـر، وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى ا وحده.. وسيادة الشريعة الإلهية وحـدها وإلغـاء القـوانين البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجـرد التبليـغ والبيـان، لأن المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان ا فـى الأرض، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين ا علـى الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات ا وسـلامه عليهم – وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال] انتهى[١٤] .

الجهاد هنا فى رأى سيد قطب رحمه ا هو الوسـيلة فى يد المسلمين ليدافعوا عن حق ا الذى اغتصـبته الـنظم وحق العباد الذى حرموا من عبوديـة ا وأجبـروا علـى عبودية البشر. وهذا فيما يرى لا يدخل فيه إكراه !

---

(١) معالم فى الطريق – سيد قطـب ص ٥٩- ٦٠ طبعـة الاتحـاد العالمى للمنظمات الطلابية سنة ١٩٧٨ م .



هذا خيال طامح، بل هو حلم فيه ما فى أضغاث الأحلام من هذيان وخلط وشذوذ واستحالات.. ولقد كان ممكنا من أكثر من ألف عام عندما كانت الحدود بين الدول مغلقة، والأمية سائدة ولا توجد أجهزة ووسائل إعلام وعندما كانت النظم طبقية بالفعل تستغل الجماهير، نقول لقد جوزنا الفتوح الإسلامية فى هذه الظروف بالذات ومع هنا فإنها بعد نجاحها فى صدر الإسلام وتحول الخلافة إلى ملك عضوض فقدت الفتوح الإسلامية معظم عناصر الإيمان التى قامت عليها، أما الآن فإن أى فرد فى أى دولة يريد أن يعتنق الإسلام فإن دولته لا تتدخل، وهذا جوهر الحرية ويدخل المئات من الأوربيين والأمريكيين الإسلام دون حاجة إلى جيش الجهاد الإسلامى. والنظم التى ينعتها الشهيد سيد قطب بألفاظ الكفر والاستبداد الخ... أقرب إلى روح الإسلام وحريته وسماحته من الدول الإسلامية، ومما يدعو إليه هو وليس إلا إكراها مقيتا فى مجال الدين الذى قال ا تعالى عنه "لا إكراه فى الدين"، وما أشبهه وهو يرفع دعوة الحاكمية الإلهية بأعراب تميم الجفاه الذين لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون ويتصايحون "الحكم !" وكانت نتيجة صيحتهم

المشئومة تلك قتل على بن أبى طالب وإنهاء الخلافة وبـدء الملك العضوض. ومع هذا يرى شاعرهم المغفـل أن قاتـل على بن أبى طالب "أوفى البرية عند ا ميزاناً !!" .

ظهرت ناشئة جديدة جعلتها ظروفها مهيئة لتقبل فكـر سيد قطب رحمه ا . وأخذوا فى تكوين هيئات عديدة تحـت أسماء مختلفة أبرزها الجماعة الإسلامية والجهاد تتفق علـى اختلافها فى الإيمان بالفكرة التى عرضها الشهيد سيد قطـب عن الجهاد ..

وقد نشرت الجماعة الإسلامية ميثاق العمل الإسـلامى وحمل أسماء عاصم عبد الماجد، وعصـام الـدين دربالـه، وناجح إبراهيم عبد ا . وهو كالآتى:

[**غايتنا:** رضا ا تعالى بتجريد الإخلاص له سبحانه وتحقيق المتابعة لنبيه صلى ا عليه وسلم .

عقيدتنا: عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلاً .

فهمنا: نفهم الإسلام بشموله كما فهمه علمـاء الأمـة الثقات المتبعون لسنة النبى ﷺ وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهديين رضى ا عنهم .

هدفنا: * تعبيد الناس لربهم .

*إقامة خلافة على نهج النبوة .

طريقنا: الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر والجهاد فى سبيل ا من خلال جماعة منضـبطة حركتهـا بالشرع الحنيف تأبى المداهنة أو الركون وتستوعب ما سبقها من تجارب .

زادنا: تقوى وعلم.. يقين وتوكل.. شكر وصبر.. زهد فى الدنيا وإيثار للآخرة .

ولاؤنا: ولرسوله وللمؤمنين .

عداؤنا: للظالمين .

اجتماعنا: لغاية واحدة.. بعقيدة واحدة.. تحـت رايـة وحدة فكرية واحدة] انتهى ..

إننا نجد دعوة جادة مخلصة حافلة بالمعـانى النبيلـة المؤثرة وتتمحور حول أن تكون للحياة غاية ومغزى وترتبط بالإسلام ولها طابع أخلاقى ملتزم. وهى مثـل كـل دعـوة إسلامية تسـتلهم الإسـلام وتجعـل ولاءهـا ولرسـوله وللمؤمنين وعداءها للظالمين ..

مثل هذه الرسالة فـى الحقبـة التـى سـادت فيهـا الانهزامية، والانتهازية وسقطت الفنـون والآداب وأصـبح

المسرح كباريه وشجعت الدولة الإسفاف والشهوات لتشـغل الناس وارتفعت الدعايات اليسارية بعد أن شغل اليسـاريون منابر الإعلام. فى هذا الجو الوبيل تبدو رسـالة "الجماعـة الإسلامية" مرفأ سلام وأمان لسفينة الشباب الضـائع، التائـه المتخبط بين الأمواج .

ولكن وآسفاه ...

إن فهم الجماعة الإسلامية لمضمون الجهـاد يطمـس الكلمات البريئة التى أجملت فيها عقيدتها وغايتها، بل إن هذا المضمون يسخر عقيدتها وفكرتها الخ... لفكـره مسـيطرة، مستحوزه، متحكمة تؤدى إلى طاغوت وكابوس وتحسب أنها تحقق تحريراً وإنقاذاً وتقذف بالناس إلى الظلمات بدلاً من أن تنقذهم منها .

لقد جعلت الجماعة الإسلامية الآية ﴿وقَاتِلُوهم حتى لا تَكُون فِتْنَةٌ ويكُون الدين كُله ﴾.. شعاراً لها وقد شرحنا هذه الآية مراراً وتكراراً عندما عرضنا لها فى باب آيات القتـال فى القرآن الكريم من هذه الرسالة .

ولكن الجماعة الإسلامية فهمت شيئاً آخر لأن الجماعة ترى أن الإسلام بألفاظها [جاء ليدخل الخلق كلهم فى دين ا

تعالى وشرعه ﴿ قُلْ يا أَيها الناس إِني رسولُ اللهِ إِلَيكُم جمِيعا الذِي له ملْك السماواتِ والأَرضِ لا إِلَه إِلا هوَ ﴾ .

وجاء أيضاً ليمحو الشرك فى كل صوره مـن فـوق ظهر الأرض "حتى يعبد ا وحده لا شريك له" كمـا قـال صلى ا عليه وسلم ..

نعم كان القتال دعوة للتوحيد بنص حديث رسـول ا ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا ا وأن محمداً رسول ا " .

كان القتال دعوة للتوحيد لأن الإمبراطوريات والممالك أبت بسلطانها ونفوذها أن تسمح لدعوة التوحيد ودعاته بالنفاذ إلى أرض ا وخلق ا بحجة أن هذه أرضها هى، وهؤلاء رعاياها.. فكان لابد من القتال .

وكان القتال سحقا للشرك بإزالة هذه الطواغيت التـى علت تلك المجتمعات حاكمة آمرة ناهية، تشرع للناس وتحمل الناس على التحاكم لشرعتها وتجبرهم على الخضوع لهـا.. رغبة ورهبة ..

كان لابد من القتال لإزالة كل سلطان يعبـد مـن دون ا .. لإزالة كل سلطان يقف فى وجه دعوة الإسلام.. لإزالة

كل سلطان يأبى أن يدخل فى دين ا ويستكبر ويـرفض أن يذعن ويدفع الجزية، ويصر على أن يعلو ويهيمن .

كان لابد من القتال لإزالة الفتنة.. وسـحق الشـرك.. وإعلاء شرع ا ﴿وقَاتِلُوهم حتى لا تَكُون ِفتْنَةٌ ويكُون الدين ِللهِ﴾ ..

إن أحد لم يخلق من دون ا .. وإن أحداً لم يخلق مـع ا .. لذا فإنه ليس من حق أحد أن يشـرع مـن دون ا .. وليس من حق أحد أن يشرع مع ا . قال ابن تيميـه "لـيس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق ا ، لا بين المسـلمين، ولا الكفار.. إلا بحكم ا ورسوله" ..

إن الناس لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا الأرض التـى عليها يحيون وعليها تقوم مجتمعاتهم، لذا فإنه ليس من حقهم أن يهيمنوا أو يهيمن بعضهم ليشرع ويحكم ويأمر وينهى من دون ا ..

إننا كمسلمين – مأمورون أن لا ندع أى طائفة علـى وجه الأرض تحكم الناس بغير شرع ا ..

فمن أبى ذلك ورفض الإذعان قاتلناه ..

يقولون: هذه وصاية منكم على البشـرية !!.. نقـول: هذه وصاية شرع ا ودينه على أرض ا وخلقـه، نحـن مأمورون بتحقيقها لصالح البشرية بوصفنا خير أمة أخرجت للناس .

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة فى القلب فقط حتى نقنع بحكايتها باللسان والدفاع عنها بالقلم والبرهان ثـم نمضـى قائلين: ﴿فَمن شاَء فَلْيؤْمِن ومن شاَء فَلْيكْفُر﴾. لا هـذا فهـم أعوج مبتور.. إن الإسلام منهج حياة، إنه شرع ا الذى جاء ليسير حياة الخلق.. لذا فنحن لا نكتفى بخطبـة أو موعظـة نقول فيها "عقيدتنا" وندافع عنها وكفى.. كما أنا لا نقنع بحلقة علم نعلم فيها أو نتعلم بعض المناسك والشعائر وكفى.. بـل لابد وأن ننطلق بهذا الدين دعوة باللسان، وحجـة بالبيـان، ودعوة بالحسنى، وجهاداً بالسـيف.. أمـا اللسـان والبيـان والحسنى فللقلوب والعقول، فإن آمنت فيها ونعمت، وإن أبت فالجزية والصغار وعلو أحكام الإسلام علـى الـديار، فـإن امتنعت واستكبرت وعاندت ولم تسلم لنـا القيـاد فالسـيف السيف.. حتى تنزاح هذه الطواغيت، وبعد ذلك نقول ﴿فَمـن شاَء فَلْيؤْمِن ومن شاَء فَلْيكْفُر﴾..] انتهى .

* * *

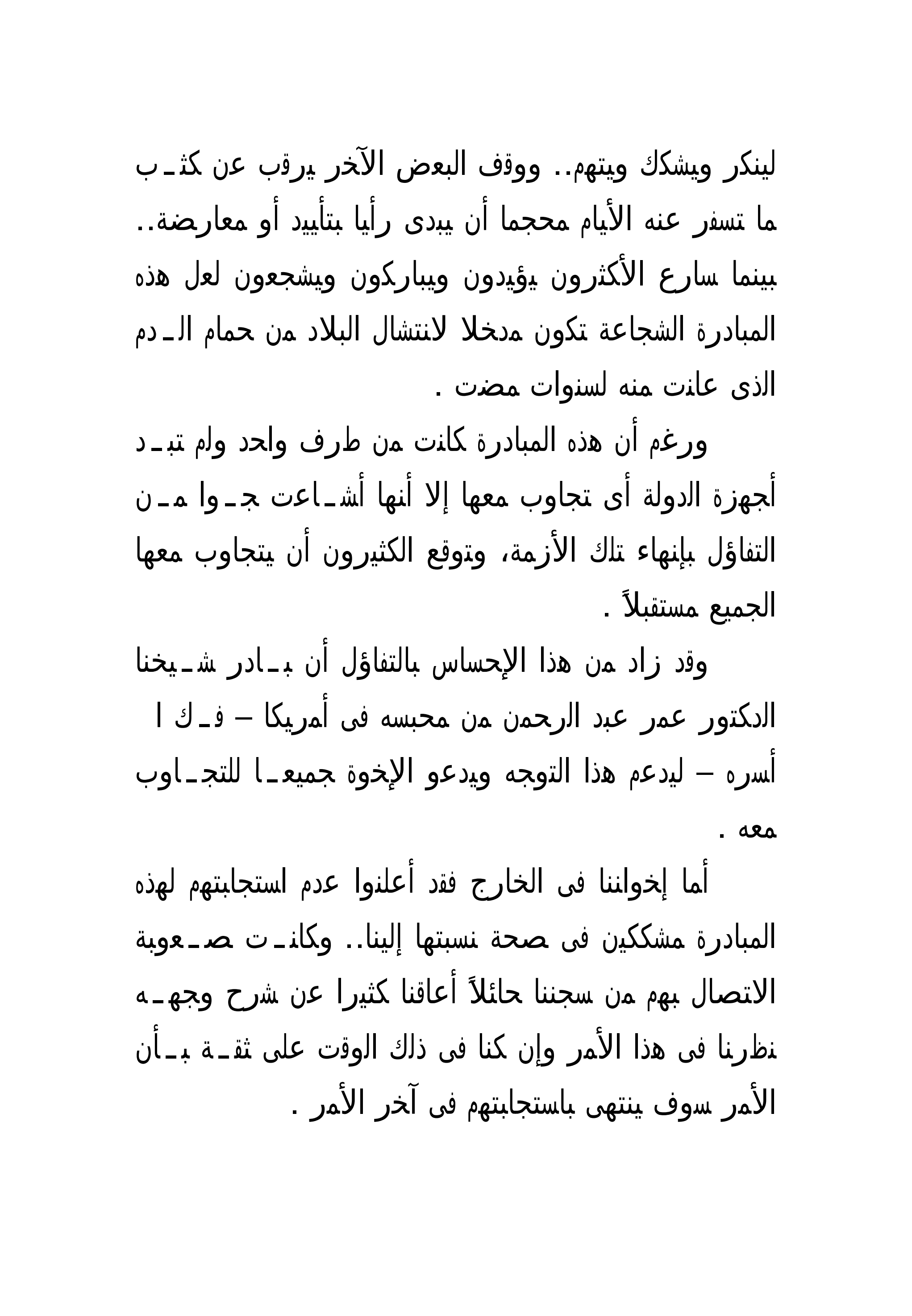
بعد ثلاثين عاماً من الاحتباس فى السجون، والعذاب، وبعد أن استشرت أفعال فريق مـن الجماعـات الإسـلامية وذهب بها التطرف كل مذهب وأسفرت أعمالهم عـن شـر النتائج، وبعد أن قتلوا السادات وهو الذى أعلن حرب أكتوبر تحت لواء "الله أكبر" وأغلق المعتقلات وصفى الحراسـات وحاول أن يقضى على رواسب الناصرية المقيتة ...

بعد أن تخبطوا ثلاثين سنة، وأخذوا المجتمع المصرى فى ذيل تخبطاتهم تبينوا أنهم كانوا فى ضلال عميق ..

وجاءت مبادرة ترك العنف ..

[ففى الخامس من يوليو سـنة ١٩٩٧ وأثنـاء نظـر القضية العسكرية ٢٣٥ فوجئ الحاضـرون بأحـد الإخـوة المتهمين فى هذه القضية وهو يقف فـى مواجهـة رجـال الإعلام ليلقى بيانا مذيلاً بتوقيع القادة التـاريخيين للجماعـة الإسلامية يدعو الإخوة لإيقاف العمليـات القتاليـة وحقـن الدماء .

كانت هذه المفاجأة – كما يقال – كمن ألقى حجراً فى ماء راكد سرعان ما تتابعت تداعياته.. حيث سارع الـبعض



لينكر ويشكك ويتهم.. ووقف البعض الآخر يرقب عن كثـب ما تسفر عنه الأيام محجما أن يبدى رأيا بتأييد أو معارضة.. بينما سارع الأكثرون يؤيدون ويباركون ويشجعون لعل هذه المبادرة الشجاعة تكون مدخلا لانتشال البلاد من حمام الـدم الذى عانت منه لسنوات مضت .

ورغم أن هذه المبادرة كانت من طرف واحد ولم تبـد أجهزة الدولة أى تجاوب معها إلا أنها أشـاعت جـوا مـن التفاؤل بإنهاء تلك الأزمة، وتوقع الكثيرون أن يتجاوب معها الجميع مستقبلاً .

وقد زاد من هذا الإحساس بالتفاؤل أن بـادر شـيخنا الدكتور عمر عبد الرحمن من محبسه فى أمريكا – فـك ا أسره – ليدعم هذا التوجه ويدعو الإخوة جميعـا للتجـاوب معه .

أما إخواننا فى الخارج فقد أعلنوا عدم استجابتهم لهذه المبادرة مشككين فى صحة نسبتها إلينا.. وكانـت صـعوبة الاتصال بهم من سجننا حائلاً أعاقنا كثيرا عن شرح وجهـه نظرنا فى هذا الأمر وإن كنا فى ذلك الوقت على ثقـة بـأن الأمر سوف ينتهى باستجابتهم فى آخر الأمر .

وفى غمرة سعينا فى البحث عن سبيل لشرح وجهة نظرنا لإخواننا مع تتابع تداعيات هذه المبادرة على الرأى العام وأجهزة الدولة فوجئنا بحادث الأقصر .

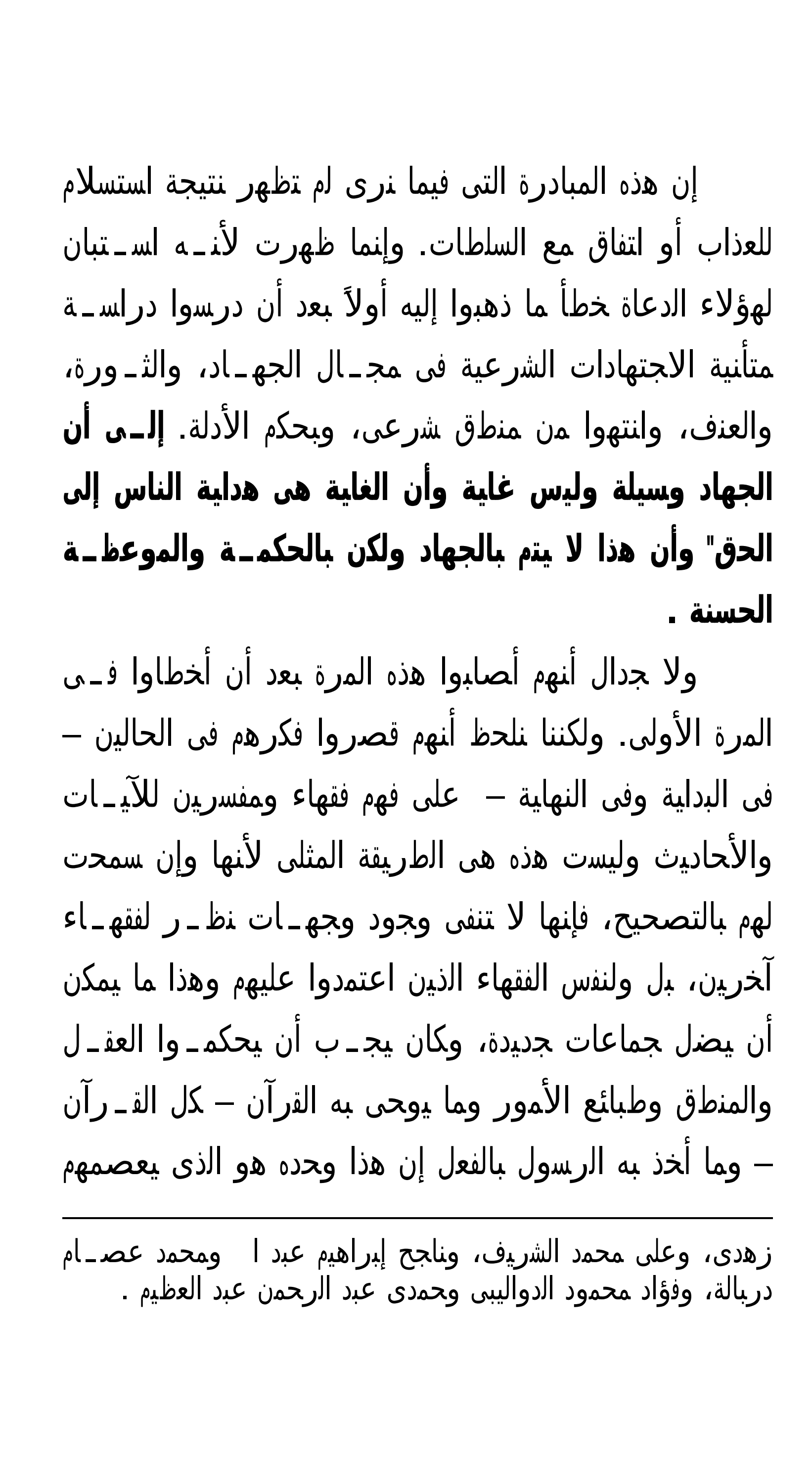
وكانت صدمة لنا جميعا.. إذ كان الحادث بما فيه من اعتداء على النساء والأطفال والتمثيل بهم غريباً على منهجنا وتفكيرنا وكان صدى هذا الحادث متفاوتا .

فقد أعلنا تمسكنا بمبادرتنا رغم تسرب شىء من الإحباط إلى نفوسنا.. فى الوقت الذى أحدث صداه فى نفوس إخواننا بالخارج وبدأ تأييدهم فرادى يتوالى حتى أعلنوا بجملتهم بيانهم فى ٢٨ مارس سنة ١٩٩٩ بالتأييد الكامل ووقف كل العمليات تماماً والبيانات المحرضة عليها .

وهكذا تحولت المبادرة إلى رأس جسر يحتشد من خلفه كل أبناء الجماعة، وكلهم أمل فى أن ينفضوا عن أكتافهم أثر تلك الأيام العصيبة ليعودوا إلى مهمتهم الأصلية كدعاة إلى ا يشاركون فى هداية الخلائق إلى طريق ا القويم. وها هى سنوات أربع تمر على المبادرة ولا زلنا نشعر بالراحة ونحن نرى شجرة مبادرتنا تتنامى على مهل(١٥).] انتهى ..

---

(١) كتاب مبادرة وقف العنف – رؤية واقعية ونظرة شرعية تأليف إسامة إبراهيم حافظ، عاصم عبد الماجد، وأقره وراجعة كرم محمد



إن هذه المبادرة التى فيما نرى لم تظهر نتيجة استسلام للعذاب أو اتفاق مع السلطات. وإنما ظهرت لأنـه اسـتبان لهؤلاء الدعاة خطأ ما ذهبوا إليه أولاً بعد أن درسوا دراسـة متأنية الاجتهادات الشرعية فى مجـال الجهـاد، والثـورة، والعنف، وانتهوا من منطق شرعى، وبحكم الأدلة. **إلـى أن الجهاد وسيلة وليس غاية وأن الغاية هى هداية الناس إلى الحق" وأن هذا لا يتم بالجهاد ولكن بالحكمـة والموعظـة الحسنة .**

ولا جدال أنهم أصابوا هذه المرة بعد أن أخطاوا فـى المرة الأولى. ولكننا نلحظ أنهم قصروا فكرهم فى الحالين – فى البداية وفى النهاية – على فهم فقهاء ومفسرين للآيـات والأحاديث وليست هذه هى الطريقة المثلى لأنها وإن سمحت لهم بالتصحيح، فإنها لا تنفى وجود وجهـات نظـر لفقهـاء آخرين، بل ولنفس الفقهاء الذين اعتمدوا عليهم وهذا ما يمكن أن يضل جماعات جديدة، وكان يجـب أن يحكمـوا العقـل والمنطق وطبائع الأمور وما يوحى به القرآن – كل القـرآن – وما أخذ به الرسول بالفعل إن هذا وحده هو الذى يعصمهم

زهدى، وعلى محمد الشريف، وناجح إبراهيم عبد ا ومحمد عصـام دربالة، وفؤاد محمود الدواليبى وحمدى عبد الرحمن عبد العظيم .

من أن يقعوا فى أخطاء جديدة. إن فقه السـلف الصـالح لا يمكن أن يحسم الموضوع فقد ينقذهم فى ناحية ويوقعهم مـن ناحية أخرى .

وليس هذا مجرد نقد لموقف الجماعة الإسـلامية أنـه تصحيح المفاهيم. إن الذين أرادوا استنقاذ البشرية من جاهلية تعبيد العباد للعباد إلى تعبيدهم ، وآمنوا بضرورة إعـلان الجهاد على كل النظم الأخرى اخطأوا خطأ جذريا أساسـياً. فى الوسيلة وفى الغاية فإنهم اعتبروا الجهاد، والقوة والسلاح هى وسيلة تدمير النظم الحاكمة التى رأوا أنها تحول دون أن تكون كلمة ا هى العليا فى حين أن القرآن الكريم اسـتبعد القوة نهائياً من مجال الهداية. ولم يستخدم السيف إلا درء أو حماية لعرض أو مال، أو عقيدة وقد أرسل الرسول  إلـى الملوك خطابات يدعوهم، ولم يرسل إليهم جيوشاً تحـاربهم، والفتوح الإسلامية هى ظاهرة تاريخية وليست أصلاً عقيديا، شأنها فى ذلك شأن "دولة المدينة" التى كانت بدورها ثمـرة لتطورات عملية وواقعية ولم تكن تحقيقاً لمقتضيات العقيـدة ولكن نتيجة لتطورات تاريخية أدت لظهورها وقد قلنـا فـى إحدى المناسبات إن دولة المدينة تجربة فريدة لا تتكرر ومن

هنا يكون القياس عليها خطأ، وهذا ما يمكن أن يقـال علـى الفتوحات الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام .

وقد تحدثنا عن الفتوحات الإسلامية من قبل. لهذا فإن إقحام السيف فى مجال الهداية خطأ وانحراف عمـا أراده ا وعما مارسه الرسول .

وأما فى الغاية فإنهم أرادوا حمل "البشرية قاطبة على الهداية" وفيم هم من هذا ولو أراد ا تعالى هذا لغيـر فـى السنن والمبادئ التى يقوم عليها المجتمع الإنسـانى بحيـث يمكن تحقيق هذا. ولكنه تعالى أراد هذا الاختلاف أراد هـذه التعددية. ولام الرسول لحزنه وبخعه لنفسه أن لم يؤمن بـه المشركون، وقال له بصريح العبارة.. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. {٣٥ الأنعام} ..

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. {١٣٤ البقرة} ..

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {١٣٧ البقرة} ..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. {١٠٥ المائدة} ..

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. {٩٩ يونس} ..

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {٦ الكافرون} ..

فهذه آيات صادعة فى أن ا تعـالى أراد التعدديـة، وأراد أن يوجد الاختلاف، وأن ليس على المـؤمنين هدايـة هؤلاء ولا يضر المؤمنين من ضل إذا اهتدوا. وهناك لـوم وتقريع لمن يريد أن يجعل الناس كلهم مؤمنين، ولو شاء ا لجعل الناس أمه واحدة الخ ...

في ضوء هذه الآيات الصريحة القوية الصادعة يكون الجهاد "لإنقاذ البشرية من تعبيد العباد إلى تعبيدها " افتيات ـاً على المشيئة الإلهية وإعلاء لفهمهم الخاص عليها. ويغلـ ب دائماً أن يكمن في أعمق أعماق من ينادون بمثل هذه الخطوة عرق ينزع للسلطة والديكتاتورية وإعلاء الذات وهو الشـ ر المستطير الذي أوتيت منه النظم السياسية فـ ي المجتمعـ ات الإسلامية ..

ومن ناحية مقابلة فإن ا تعالى يوصينا أن نتعامل مع كل الذين آمنوا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . {٦٩ المائدة}

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . {١٧ الحج} ..

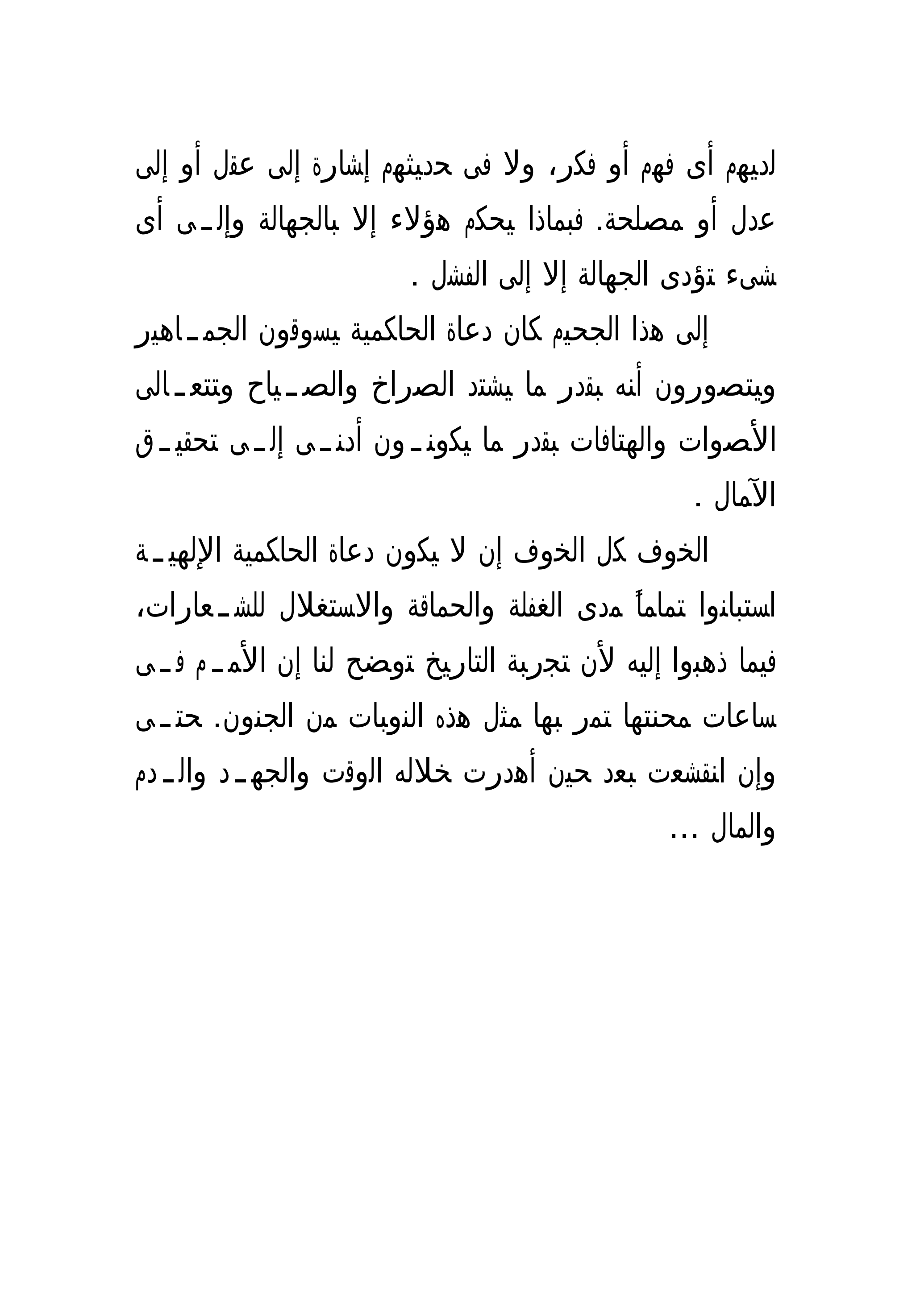
لقد جمعت هذه الآية كل شرعه مما قد يراها مـ ن لا يؤمن بها ضالة، أو نحلة كافرة، وتركت أمرها ..

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. {٨ الممتحنة} ..

والأنكى والأسوأ أن كل هذه الحماسة والإيمان والتأكد يدور حول تعبير بقدر ما يبدو صحيحاً فى ظاهرة بقدر ما يكون خطيراً وهداما إذا أريد تحقيقه بغير ما رسمه ا وطبقه الرسول .

إن هذه المأساة ليست جديدة على التاريخ الإسلامى لقد كان هى الأولى التى فتحت باب الفتن والضلال وأدت إلى الحروب وسفك الدماء وأودت بعهد الإمام على وجاءت بملك بمعاوية

وقد تملك الغضب الإمام على، وهو يسمع تصايح هؤلاء الأعراب الجفاة لا حكم إلا .. بعد أن جازت عليهم خدعة المصاحف على أسنة الرماح.. فأمر بدعوة الصحابة وجاء بمصحف إمام كبير وجعل يخبط عليه ويقول يا مصحف حدثهم.. ليوضح لهم حماقة هؤلاء الأغبياء. فإن القرآن الكريم لن يتحدث ولن ينطق، وأن ا تعالى لن ينزل ملائكة يحكمون. وإنما سيتولى الأمر هؤلاء الحمقى وليس



لديهم أى فهم أو فكر، ولا فى حديثهم إشارة إلى عقل أو إلى عدل أو مصلحة. فبماذا يحكم هؤلاء إلا بالجهالة وإلى أى شىء تؤدى الجهالة إلا إلى الفشل .

إلى هذا الجحيم كان دعاة الحاكمية يسوقون الجماهير ويتصورون أنه بقدر ما يشتد الصراخ والصياح وتتعالى الأصوات والهتافات بقدر ما يكونون أدنى إلى تحقيق الآمال .

الخوف كل الخوف إن لا يكون دعاة الحاكمية الإلهية استبانوا تماماً مدى الغفلة والحماقة والاستغلال للشعارات، فيما ذهبوا إليه لأن تجربة التاريخ توضح لنا إن الأمم فى ساعات محنتها تمر بها مثل هذه النوبات من الجنون. حتى وإن انقشعت بعد حين أهدرت خلاله الوقت والجهد والدم والمال ...

خاتمة

الجهاد الإسلامى المطلوب اليوم الجهاد ضد التخلف

جهاد "الحياة فى سبيل ا "

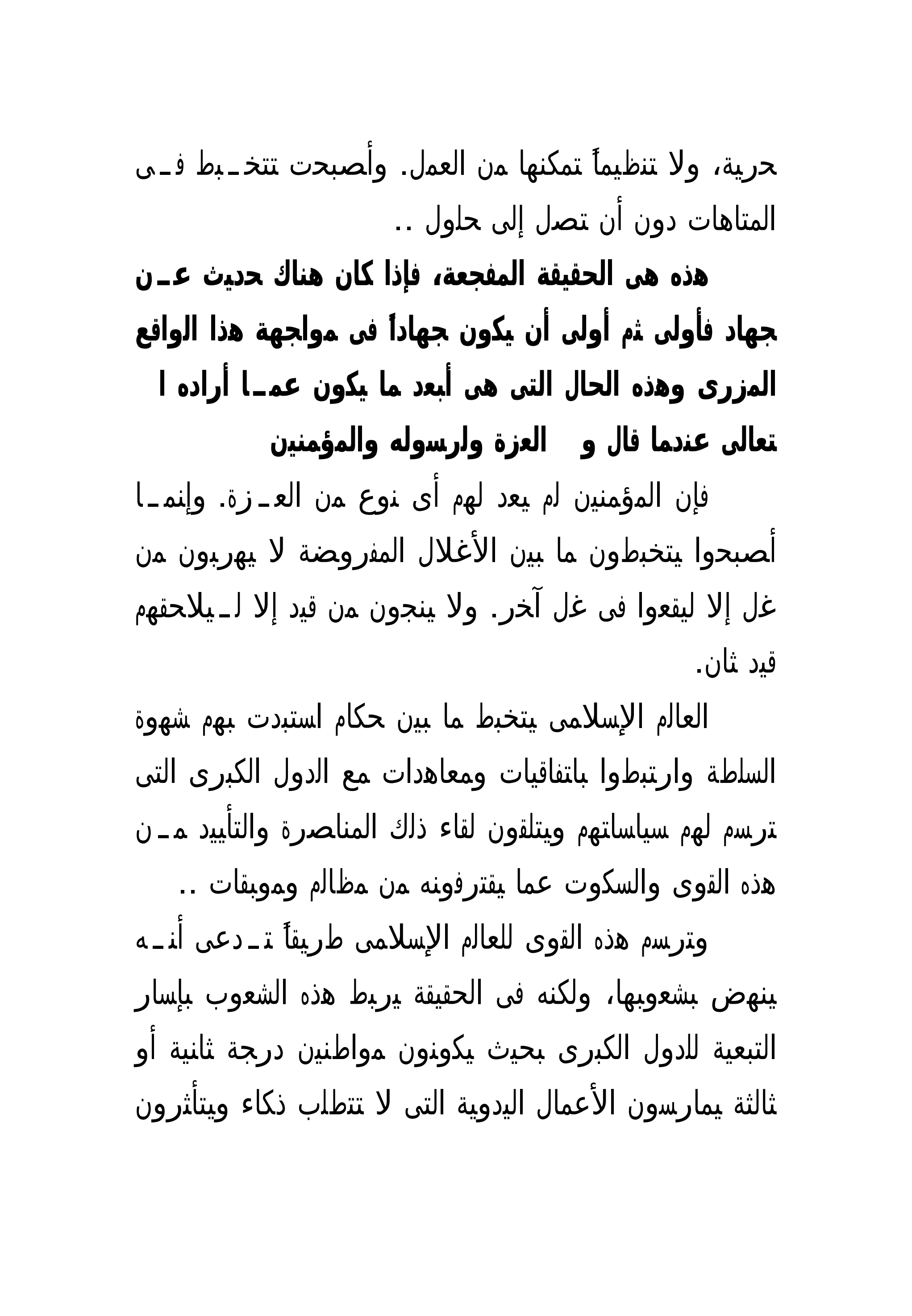
قد يكون من حق الشاعر جميل بثينة أن يقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد

كما قد يكون من حق جماعة الجهاد أن ترى أن الجهاد على طريقة غزوات الرسول هو "الفريضة الغائبة" ..

من حق هؤلاء وأولئك، ومن حق غيـرهم أيضـاً أن يقولوا ما يشاءوا. ولكن هذا لا يغير الحقيقة التـى تفـرض نفسها فرضا على الجميع. تلك هى أن العالم الإسلامى بأسره اليوم هو فى الدرك الأدنى بمـوازين القـوة: قـوة البـأس العسكرية: قوة المال الاقتصادية. قوة المؤسسـات الراسـخة والنظم المستقرة. وان أهله أصـبحوا قطيعـاً مـن الجيـاع العراة.. الذين غلبت عليهم الذله والمسكنة وتحكمـت فـيهم عصابات من الحكام الطغاة. وأن الشعوب لا تملك ثقافة، ولا



حرية، ولا تنظيماً تمكنها من العمل. وأصبحت تتخـبط فـى المتاهات دون أن تصل إلى حلول ..

هذه هى الحقيقة المفجعة، فإذا كان هناك حديث عـن جهاد فأولى ثم أولى أن يكون جهاداً فى مواجهة هذا الواقع المزرى وهذه الحال التى هى أبعد ما يكون عمـا أراده ا تعالى عندما قال و العزة ولرسوله والمؤمنين

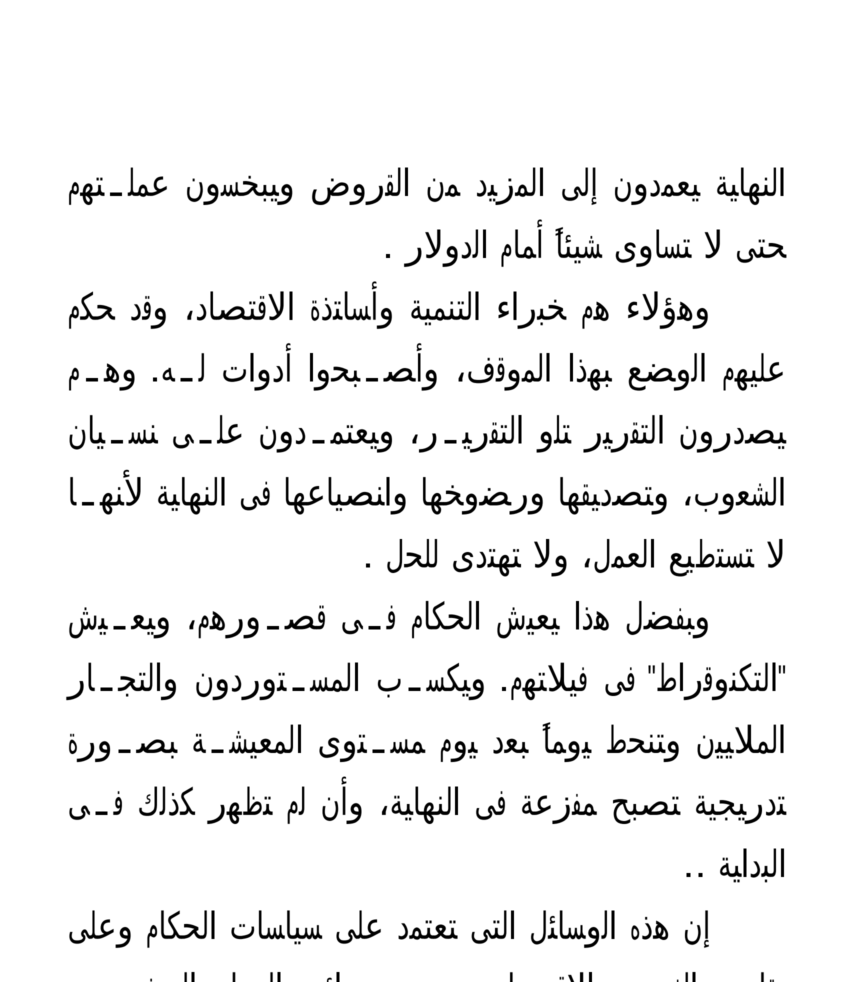
فإن المؤمنين لم يعد لهم أى نوع من العـزة. وإنمـا أصبحوا يتخبطون ما بين الأغلال المفروضة لا يهربون من غل إلا ليقعوا فى غل آخر. ولا ينجون من قيد إلا لـيلاحقهم قيد ثان.

العالم الإسلامى يتخبط ما بين حكام استبدت بهم شهوة السلطة وارتبطوا باتفاقيات ومعاهدات مع الدول الكبرى التى ترسم لهم سياساتهم ويتلقون لقاء ذلك المناصرة والتأييد مـن هذه القوى والسكوت عما يقترفونه من مظالم وموبقات ..

وترسم هذه القوى للعالم الإسلامى طريقاً تـدعى أنـه ينهض بشعوبها، ولكنه فى الحقيقة يربط هذه الشعوب بإسار التبعية للدول الكبرى بحيث يكونون مواطنين درجة ثانية أو ثالثة يمارسون الأعمال اليدوية التى لا تتطلب ذكاء ويتأثرون

بأسوء مكونات الثقافة الحديثة التى تجعلهم أسرى الاستهلاك والعاجزين فى الوقت نفسه عن الإنتاج. ثم لا تكتفـى هـذه الدول بذلك، بل تقيد العالم الإسلامى بقروض ربوية تجعلـه يعجز عن سداد الدين الذى يتضخم، وبالكاد يـدفع فوائـده. ويرتهن اقتصاد البلاد وزبدة الإنتاج لتسديد هذه الفوائد. وقد يقدمون "معونات" والحقيقة أنها معونات لهم ولـيس للعـالم الإسلامى لأن كل معونة تصطحب بشروط وقيود وإجراءات وضمانات وعدد من المستشارين الأجانب أو تشترط سـلعاً معينة قد تكون راكدة فى دولتهـا وتريـد الـتخلص منهـا، وتشترط أن تتم عمليات التبادل الصناعى والتجـارى علـى سفنها أو بطرقها. وفى النهاية فإن نتيجة المعونـة توظيـف عدد من الأجانب، ورشوة عدد من المسئولين والتخلص مـن بعض سلعها الراكدة وتشغيل سفنها ونظمها الخ... فهى كسب للدولة "المانحة" على حساب الدول المتلقية ! .

وداخل كل دولة، فى وزارتهـا، خبـراء وموظفـون يعكفون على إتمام هذه الخطط ويضعون ترتيباتها ويكتبـون التقارير ويعتمدون على أرقام وإحصائيات مزيفة أو توقعات خيالية.. وعندما تكذبهم الوقائع فإنهم يتمحكون وأن كانوا فى



النهاية يعمدون إلى المزيد من القروض ويبخسون عملـتهم حتى لا تساوى شيئاً أمام الدولار .

وهؤلاء هم خبراء التنمية وأساتذة الاقتصاد، وقد حكم عليهم الوضع بهذا الموقف، وأصـبحوا أدوات لـه. وهـم يصدرون التقرير تلو التقريـر، ويعتمـدون علـى نسـيان الشعوب، وتصديقها ورضوخها وانصياعها فى النهاية لأنهـا لا تستطيع العمل، ولا تهتدى للحل .

وبفضل هذا يعيش الحكام فـى قصـورهم، ويعـيش "التكنوقراط" فى فيلاتهم. ويكسـب المسـتوردون والتجـار الملايين وتنحط يوماً بعد يوم مسـتوى المعيشـة بصـورة تدريجية تصبح مفزعة فى النهاية، وأن لم تظهر كذلك فـى البداية ..

إن هذه الوسائل التى تعتمد على سياسات الحكام وعلى تقارير الفنيين والاقتصاديين ومن ورائهم التجار الجشـعون والرأسمالية الطفيلية، وسياسات صندوق النقد الدولى.. وفتح الأبواب للسلع المستوردة التى تودى بكل صناعة وزراعة لا يمكن أبداً أبداً أن تحقق نهضة ولا أن تحفظ لشعب كرامتـه وعزته واستقلاله ..

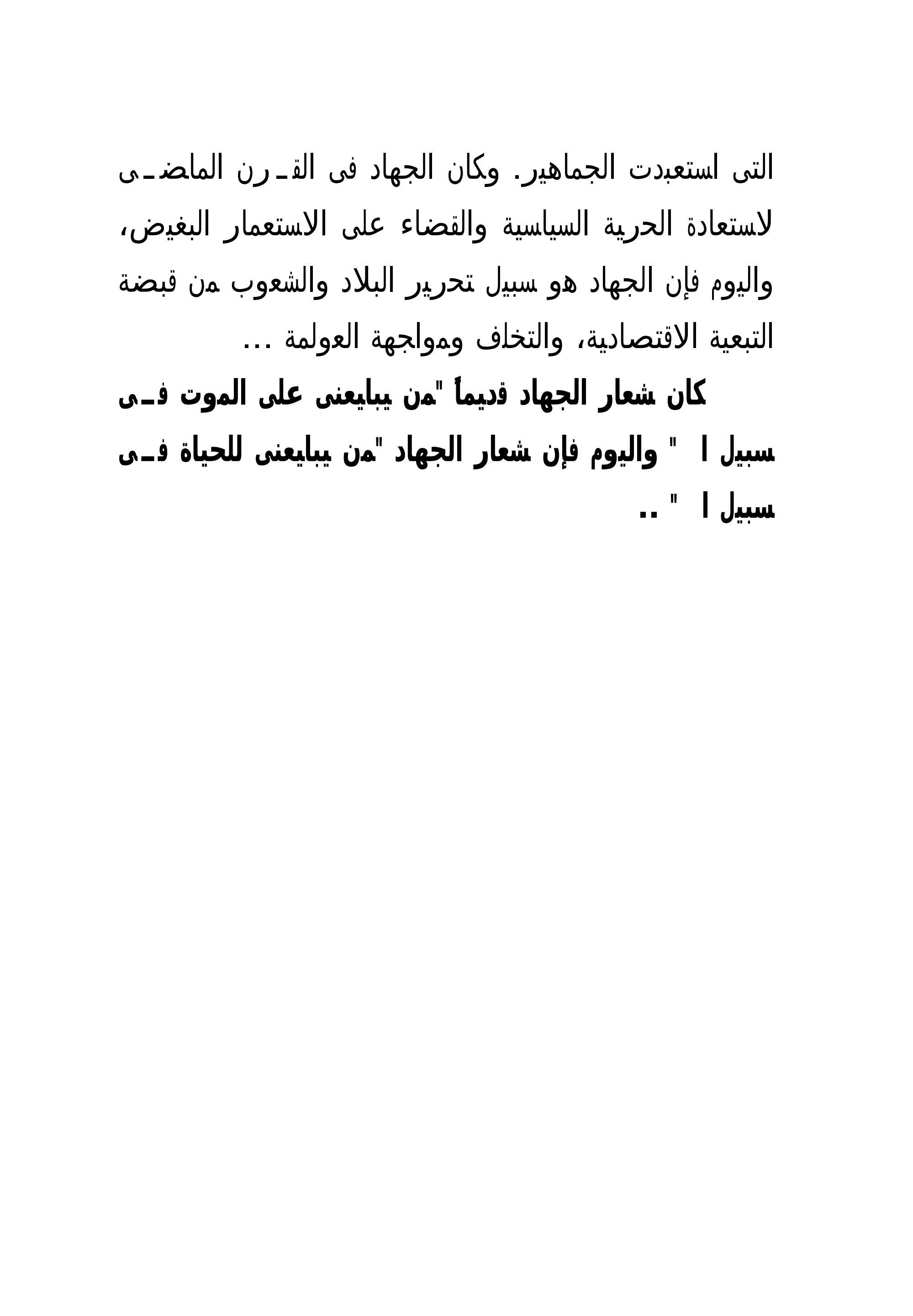
لا يمكن الإنقاذ إلا عندما تعتبر الجماهير عملية التنمية، عمليتها وتأخذها من أيدى الخبراء والتكنوقراط. وهذا لا يتحقق إلا بإيمان عظيم بأن هذا هو الجهاد الحق الذى أراده الإسلام وعندئذ تتحول التنمية إلى معركة حضارية، شعبية، إسلامية تؤدى تحت لواء الجهاد المقدس. تبدأ من نقطة العدالة التى لا تتطلب إلا الإجراءات الإدارية لتحقيق التقارب فى الدخول والثروات حتى تصل إلى مرحلة الكفاية التى تنهض بالإنتاج بحيث يتيح مستوى المعيشة المطلوب لكل الشعب ..

إن إرادة الشعوب وحدها هى التى يمكن أن تصمد، وأن تنتصر، على هذا الطوفان، عندما تنتظم وتعبئ نفسها فى جهاد مقدس وتحت راية قيمة عظمى كالإسلام .

أن هذا الجهاد هو وحده الذى يستطيع أن ينهض من الحاضر المتردى المعقد، ويجابه التحدى الكاسح للعولمة .

أن الجهاد اليوم ليس هو أن نموت فى سبيل ا . ولكن أن نحيا فى سبيل ا .

كان الجهاد الإسلامى الأول فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين موجها "ضد الكسروية والقيصرية والنظم الطبقية



التى استعبدت الجماهير. وكان الجهاد فى القـرن الماضـى لاستعادة الحرية السياسية والقضاء على الاستعمار البغيض، واليوم فإن الجهاد هو سبيل تحرير البلاد والشعوب من قبضة التبعية الاقتصادية، والتخلف ومواجهة العولمة ...

كان شعار الجهاد قديماً "من يبايعنى على الموت فـى سبيل ا " واليوم فإن شعار الجهاد "من يبايعنى للحياة فـى سبيل ا " ..